سيرة

نظرة حيّة

قصة حب ميلينا يسنسكا

ألويس برينتس

الحائز على جائزتي إيمي ووسام
الأكاديمية الألمانية 2017

ترجمة
محمد رمضان حسين





قصة حب ميلينا يسنسكا

محمد خطاب

نَــارٌ حَيَّــة

قصة حب ميلينا يسنسكا

Ein Lebendiges Feuer

Die Lebensgeschichte der Milena Jesenská

ألويس برينتس

ترجمة: محمد رمضان حسين

الطبعة الأولى: يوليو ـ تموز، 2019 (1000 نسخة)

بيروت ـ لبنان

The translation of this work was supported by the Goethe-Institut, which is funded by the German Ministry of Foreign Affairs, within its programme Litrix.de

تم دعم ترجمة هذا العمل من قبل معهد جوته، وبتمويل من وزارة الخارجية الألمانية، ضمن برنامجها مشروع ليتريكس

First published 2016



لبنان ــ بيروت / الحمرا

تلفون: 345683 1 961+ / 541980 1 961+

بغداد ــ العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 07714440520 / 07811005860

GOETHE INSTITUT

Litrix.de GERMAN LITERATURE ONLINE

daralrafidain@yahoo.com

info@daralrafidain.com

www.daralrafidain.com

dar alrafidain

Dar.alrafidain

دارالرافدين@daralrafidain_I

ISBN: 978 - 9922 - 607 - 64 - 1

ألويس برينتس





قصة حب ميلينا يسنسكا

ترجمة

محمد رمضان حسين







ميلينا يسنسكا، في بداية عقدها الثالث

مصدر الصورة: akg-images

الفهرس


MOHAMED KHATAB



إهداء المؤلف

إلى ميريام...


محمد خطاب



ميلينا من براغ

امتلأ رأس ميلينا بفوضى عارمة. كانت الساعة الثالثة صباحا في ذلك اليوم من مايو سنة 1915 حيث تبدأ في اليوم التالي امتحانات الثانوية العامة في مدرسة مينرفا للبنات بمدينة براغ، وقد شعرت أنها نسيت كل ما درسته، حيث أمضت ساعات شاقة في مراجعة مادة التاريخ والآن تسرب من رأسها كل شيء. لم يختلف الأمر كثيرا مع مادتي اللاتينية واليونانية. «راجعت المواد بالأمس سبعَ ساعات، وغدًا الامتحان، وأشعر أني نسيت كل شيء تمامًا»، هكذا كتبت إلى معلمتها «الآنسة الدكتورة» كما كانت تدعو ألبينا هونزاكوفا، المعلمة الوحيدة من بين طاقم التدريس التي كانت محطّ إعجاب ميلينا ومصدر ثقتها. كانت تكتب إليها الرسائل الشخصية وأرادت باستمرار التحدث معها عن مواضيع غير متعلقة بمواد التدريس. لهذا السبب خاب أملها عندما طلبت منها معلمتها المفضلة الانتظام والتصرّف كما هو مطلوب في المدارس، كان ردّ ميلينا عليها أنها ستتصرف «بهدوء، وأدب، وسلاسة مثل فولينيكورا وطالبات مثاليات أخريات. بكل صراحة؟ لم أدرِ أنك أنت أيضًا تحكمين على البشر بحسب ذلك».

بدلا عن وضع الامتحانات كانت ميلينا تفضل التحدث مع شخص ما حول أسئلة بسيطة لم تجد أجوبتها لدى أحد. فأمها التي كانت تتحدث

معها عن أي موضوع شاءت؛ تُوفيت قبل سنوات. وسادت بينها وبين والدها في البيت «مشاهد مخيفة». لم يعد يعرف يان يسنسكي - طبيب الأسنان والأستاذ الجامعي - ابنته، تحوّلت ميلينا بعد موت أمها من فتاة مطيعة ونشيطة إلى كتلة غضب عنيدة، تحاول بكلّ قواها تدمير سمعته الطيبة؛ فقد بالغت في صرف أموال أبيها، وصارت تسرق، وتتعاطى المخدرات، وتَتسكّع مع صديقاتها في أماكن سيئة السمعة، وارتبطت برجال يكبرونها. بَذلَ يان يسنسكي جهدًا كبيرًا؛ لإخفاء انحرافات ابنته عن المجتمع ومعالجة أضرار أفعالها. كان أمله أن تعود ميلينا إلى رشدها وتسلك درب الحياة الذي رسمه لها. كان من المفترض بها دراسة الطب وأن ترث عيادته المزدهرة.

لم تعرف ميلينا، ماذا ستصبح؟ أحبت بشغف شديد الموسيقى، والكتب، والصور؛ مما تسبب في رفض البعض لها. فقد كان يؤلمها وصفها بأنها مجرد «عاشقة للجمال»؛ لأنها تريد كما قالت ذات مرّة أن تعيش «حياة واقعية، ملموسة». بيد أن هذا لم يمنعها عن التبذير إلى حد الإسراف والتفريط في نواحي حياتها كافة: كالحب، والصداقة، واعتنائها بالآخرين. قُوبِلَ شغفُها المُفرطُ هذا غالبًا بقليل من التفهم. كانت بالنسبة إلى الكثيرين: سريعة الغضب والهيجان، وبلا عقل، ولا تطاق، ومتهورة، وجامحة. الشخص الوحيد الذي أخذها على محمل الجد ولم يخاطبها أبدًا بنبرة مذلّة أو جارحة هي معلمتها «الآنسة الدكتورة»؛ لهذا السبب شكرتها ميلينا عندما اجتازت كل الامتحانات في يوليو 1915 بنجاح وبذلك أنهت فترة دراستها. وقد وعدت معلمتها كذلك بأنها سوف «تبلغ مكانة عالية في الحياة، عالية جدا»..

جلست ميلينا يسنسكا بعد خمس وعشرين سنة من تخرجها في المدرسة في أكتوبر 1940 في القطار الذي نقلها إلى معسكر الاعتقال في رافنسبروك، متهمة بالخيانة العظمى؛ لأنها كانت تعمل في مجلة غير قانونية في مدينتها ومسقط رأسها براغ التي كانت في ذلك الوقت تحت سيطرة جنود هتلر. لم تقدّم محكمة النازيين أي دلائل ضدها، وعلى الرغم من ذلك فقد تم اعتقالها.

كانت ميلينا تعرج بعض الشيء، وبقيت هذه الإعاقة ترافقها منذ العملية الجراحية في ركبتها. بالإضافة إلى ذلك شعرت بالألم في يديها بسبب التحقيقات الطويلة في زنزانة باردة ورطبة. استلمت الملابس الخاصة بالمعسكر مثل كل المعتقلات الأخريات: سروالا، وقميصا رماديين، ومعطفا مخططا، ومِئزراً أزرق، ومنديلا، وقبقاباً خشبياً، كعبُهُ عالٍ. وقد خِيطَ الرقم الخاص بها على كُمّ فستانها الأيسر. كان رقمها 4714 وفوقه مثلث أحمر إشارة إلى أنها معتقلة «سياسيّة».

في معسكر الاعتقال كان هناك مجموعة كبيرة من النساء التشيكيات، ومن بينهن ميلينا؛ لكنهن سرعان ما ابتعدن عنها عندما أدركن أنها لا تشاركهن آراءَهُنَّ السياسية. لم تكن تعتقد أن الأمور ستصير على ما يرام إذا هزمت القوات الروسية جيوش هتلر، لم يكن الدكتاتور السوفياتي ستالين بالنسبة إليها أفضل من النازي هتلر. ازدادت الكراهيّة تجاه ميلينا عندما أرادت التواصل مع امرأة ألمانية، قضت وقتا في المعتقلات الروسية. ألتقت ميلينا بمارجريته بوبر نويمان في ساعة التجول، حينما كان يُسمح للمعتقلات بالتجول على الطريق الضيّقةِ بين جدار المعسكر والحائط الخارجي للثّكنة. على الرغم من أنه كانا يدفعهما تدفق النساء إلى الأمام

إلا أنهما بقيتا واقفتين تتحدثان. سرعان ما انبهرت مارجريته في الحال بزميلتها الجديدة «ميلينا من براغ»، كما قدّمت لها نفسها، فقد فتنها حب استطلاعها، وفِكرها المستقل، وأسئلتها الذكية، وقبل كل شيء حيويتها غير العادية.

روت كل منهما قصة حياتها للأخرى خلال الجولات اللاحقة بجانب «حائط المبكى» كما كانت تسمي ميلينا جدار المعسكر الذي يبلغ ارتفاعه أربعة أمتار، وخلال اللقاءات الليلية السريّة في الثّكنات. حكت ميلينا لصديقتها عن موت أمها المبكّر، وسنوات شبابها الصاخبة في براغ، ومعاركها مع أبيها الذي قام بحبسها في مستشفى للأمراض العقلية؛ لكي يمنعها من الزواج بيهودي يكبرها بعشر سنوات؛ ولكن من دون جدوى. أخبرتها أيضًا بسنوات زواجها في فيينا، عندما كانت وحيدة وفقيرة، تعمل في حمل الحقائب بمحطات القطارات، ثم كيف بدأت تكتب وتتحرر شيئا فشيئا من زواجها التعس. حدّثتها عن حبها القصير للشاعر فرانتس كافكا، ورجوعها إلى براغ، ونجاحها بوصفها صحفيةً، وزواجها الثاني، وابنتها يانا، وأمراضها، وهزائمها، وأيامها السعيدة، وكيف أصبحت مناضلة في المعارضة السياسية..

كان يبدو على ميلينا الحزن كلما ورد ذكر ابنتها يانا أو هونزا كما كان الكل يدعونها. لم ترَها ميلينا سوى مرّة واحدة فقط بعد اعتقالها. ومنذ ذلك الحين، كانت تحاول يائسة معرفة ما حلّ بيانا ومن يعتني بها. أرادت أن تكون بالقرب منها.. على الأقل عبر الرسائل المراقبة التي يمكنها إرسالها إلى براغ: «بالرغم من أن لدي طفلة تفكر، وتشعر، وتكبر، إلا أني ممنوعة من البقاء بجانبها. لا يسعني سوى أن أحلم بها، وأفكر فيها، وأصلي من

أجلها. يمكنني أن أرسل إليها تحيّاتي مع السحاب؛ لكن الرب وحده يعلم إن كانت ستصلها. [...] غالبًا ما أفكر فيكم جميعا، تحياتي لكم، سأكون معكم دائما. أشعر أنني بحالة جيدة حقا، وأنا ممتنة جدا لهذا العمل، كما أني نشيطة وبصحة جيدة، فقط لا تنسوني أبدا. قبلاتي لكم، ميلينا».

لم تكن ميلينا على ما يرام ولم تكن بصحة جيدة كذلك. كانت يداها ورجلاها منتفخات من الروماتيزم وتعاني من الامٍ شديدة في الكِلْيَتَيْن؛ لكنها لم تَشْكُ وبَقِيَتْ غَيْرَ مُباليةٍ في معسكر الاعتقال. لم يكن تصرّف ميلينا بالنسبة إلى مارجريته بوبر نويمان «مناسبًا للمعسكر». كتبت في مذكراتها:

«كان مجرد ظهور ميلينا يمثل احتجاجًا مستمرًا ضد نظام المعسكر، لم تسر بالطوابير الخمسة أبدا، ولم تكن تقف حسب التعليمات عند عدّ المعتقلات، ولم تكن تسرع بمشيتها عندما كانت تؤمر بذلك، ولم تتملق المسؤولين هناك».

كان موقف ميلينا مصدر عون وراحة كبيرين لكثيرات من المعتقلات في المعسكر. بعضهن أطلقن عليها لقب «زاريفا»، أي الحاكمة؛ لأنها كانت حرة وحافظت على كبريائها في هذا المكان؛ حيث تسيطر عليه كل أنواع المعاناة والموت والإذلال. كثيرات من المعجبات بقوة ميلينا ليس لديهن فكرة عن الصراع الذي كان يدور في داخلها طوال الوقت. كانت دائمًا مدفوعة من قبل حنين كبير، بينما من ناحية أخرى تعد من أهم قيمها تقبّل الحياة كما هي. أيضًا كانت ميلينا في معسكر الاعتقال: «شخصا يفكر بواقعية»، بينما قالت عنها لاحقا إحدى السجينات «لكن ما تزال دائمًا شاعرة وحالمة».

وبحسب ميلينا فإن هناك طريقتين لعيش الحياة؛ إما أن يقبل المرء بمصيره، بما فيه من سعادة وتعاسة، ويكون مستعدا لدفع ثمن الأغلاط والأخطاء، أو إنه يسعى خلف مصيره؛ لكن هذا السعي يكلف الكثير من الوقت والطاقة، وهو يأتي غالبًا على حساب الحياة. وكل من يكتفي بالسعي فقط، سيصبح ـ بحسب ميلينا ـ أشد فقرًا، وسيفقد «الشعور اليقيني بالأشياء» ومن ثم سيفقد في النهاية الشعور بقيمته الخاصة.

كانت ميلينا باحثة؛ لكنها علاوة على ذلك كانت عاشقة أيضًا. سعى فرانتس كافكا للتقارب الإنساني عبر رسائله إليها، وقد جمعته بها قصّة حبّ قصيرة، وهو الذي أطلق عليها لقب: «نارٌ حيّة». تفهّمت ميلينا خوف كافكا من البشر، فلم يكن شيئا يهمها أكثر من الواقع الحاضر. لو ظلت مع كافكا، لما أمكنها السير على درب المرأة المقاتلة؛ لتصبح مناضلة في المعارضة السياسية. كانت الحياة ليوم واحد أهم بالنسبة إليها وأكثر قيمة من كل تلك الرسائل أو الكتب. كثيرا ما أعربت عن هذه القناعة في مقالاتها؛ فقد كتبت في إحداها: «أحب الحياة، فكلها ساحرة، ورائعة، ومشرقة، بكل مظاهرها، وصورها، بأيامها العادية وأعيادها، بسطحيتها وعمقها».

عُيّنت ميلينا؛ لتعمل في عيادة المرضى لمعسكر اعتقال رافنسبروك، حيث كان بوسعها النظر إلى البوابة الحديدية الكبيرة التي تفصلها عن الحرية. كانت قد علقت صورة لـ براغ على الحائط، وبجانبها تقويم عليه صورة نافذة مفتوحة على مصراعيها تطل على مناظر طبيعية جبلية. عندما عاشت ميلينا في فيينا، كتبت مقالا عن النوافذ، فقد كانت النوافذ تعني لها

شيئا خاصا. لم تكن الأبواب؛ بل النوافذ هي «بوابات الحرية»، كما كتبت حينها. يبدأ العالم من خارج النافذة؛ «لأن النافذة هي مصدر الأمل في الضوء، عبر شروق الشمس في الأفق.. في النوافذ ينبت الشغف والرغبة».

حب أبـوي

«أنا صلبة للغاية، بفضل أبي»

في أوائل سبتمبر 1907 ساد شعور بالترقب أمام مدخل مدرسة مينرفا الخاصة في شارع فويتسكا بمدينة براغ. كان هذا هو اليوم الدراسي الأول. حيث وقفت الأمهات والآباء بفخر إلى جوار بناتهم الأنيقات. ثمة زوج واحد قد أثارا اهتمام الجميع.. كان ذلك الطبيب والبروفسور المعروف يان يسنسكي وابنته ميلينا البالغة أحد عشر عاما. كان للطبيب يسنسكي مظهرٌ مبهرٌ؛ فهو طويل القامة وعريض المنكبين، يرتدي معطفا طويلا يصل إلى الركبتين، وتعلو رأسه قبعة أسطوانية، ونظارة مفردة على عين واحدة. بدت بجواره ميلينا، طويلة، ونحيفة جدا، ورقيقة، وضعيفة. كان واضحا للجميع أنّ هذا الأب فخورٌ جدا بابنته، وحريصٌ على تقديم انطباع جيد عنها منذ البداية؛ حيث حاكت خياطة ثياب ميلينا خصيصا؛ من أجل هذه المناسبة، فكانت ترتدي زيًّا رماديًّا أنيقًا، وتعتمر على شعرها الكثيف المجعد قبّعة قطيفة بشريط ملوّن.

ينبغي على الفتيات ـ من أجل قبولهن في مدرسة مينرفا ـ أنْ يَجتزْنَ امتحانات في الدِّين، واللغة التشيكية، والرياضيات. لم يكن لدى يان يسنسكي أدنى شك في أن ابنته يمكنها التغلب هذه العقبة من دون أي صعوبة؛ بل ذهبت خططه المستقبلية إلى أبعد من ذلك بكثير؛ فميلينا كانت وحيدته، بعد أن فقد ابنه الآخر، الذي ولد بعدها بثلاث سنوات وكان يسمى

يان أيضًا عقب مولده ببضعة أشهر فقط. كانت كل آمال يان يسنسكي منصبة على ابنته، فقد أرادها أن تتبع خطاه بدراسة الطب، لم تكن هذه المهنة شيئا عاديا بالنسبة إلى امرأة في ذاك الزمن، كانت الدّراسات العليا حينها حِكرا على الرجال، ويعد وصول امرأة إلى قاعات المحاضرات استثناءً نادرًا حتى إن كانت لديها موهبة ملفتة وطموحٌ جامح. كان من الطبيعي بالنسبة إلى فتيات الأُسَرِ البرجوازية أنْ يَدخُلْنَ المدارس العامة لأربع أو خمس سنوات، ثم ينتقلن إلى مدرسة ليسيوم الخاصة للبنات. كُنَّ يدرسن هناك بعض اللاتينية والفرنسية. أما النتيجة فكانت ـ كما وصفتها لاحقا يانا ابنة ميلينا ـ تخريج «دمى لطيفة للعرض» كل دورها في الحياة مجرد زوجة وأم؛ لكنها مزيّنة ببعض الثقافة. بدأ يتغيّر هذا الوضع فقط منذ بداية القرن العشرين، بينما تطلب الأمر مزيدًا من الوقت في مملكة النمسا والمجر التي كانت براغ تابعة لها.



ميلينا المينرفيَّة على ضفاف نهر فلتافا

مصدر الصورة: Verlag Neue Kritik

كانت مدرسة مينرفا للبنات متقدمة عن زمنها بفارق كبير. عندما تم افتتاحها في عام 1890 بعد مطالبة لحوحة من قِبل رابطة مينرفا النسائية، كانت أول مؤسسة من نوعها في أوروبا الوسطى. لم يسمح للمدرسة في البداية بإجراء الامتحانات النهائية الخاصة بها، وكان يتم تمويلها بمساهمات الأهالي والتبرعات والمنح. لم تعترف العاصمة الملكية براغ بـمينرفا حتى عام 1914، وأقرّت بأنها ثانوية متخصّصة. وبعد مرور سنوات عديدة؛ ارتفعت نسبة الإناث في هيأة التدريس. عندما دخلت ميلينا المدرسة كانت قد التحق بعض خرّيجاتها بطاقم التعليم. كانوا ينظرون آنذاك إلى المعلمات على أنّهُنّ مجموعة من

المناصرات لحقوق المرأة ويحسبن في براغ بين النساء «المخبولات تمامًا».

لم تكن مينرفا معلما بارزا في تحرير المرأة فحسب؛ بل كانت أيضًا علامة سياسية فارقة. اتسمت الحياة في براغ بالتوترات بين الأقلية الألمانية والأغلبية التشيكية. ناضل السكان التشيكيون لمزيد من الحقوق، وأرادوا إثبات أنهم ليسوا أقل شأنا من الألمان بأي حال؛ فقد فتحت هذه المدرسة أمام الفتيات طريقا إلى التخرج بشهادة الثانوية، التي مَنحتْهُنَّ تعليما معاصرًا للغات حيّة مثل الانجليزية والفرنسية، بالإضافة إلى التعليم الكلاسيكي للغات اللاتينية واليونانية؛ ولهذا كانت الفتيات يَدْرُسْنَ منذ البداية؛ ليصبحن في مدرسة خاصة، ويَنتمينَ إلى طبقة النخبة.

اجتازت ميلينا امتحان القبول وانضمت إلى الصف IA مع خمس وثلاثين فتاة أخرى، فصارت بذلك مينرفية، حيث استقبلت في براغ بمزيج من الإعجاب والتشكيك. أما حقيقة إلحاق يان يسنسكي ابنته بهذه المدرسة فتخبرنا الكثير عنه. أراد منح ابنته الوحيدة أفضل تعليم متاح، كما أراد أن تنمو ميلينا في بيئة تشيكية. فقد كان هو نفسه تشيكيا خالصًا بالروح والجسد، ويحمل ضغينة قوية نحو الألمان واليهود. كان يان يسنسكي فخورا جدا بأصوله، وقد أثبت أنه يمكن للمرء تحقيق نجاحات باهرة رغم انتمائه إلى شعب صغير ومضطهد. كان على ميلينا مواصلة السير على الدرب نفسه، وأتاحت لها مينرفا هذه الفرصة. بالمقابل كان على يان يسنسكي أيضًا أن يقبل تعرُّض الشابات في تلك المدرسة لأفكار تقدمية وحداثيّة لا تتوافق مع قيمه المحافظة.

كان مدير المدرسة يوزف جريم، يتوقع قدوم الطالبات الجديدات

بمرافقة والديهم في يومهم الدراسي الأول. جاءت ميلينا بصحبة والدها فقط وبقيت أمها في البيت. كانت تعاني من المرض واضطرت إلى ملازمة السرير لترتاح. بالإضافة لذلك، لم تكن أمور الزواج بينها وبين يان يسنسكي على ما يرام. كان الاثنان مختلفين جدا. فمن جهة، والد طموح، مفعم بالصحة والطاقة، ومن ناحية أخرى، أم رقيقة ومريضة دائمًا. ويبدو أن السبب الوحيد في استمرار هذا الزواج غير المتكافئ هو العناية بالابنة الموهوبة. كانت تقف ميلينا بينهما كمن يقف بين عالمين مختلفين تمامًا. ومع التحاقها بمينرفا، انفتحت أمامها أبواب عالم جديد، تستطيع فيه تطوير شخصيتها الخاصة.

نشأ يان يسنسكي مع سبعة أشقاء، معظمهم فتيات، في منطقة مالا سترانا في براغ، بلدة صغيرة تقع غرب نهر فلتافا، أسفل القلعة. كان والده الذي حمل الاسم نفسه رجلاً من الحرفيين المهرة، وذا حس فنيّ، وكان يحلم طوال حياته بأن يصبح غنيّا ويعيش مع أسرته في منزل فاخر؛ لكن بغض النظر عما بدأه يان يسنسكي الأب، فإن أيًا من مشاريعه لم يجلب له النجاح المنشود.؛ فشل في مشروع المطبعة، وكذلك في تجارة مواد البناء. أما خطته لبناء مشتل لتزويد الحدائق العامة في براغ بحلّة رائعة من الزهور التي لم يسبق لها مثيل فظلت عالقة في مراحلها الأولية. وأخيرًا، اضطر إلى العمل بائعا متجولا؛ لإعالة أسرته والتخلي عن حلم الحياة الرغيدة والبيت الكبير.

لم ينشغل يان الابن، الذي ولد في 5 مارس 1870، بوالده كثيرًا، فلم يكن يريد أن ينتهي به المطاف فقيرا وفاشلا مثله. ومع ذلك استطاع والده إلحاقه بالمدرسة الثانوية؛ لينال منها شهادة تخرجه. يبدو أن الابن سرعان

ما قرر عدم الرهان على أفكار تجارية غامضة، مثل والده؛ بل القيام بتعليم جيد ومن ثَمّ ممارسة مهنة محترمة ومربحة، فقرر دراسة الطب. وبما أنه لم يتوقع أي دعم من المنزل؛ لذا كان عليه أن يوفر المال أثناء دراسته العليا. فقام بتقديم دروسٍ خصوصية؛ ولأنه كان عازفًا موسيقيًا جيدًا، فكان يقوم بالعزف للضيوف في حانات ومطاعم براغ. وربما أيضًا كان يحمل حقائب المسافرين الثقيلة.

أكمل يان يسنسكي دراسته في وقت قصير، بعمل جاد وإرادة حديدية، وأراد التخصص بعد ذلك في مجال طب وجراحة الفم والأسنان؛ لكن هذا كان يستلزم مزيدًا من الدراسات العليا، وأيضًا البقاء في خارج البلاد. وكان هذا مكلفًا للغاية؛ فالأموال التي اكتسبها من عزف الكمان وحمْل الحقائب، لم تكن كافية. هل كان هذا الوضع المادي الطارئ، بالإضافة إلى الخوف من التعثر المهني هو ما دفع يان يسنسكي للبحث عن زوجة؟ كانت هذه من الأسباب الشائعة والمقبولة؛ لعقد الزواج في ذلك الوقت. فكان طموح وتطلعات الشباب في كثير من الأحيان دافعهم للتقدم إلى الزواج، وهكذا، قبل بضع سنوات، استطاع والد فرانتس كافكا، هيرمان كافكا، فتح متجر لبيع الخردوات في براغ؛ لأنه تزوج من يولي لوفي، وهي امرأة من أُسْرَةٍ ثرية. وبهذا مكّنَ الزواجُ الفقيرَ اليهودي ابن الجزار الريفي، من التقدم الاجتماعي والمهني الهائل.

التقى هرمان كافكا، الذي كان يكبر يان يسنسكي بثمانية عشر عامًا، زوجة بمساعدة الخاطبة؛ لكن لا نعلم تحديدًا كيف التقى يان يسنسكي بزوجته ميلينا هيزلاروفا. فقد كانت ابنة لثري عمل مفتش مدارس في المناطق الريفية، وانتقل مع أُسْرَتِهِ إلى براغ قبل بضع سنوات فقط.

كانت ميلينا هيزلاروفا شابة وجميلة، وربما الأهم من ذلك أنها كانت تحمل معها مهرًا كبيرًا. انتقل الزوجان إلى شقة في حي جيجكوف الذي كان في الماضي قرية؛ ولكن أصبحت الآن جزءا من مدينة براغ، حيث أغلبية السكان من العمال، وأسعار الإيجارات مناسبة. وبالفعل غادر يان يسنسكي وترك بعضَ الوقت زوجته بمفردها في السنة الأولى من الزواج؛ من أجل إكمال دراسته في باريس. وحتى عندما حملت في وقت لاحق، كان عليها أن تقضي أسابيع، وربما أشهراً، بمفردها أو بمساعدة والديها؛ لأن زوجها كان يوسع خبرته المهنية بإشراف أستاذ جامعي مشهور في برلين. ولد الطفل في 10 أغسطس 1896. لو كان جاء صبيا لسُمي يان؛ ولكنها كانت فتاة، ولذلك سُميت كأمها «ميلينا»، والذي يعني «الحبيبة» أو «الـمحبة».

كان والدا ميلينا أو «ميليكا»، حسبما كانت تسمى، يُحبّانها؛ ولكن بطرق مختلفة. كانت تعيش مع أمها في جو من الهدوء والحميمية، بينما كان الأب يتدخل أحيانًا لتربيتها، كانت ميلينا تستقبله بتقبيل يده، مما لا شك فيه أن الطفلة ميلينا كانت تخشى من هذا الرجل العظيم، الذي كان يعد الضرب أمرًا مقبولا من أجل التربية؛ لكنها لم تكن قادرة على تصنيف سلوك الأب، رغم أنّ لها تأثيرا دائما عليها، وأقامت بينهما تقاربًا مختلفًا عن قربها من والدتها. ما زالت ميلينا تتذكر مشهدًا حدث عندما كانت تبلغ الثالثة من العمر، كانت تجلس مع والدتها وحدهما في غرفة، عندما جاء والدها فجأة وطلب منها مغادرة الغرفة؛ لأنه أراد محادثة الأم بموضوع لم يكن يفترض بها سماعه. فخرجت ميلينا على الفور؛ لكن بعد أن أغلقت الباب خلفها وكانت في طريقها إلى المطبخ، فتح الباب مرة أخرى.



الأب يان يسنسكي

مصدر الصورة : Verlag Neue Kritik

شك والدها في أنها كانت تتنصّت من خلف الباب؛ لكن عندما رأى ميلينا تسقط على الأرض من الرعب، أدرك أنه كان على خطأ، وسرعان ما قام بشيء غير متوقع:

«أدركتُ أنه ظن بي، وبدأ شيء مؤلم يخنق قلبي، أدرك الأب ما شعرت به، وأنه عليه أن يقول أو يفعل شيئًا، وقد قام بفعل شجاع جدا؛ تقدم نحوي بخطوات كبيرة وجادة، ثم مد يده لي وقال: أرجوك سامحني، لن أشك بك

مرة أخرى، في هذه اللحظة صار القلب المكسور فخورًا وحرًا. وكان أبي يقف هناك بشرف وعدل ليعلمني حينها تلك الأشياء الثمينة».

تزامن ذلك عندما رزقت الأسرة بمولود آخر، فكان يان الصغير هو من سيحفظ اسمها كما أراد يان يسنسكي دائما. وبالتأكيد كان هذا الصبي سيحوز اهتمام الأب بدلا من ميلينا لو لم يمت مبكرا. وكان موته أمرًا محيرًا. في وقت لاحق زعمت يانا ابنة ميلينا أن صرامة جدها كانت سبب وفاة الطفل. حيث لم تستطعْ زوجته إرضاع الطفل، ويقال إن يان يسنسكي قد منعها بشدة من الاستعانة بمرضعة. كان يتوجب على ابنه أن يثبت قدرته على البقاء حتى من دون هذه المساعدة؛ ولكنه لم يثبت ذلك. كانت هناك خادمة تهتم به، لفترة من الزمن، قبل أن يموت. هل كانت مبادئ يان يسنسكي أكثر أهمية من حياة ابنه الوحيد، على الرغم من ضعفه؟ على أي حال، لم تضطر ميلينا الصغيرة بعد ذلك إلى أن تصبح راعية لأخ مفضل عليها. لو حدث ذلك لأخذت حياتها بالتأكيد منعطفا آخر؛ لكنها بقيت الابنة الوحيدة، ومن ثمَّ اضطرت لتحمل عبء كل التوقعات الأبوية وحدها.

أنهى يان يسنسكي في هذه المرحلة دراسته وحصل لقب الدكتوراة في الطب. كان يعمل مساعدًا في الجامعة بشكل مؤقت، آملا أن يصبح أستاذًا لاحقًا؛ لكن كل هذا لم يكن كافيا له. أراد أن يفتح عيادة خاصة به لطب الأسنان عن طريق أموال زوجته، ويفضل أن تكون في موقع رئيسي بوسط مدينة براغ. بالإضافة لذلك، كانت الأسرة بحاجة إلى منزل جديد ملائم للوضع المستقبلي. ربما كانت الشقة الموجودة في منزل شفارتسن آدلر بزقاق آيزن مجرد حل مؤقت فقط. على الرغم من

أنها كانت تقع بالقرب من الجامعة، إلا أنها غير مناسبة لافتتاح عيادة؛ ولكن في زقاق أوبست القريب من ساحة فنتسل، تم إنشاء مبنى كبير وجديد، حيث توجد غرف وشقق مناسبة وذوات معايير عالية. بعد عام واحد فقط في 1902، انتقلت أُسْرَةُ يسنسكي من زقاق آيزن إلى زقاق أوبست. كان مبنى من خمسة طوابق على طراز فن الآرت نوفو.: فيه بَهْوٌ ضخم في مدخله، ونوافذ ملونة، ودرج من الألواح الخشبية، وجدران مكسوة بالرخام. أنشأ الدكتور يسنسكي عيادة الأسنان في الطابق الأول، بينما انتقلت الأُسْرَةُ إلى شقة فسيحة في الطابق الخامس.

كانت العمارة في زقاق أوبست تقع عند تقاطع الشرايين الرئيسة للمدينة، شارع جرابن وساحة فنتسل، عند الحد غير المرئي الذي يفصل بين عوالم مختلف القوميات المتعايشة في المكان. بينما كان التشيكيون يشغلون ساحة فنتسل لمعاملاتهم، كان جرابن مركزًا للحياة الاجتماعية الألمانية واليهود المنتمين إليهم أيضًا. كانت في جرابن المطاعم، والمقاهي، والمكتبات، والفنادق المفضلة في المجتمع اليهودي ـ ألماني. أيضًا كان يقام الـ «كورسو» كل يوم أحد في هذه المنطقة، وهو: عبارة عن مسيرة منظمة تحكمها طقوس تصور الأوضاع الاجتماعية والعلاقات الخاصة للناس. كان مدى إنزال القبعة عند التحية مثلا، أو الابتعاد مسافةً عن الشخص المخاطَب عند إلقاء التحية كلها أشياء تعبر كثيرًا عن علاقات الناس ببعض. لم يتصرف التشيكيون بشكل مختلف في ساحة فنتسل حيث كانوا يترددون أيضًا على المتاجر نفسها، والحانات، والمقاهي. كما اتخذت شركة التأمين اسيكورازيوني جنرالي موقعًا في منطقة ساحة فنتسل، بالقرب من

شارع أوبست، ومنذ خريف 1907، كان يعمل بها فرانتس كافكا، الذي كان قد حصل مؤخرا على شهادة الدكتوراه في القانون. ربما لو نظرت ميلينا في ذلك الوقت عبر نافذة شقة والديها لرأت الشاب كافكا مهرولا إلى عمله كل صباح قبل الساعة الثامنة، أو خارجًا في أيام العطلة من إلدورادو، حانة النبيذ الموجودة في قبو قصر يقع في زقاق أوبست.

كان المبنى الجديد الذي تعيش فيه أُسْرَةُ يسنسكي الآن مؤشرًا واضحا لكيفية تَغيُّر مدينة براغ. هدمت منطقة بأكملها، يوزيفشتادت، الجيتو اليهودي السابق، الذي تدنى حتى صار أحد الأحياء الفقيرة، هُدم ضمن خطة للتدابير العمرانية واسعة النطاق، التي كان لها أثرها على البلدة القديمة. عندما ذهبت ميلينا مع والدتها إلى ساحة البلدة القديمة للتسوق، استطاعت أن ترى تقطيب عمال البناء للجدران القديمة بالمعاول والجرافات وبناء شوارع جديدة. كانت براغ الجديدة والحديثة قيد الإنشاء، والتي أصبحت مرتبطة أيضًا بتغير موازين القوى في المدينة. فبينما ظل عدد الألمان في براغ ثابتًا إلى حد كبير على مدار العقود الماضية، ارتفعت نسبة السكان التشيك بشكل مطرد. كانت الصناعة هي السبب الرئيس لذلك، حيث انتقل المزيد والمزيد من السكان من الريف إلى المدينة. في هذه الأثناء، لم يقتصر الأمر على تشكيل الألمان للطبقات العليا واستيلائهم على المناصب المؤثرة. صارت هناك الآن برجوازية تشيكية، حققت إنجازات رائعة في المجالين الاقتصادي والثقافي. حيث كان يان يسنسكي أفضل مثال على ذلك. ومثل غيره من الرجال الناجحين، أيد حزب التشيك الفتي، الذي طرح نفسه حزبا تقدميا، ودعا لجامعته التشيكية الخاصة في بوهيميا وزيادة اهتمامها

بالتنمية التقنية والاقتصادية. كما أقرت أيضًا إدارة المدينة التشيكية في عام 1886 تغييراتٍ جذريةً للمدينة.

كان المعرض الوطني الكبير في براغ عام 1891 فرصة فريدة؛ لإثبات الثقة للأمة التشيكية الجديدة في نفسها. بعد أن ألغى الجانب الألماني مشاركته بسبب الأفكار المتضاربة حول طبيعة المعرض، أصبح هذا المعرض تقريبًا شأنًا تشيكياً بحتًا. على غرار هذا المعرض قبل عامين أقيم في باريس معرضٌ دوليٌ على مساحة ضخمة في متنزه بوبنير، حيث قدمت أجنحته منتجات صناعية، وزراعية، وحرف يدوية، وفنية، بالإضافة إلى أحدث الاختراعات التقنية. مئات الآلاف من الزوار الذين توافدوا إلى المدينة لزيارة أرض المعرض، ربما أعجبهم بالفعل الإحساس الأول، لتجربة سيارة ترام لا تجرها الخيول؛ ولكن تقودها طاقة كهربائية غير مرئية، تسير من تلقاء نفسها. وإذا أردت، يمكنك الانتقال بواسطة تلفريك يصل بك إلى تل بترين، حيث تستطيع هناك تسلق برج المراقبة الفولاذي، الذي بني على نمط برج إيفل الباريسي، فقط أصغر قليلاً.

أقيم المعرض الوطني على شكل قصر للصناعة مضاء ليلا بإتقان مذهل، يضم قاعات لعرض الآلات الضخمة، والمحركات البخارية العملاقة للمناجم، والصناعات الكيميائية. هناك حيث يمكن للزوار التجول حول الأراضي الواسعة وزيارة كل ما يمكن أن تقدمه بوهيميا: السيارات، والمجوهرات، والمعدات العلمية، والخزف، واللوحات، والآلات الموسيقية، والآلات الحاسبة، والمظلات، والمنحوتات الخشبية، والصحف، وتربية الحيوانات. وكانت النافورة لها جاذبية خاصة، نافورة المياه المضاءة بأضواء ملونة. أشار التقرير المدون عن المعرض

الوطني بفخر إلى أن مملكة بوهيميا تقدم الكثير في مجال الصناعة؛ «مثل كل الدول النمساوية الأخرى مجتمعة». وكان ذلك إشارة إلى فيينا، مقر الإمبراطورية النمساوية المجرية، والتي صارت من وجهة نظر بوهيميا عتيقة وعفا عليها الزمن، وفاتها قطار المستقبل.

في نهاية سبتمبر 1891، في الأيام الأخيرة من المعرض الوطني، جاء أعلى ممثل لإمبراطورية هابسبورج، الإمبراطور فرانتس يوزف الأول، إلى براغ. حيث أمضى أسبوعًا كاملاً في المدينة، التي كانت في حالة طوارئ خلال تلك الفترة. حيث احتشدت الجماهير في الشوارع المزينة بينما كان الإمبراطور يرتدي الزي الرسمي في مقدمة الموكب الشعبي. وبالتأكيد لفت انتباه الإمبراطور صيحات «مرحى»؛ لإنّ العديد من «السلافيين» كانوا يعدونه ممثلا للوطن.

كان الشاب يان يسنسكي يقف على جانب الطريق ـ ومن كان سيفوت هذا الحدث ـ فإنه من المؤكد أنه لم يهتف للإمبراطور. لم يكن لديه انطباع جيد بشأن كل ما يأتي من فيينا. حتى إنه ادعى أن له صلة بيان يسينيوس، وهو طبيب وعالم مشهور، كان محفوظًا في الذاكرة الوطنية شهيدًا، واسمه مخلد على لوحة كبيرة من البرونز في قاعة البلدة القديمة في براغ. شارك يسينيوس في الثورة البوهيمية ضد قمع هابسبورج في أوائل القرن السابع عشر. بعد المعركة الحاسمة على الجبل الأبيض بالقرب من براغ، حيث تَمّتْ هزيمة المتمردين بشكل ساحق، كان انتقام المنتصرين مروعًا. حرص يان يسنسكي على تعريف ابنته ميلينا بالمكان الذي يحمل ثلاثة صلبان في ساحة البلدة القديمة، حيث عقدت محكمة دموية في 21 يونيو 1621، تم فيها الحكم على قادة الانتفاضة.

أعدم سبعة وعشرون رجلا واحدا تلو الآخر، إما بالسيف أو شنقًا. وتم التعامل بقسوة شديدة مع أبرز المدانين: يان يسينيوس، فقد قطع لسانه قبل قطع رأسه على الملأ.

وسواء كان يان يسنسكي سليل يان يسينيوس أم لا، فإنه لم يتمكن أبدًا من إثبات ذلك؛ ولكن بالنسبة إليه كما الحال لغيره من التشيكيين ذوي الميول القومية الأخرى، كان يسينيوس رمزا لقمع التشيكيين من قبل الألمان، والذي استمر حتى يومنا هذا، وتسبب في توترات وصراعات ملموسة. فعندما أراد رئيس الوزراء النمساوي باديندي أن يفرض في عام 1897 تساوي التعامل باللغتين؛ التشيكية والألمانية، مستقبلاً، أثار ذلك سخطًا شديدًا بين الألمان في بوهيميا، لدرجة أنه اضطر إلى التراجع عن هذا المرسوم اللغوي مرة أخرى. ثم حدثت في براغ في ديسمبر عام 1897 معارك شوارع حقيقية. حين أراد الطلاب القوميون الألمان «الاحتفال» بهذا الانتصار، وغناء إحدى أغاني المعارك الألمانية، ساعة على نهر الراين، عبر شارع جرابن وساحة فنتسل، وبالطبع، اعتبر الطلاب التشيكيون ذلك بمثابة استفزاز لهم، وعندما قامت الشرطة بفض مظاهرة مضادة لهم، كان ذلك مقدمة لعاصفة من العنف. لم يكن الأمر مرتبطا إطلاقًا باللغة «الألمانية»؛ ولكن كانت الجماهير التشيكية غاضبة. فقد دمرت المدارس، والصحف، ونهبت المتاجر، والفنادق، والمقاهي. حتى أعلنت براغ حالة الطوارئ.

ظلت المجموعات المتناحرة في حالة استعداد للقتال طوال السنوات التالية. قام الطلاب الألمان الذين ارتدوا قبعات الأخويات بممارسة التهديدات في ناحية جرابن، وكذلك قام الطلاب التشيكيون بالمثل

مرتدين قبعاتهم المخملية السلافية. وفي وقت ما عند مطلع القرن الجديد، اجتمعت الجماعات المتقاتلة مرة أخرى في جرابن. هذه المرة، كانت تشاهدهم فتاة صغيرة تقف في الجزء السفلي من نافذة المنزل. كانت ميلينا بجوار والدتها. تابعوا الفصائل المتحاربة وهي تقترب من بعضها، وفجأة أسرعت مجموعة من رجال الشرطة بالخروج من شارع جانبي ووقفت تفصل بين الجبهات. وعلى الرغم من الطلب المتكرر بالتوقف، واصلت حشود المتظاهرين التدافع إلى الأمام. فجأة دوّت هناك بعض الطلقات. افترق الحشد، عدا رجل واحد فقط كان يقف مباشرة أمام الشرطة بأسلحتهم. كان هذا هو يان يسنسكي. وإلى جواره رجل كان واقعًا على الأرض بلا حراك. مال نحوه يسنسكي، ثم بدأ بالكشف عليه. طوال حياتها لم تنس ميلينا هذه الصورة لأبيها، الشخص الوحيد الذي لم يهرب وبقي ليعتني بالجرحى، وكذلك رد فعل أمها: «كانت عيون والدتي نصف مغلقة، وأفلتت منهما دمعتان كبيرتان على خديها. ما زلت أتذكرها وهي تعانقني بشدة، كأنها تريد أن تسحقني»..

ما تزال الطفلة ميلينا غير قادرة على الفهم، وبالتأكيد غير قادرة أيضًا على شرح سبب تأثرها بسلوك الأب. فقط ميلينا البالغة استطاعت أن تجد الكلمات المناسبة لمشاعرها تلك. فهي تعتقد الآن معرفتها أن طبيعة الخوف لا تسمح لأحد بالبقاء في مكانه، والوقوف ما يزال يعني لها «السلام الكامل الذي أتطلع إليه، وما زلت لا أدركه». ومع ذلك، يمكن للشخص أن يحشد فقط عندما يشعر بالانتماء إلى فكرة، أو أشخاص آخرين، أو مجتمع. ومن يكون بمفرده، من دون أي التزامات، فإنه يهرب بسهولة أكبر. تقول ميلينا: «ربما كان الشعور بالوحدة، أعظم لعنة في العالم».

الألم الرهيب

«لديَّ شوق جنوني؛ للفرار نحو العالم»

الأطفال، كما قالت اليافعة ميلينا ذات مرة، ليسوا أشخاصًا ناقصي التكوين؛ بل أشخاص أكْفَاء، وعلى ذلك لا ينبغي على أحد معاملتهم كأنهم «دُمى جميلة» أو حيوانات لطيفة. فهم يفهمون كل شيء يحدث حولهم؛ لكن ليس بطريقة البالغين نفسها؛ ولذلك ينبغي على الجميع التعامل مع الطفل بالاحترام والجدية، وإدراك أن الأطفال يلاحظون على الفور، متى يتم العبث بهذه الجدية. وهذا يسري بالأخص على الوالدين. وكما قالت ميلينا؛ «الوالدان اللذان يجبران طفلهم على الخضوع لهما ـ فقط لأنه طفل وهما الوالدان ـ يربونه؛ ليصبح كاذبا؛ لأن الكذب هو الحماية الوحيدة له ضد السلطة، التي لا يفهمها»..

كانت ميلينا طفلة عنيدة. وبالتأكيد قد شعر والدها بهذا. وفي أحيان كثيرة لم يكن راضيًا عنها، ذات مرة عاقبها بالحبس في سلة الملابس، حيث جلست في ظلام دامس وبالكاد كانت تتنفس. كان الأمر مختلفًا مع والدتها. فمعها كانت تشعر ميلينا بأنها مفهومة، وتطمئن بأنها في مأمن. فالأم لم تشتمها أو تضربها أبدًا.

على الأرجح كانت فكرة إهداء ميلينا دمية هي فكرة الأب. أو على الأقل كانت فكرته استعمال تلك الهدية وسيلةً للتربية. فكانت الدمية

موضوعة على خزانة المطبخ، وكان يسمح لميلينا باللعب بها، عندما تكون مهذبة فقط. فالكل كان يتوقع منها، أن تسعد عندما تحصل على الدمية؛ كي تلعب بها. غير أن ميلينا أحست بأن هذه المكافأة أشبه بالعقاب نوعا ما، وأصبحت عاجزة تماما عن توقعات البالغين. دوَّنت ميلينا فيما بعد حيرتها تلك قائلة: «نجلس حزينتين في الزاوية: الدمية وأنا، وننظر إلى بعضنا».

كانت تفضل أكثر اللعب بالكريات الزجاجية، الموجود بداخلها أشرطة ملونة أو حبوب. فاختلقت ألعابًا مختلفة، فيها وجب على هذه الكريات أن تتنافس مع حبوب الفاصوليا، وكانت ترتبها بعناية شديدة وبطرق معينة تجعل الكريات هي التي تكسب دائمًا؛ لأنها كانت تحبها أكثر من الفاصوليا، ربما؛ لأنها كانت تحتوي على شيء سحري وخارق للطبيعة بألوان قوس قزح التي يتميز بها.

كانت ميلينا تلعب بمفردها في أغلب الأوقات. حيث كانت والدتها طريحة الفراش وضعيفة جدا على الخروج من المنزل. وعندما كانت تجد طاقة لهذا، كانت تهتم بهواياتها. فقد كانت تحب الثياب الجميلة والأثاث، التي كانت تنظم بها ديكور المنزل بذوق رفيع، حتى إنها صممت وصنعت كرسيا خاصا بنفسها. التحقت ميلينا في سن السادسة بمدرسة ابتدائية صباحية للبنات. وكانت تقضي الوقت المتبقي من اليوم في غرفة والدتها، التي كانت تجلس على كرسيها المتحرك وتقرأ لابنتها حكايات أندرسن الخرافية.

لم يكن الأب يُرى إلا قليلا في عالم النساء هذا؛ كان منشغلا إما في الجامعة، أو في عيادته الخاصة. وفي المساء يلتقي بأصدقائه في حركة سوكول، اتحاد الجمباز، الذي كان هدفه ليس فقط تعزيز ممارسة

الرياضة البدنية؛ ولكن أيضًا تقوية روح المجتمع التشيكي. فبالنسبة إلى يان يسنسكي كانت القومية الوطنية واللياقة البدنية ترتبطان ببعض. كان يستيقظ كل يوم مبكرا جدا، يأخذ حماما باردًا ويذهب؛ للتنزه مع كلبه. وفي عطلات نهاية الأسبوع كان يأخذ ميلينا معه في جولاته الطويلة، والتي كانت تقودهم بعيدًا إلى خارج المدينة. فالتمشية، كانت أفضل الطرق للتخلص من الهموم والمشاكل واستجماع أفكاره بعد أيام العمل المرهقة. ميلينا، التي كانت تفضل الجلوس في المنزل، وقراءة الكتب، تنامى إعجابها بالتحرك في الهواء النقي؛ لذا فلم يعد والدها بحاجة إلى إجبارها على تعلم السباحة والتنس.

كان يان يسنسكي يتوقع من الآخرين، ممارسة ما يفرضه نفسه هو على نفسه. فبات من الصعب عليه احتمال أن تكون زوجته صحتها ضعيفة جدا هكذا. وقد ساهم موت الابن في نفور الاثنين بالطبع. كان يان يسنسكي مهتمًا للغاية بتحقيق نجاحاته بمجهوده الذاتي، فلم يستطع نسيان أنه مدين في مهنته إلى نقود زوجته، واعتماده في البداية على هذه المساعدة؛ لذا فقد كان يستاء منها ومن والديها. وعلى ما يبدو أن الكلمات الرقيقة واللفتات الرومانسية كانت نادرًا ما تحدث بين الزوجين. وإن حدثت، كانت تقل قيمتها من جديد؛ بسبب سلوك يسنسكي غير المبالي. كما حدث ذات مرة في الربيع، عندما أحضر لزوجته باقة من ورود البنفسج إلى الفراش ثم أخذها منها بعد بضعة ساعات؛ لأنه كان بحاجة إلى هدية يقدمها إلى سيدة مريضة.

يمكننا فهم أن هذه الزيجة لم تكن مرضية بالنسبة إلى والدة ميلينا، وأنها كانت تشتاق إلى الحب والتفاهم؛ فعند مرضها، الذي كان على الأرجح

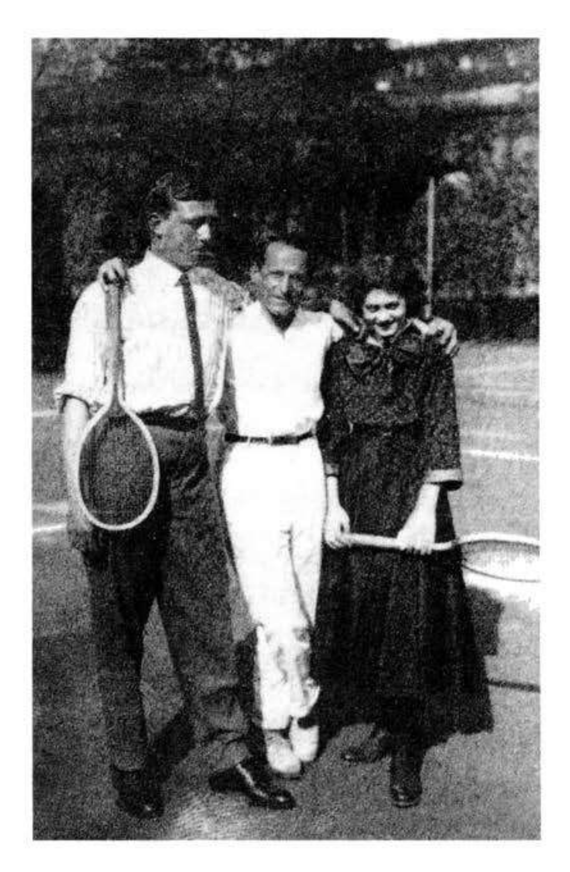
فقر دم مبنيا على نقص فيتامين ما، ثم تطور إلى الإعياء والشلل، ثم ساءت حالتها فكانت تذهب مع ميلينا للعلاج، ويبدو أنها قد مارست بعض العلاقات الطفيفة. فذات يوم بحثت ميلينا عن والدتها في فندق المنتجع الصحي، وأخيرًا عثرت عليها في الحديقة، تحت شجرة القلب النازف، بين أحضان رجل غريب. لم تتحدث ميلينا عن هذا أبدًا مع أي شخص، ولا حتى مع أمها؛ لكنها منذ ذلك الوقت صارت تكره هذا النبات تمامًا.

لم يعد يان يسنسكي كذلك يشعر بالتزامه نحو وعود الإخلاص الزوجية. فكان لديه العديد من العشيقات، حتى إن بعض مريضاته أيضًا كُنّ من بينهن، ولم تكن زوجته أو ابنته تعلمان أين يقضي الأمسيات في أوقات فراغه المحدودة. كان الأب يمثّل لميلينا طبيب الأسنان المحترم، الذي يعيش معظم الوقت في عالم آخر خارج شقتهم ذات الأثاث الداكن الضخم؛ لكنه هو أيضًا الذي كان كثيرا ما يُخرج ميلينا من غرفة الأم، التي أصبحت شديدة الشبه بغرف المستشفيات. غدت ميلينا في التاسعة، عندما اصطحبها والدها إلى غابات بوهيميا؛ لقضاء إحدى العطلات. هناك على سفح جبل شبيتشاك، أقاما في نُزل خشبي في منتصف الغابة: فندق بروكوب. كان يان بروكوب، المالك، يعمل سابقا في مقصف للعمال الذين بَنَوْا نفقاً للسكك الحديدية يمر عبر الجبل. وعندما انتهى النفق رحل العمال، وبقي يان بروكوب، حيث أقام نُزلاً، كان يجذب المزيد والمزيد من السائحين الباحثين عن الاسترخاء من براغ وبيلزن.

كان يان يسنسكي شخصا مختلفا في هذه البيئة، مسترخيا وسعيدا. فكان يقطع الريف طولا وعرضا مع ميلينا تحت الشمس والمطر. وكانا يجلسان ليلا مع العجوز بروكوب، مدخن الغليون أمام النار وينصتان إلى قصصه.

حتى في السنوات اللاحقة كان الأب وابنته يقضيان إجازتهما في شبيتشاك. وسرعان ما أصبح لدى ميلينا شعورٌ، بأنها تعرف كل شجرة، وذات مرة عندما كانت الثلوج هناك مرتفعة للغاية، علمها الوالد التزلج. لقد أصبحت ميلينا بفضل والدها، كما كتبت في رسالة لاحقًا، «صلبة للغاية»..

لأجل ذلك كانت مدرسة منيرفا أفضل اختيارات يان يسنسكي لابنته؛ لأنه توجد هناك أهمية كبيرة للنشاط الرياضي. كان فصل ميلينا يقوم برحلات قصيرة إلى البيئة المحيطة، و«فتيات منيرفا» كن يدخلن مجانا إلى ملاعب التنس ومدارس السباحة الموجودة على نهر فلتافا. حتى أنه توجد صورة للشابة ميلينا، ممسكة فيها مضربا للتنس. وبالقياس إلى الرجل الضخم، القوي، الواقف بجانبها، تبدو نحيفة جدا ورقيقة البنية. كانت ترتدي بلوزة ذات فيونكة كبيرة على الرقبة وتنّورة تصل حتى كاحليها. لم تكن ملابسها ملائمة في الواقع لممارسة الرياضة البدنية؛ ولكنها كانت مثالية لموضة السيدات في هذا الوقت؛ والتي كانت أهم أولوياتها تغطية جسد المرأة. قد حكى شتيفان تسفايج عن هذا في كتابه: «عالم الأمس». وإنها كانت فضيحة تقريبا، إن ارتدت امرأة بنطالا أثناء الرياضة أو اللعب. فالحياء المتكلف كان متماديًا للغاية، لدرجة إنه لم يكن يُسمح لأي سيدة النطقُ بكلمة «بنطال»، وأنّ عليها التحدث بتحفظ عن «البنطلون». قال تسفايج: « في الحقيقة إنه حتى في أشد أشهر الصيف حرارة، كانت الفتيات اللواتي يلعبن التنس بأذرع عارية أو حتى بثياب لا تصل إلى كواحلهن، كان يعد هذا أمرًا مخزيًا»..



ميلينا الرياضية، وهي في سن الخامسة عشر تقريبًا

مصدر الصورة: Verlag Neue Kritik

كانت فتيات منيرفا يُبِحْنَ لأنفسهن حُرّياتٍ أكثرَ، ويُظهرن الكثير من ملامح قوامهن، عندما كُنّ يَتشمّسْنَ بملابس السباحة على نهر فلتافا. فبعضهن كن معتدات بأنفسهن للغاية، لدرجة أنه انتشرت في براغ بين الشباب عبارة «فتيات منيرفا»، اللواتي كن «يُضنينَ الأعصاب». لم يكن من المعتاد أيضًا، أن ترتاد هؤلاء الفتيات المهذبات التقدميات

المعارض، والحفلات، وعروض المسرح، إلا مع معلماتهن. تعلمت ميلينا العزف على البيانو وأحبت المسرح. أعجبت بشخصية الممثلة ماري هوبنروفا وكانت متيّمة بالمغني هريبرت فافرا. وقد التقت الآن بصديقتين جديدتين، استطاعت أن تتشارك معهما أفكارها وأحلامها. الأولى: يارميلا، التي كانت معها في الصف الدراسي نفسه، والأخرى: ستاشا، التي كانت أصغر منهما بسنة. كانت الصديقتان تنحدران من أُسَرٍ تشبه أُسْرَةَ ميلينا. حيث كان والد ستاشا طبيبًا، ووالد يارميلا كبير محاسبي مصانع الكهرباء في براغ. كان كلا الوالدين مثل يان يسنسكي على الصعيد الوطني، وكلاهما قد تزوجا سيدات من أُسَرٍ محترمة وثرية. كانت يارميلا وستاشا غضّتين أيضًا مثل ميلينا وكانت تنعقد حولهن آمال كبيرة.

سُمح لميلينا كثيرًا بالاستمتاع بهذه الانطباعات والخبرات الجديدة داخل المدرسة وخارجها. في أحد أيام السنة الأولى في المدرسة كانت الأم تحتاج إلى رعاية تمريضية، وكان يجب الاعتناء بها على مدار الساعة، كان رأي يان يسنسكي، أن ابنته يمكنها تولي جزءٍ من هذه الرعاية. فميلينا تحب والدتها وكانت مستعدة لهذا أيضًا، من دون أن تُقدّر، ما سيعنيه هذا بالنسبة إليها. فكانت تجلس بجانب فراش المريضة بعد المدرسة يوما بعد يوم، تعطيها الدواء، وتطعمها، وتنظف الفراش والوسائد، وتحرك الأم بين الحين والآخر من جانب إلى جانب؛ كي لا تصاب بأي تقرحات فراش. بينما كان يتناوب معها والدها؛ ليحل ميلينا في المساء. وأحيانًا كان يتأخر عليها كثيرًا، فعندما كان يذهب يان يسنسكي بعد عيادته إلى ناديه، ويفوز في لعب الورق، يصير مزاجه جيدًا، ويريد إسعاد زوجته؛ لكن التناقض

بين الأب النشيط والأم المنهكة بشدة جعل الأجواء في غرفة المريضة أشد كآبة على نفس ميلينا.

فهل كانت ميلينا تفكر ـ في فترات ما بعد الظهيرة والمساء وهي بجوار سرير المرض ـ ماذا تفعل يارميلا وستاشا صديقتاها وبقية الفتيات الأخريات زميلات فصلها في هذا الوقت؟ هل كن يذهبن للمسرح أو السباحة أو حتى إلى إحدى دور السينما، التي أُنشِئت في براغ منذ بضعة سنوات، وتحمل أسماء فاتنة جدا مثل: أورينت، أو إليت؟ ففي «صناعة السينما» هذه، كما يطلق عليها، كانت تُعرض أفلامٌ عن شلالات فيكتوريا في أفريقيا، أو عن البدو في الصحراء. شعرت ميلينا في داخلها «بشوق جنوني»، يدفعها بالطبع «للفرار نحو العالم». لم تكن تعني بهذا العالم مكانًا معينًا، يُمكن السفر إليه؛ بل «مكاناً مجهولاً، لا يمكن بلوغه، يقع خارج الأفق، شيء ما، مدهش جدًا، وجديد جدًا، وقوي جدًا، لدرجة أنه يَقِي من أي حزن»..

وجدت ميلينا هذا العالم في الكتب. فبدأت بتجميع مكتبة صغيرة. كانت حكايات أندرسن الخرافية من بينهم بالطبع؛ ولكن كانت توجد أيضًا روايات دوستويفسكي، وأوسكار وايلد، وكنوت هامسون، وكتب فلسفية صعبة الأسلوب مثل: هكذا تكلم زرادشت، لفريدريش نيتشه. كانت ميلينا تقص الصور التي تعجبها من الصحف المصورة؛ لتحتفظ بها. صورة منهم كان فيها رجلٌ وامرأة، يتمشيان على شاطئ ما، «يدا بيد، يواجهان الشمس والريح». كانت صورة مبتذلة؛ لكنها عبرت بدقّة عن الشوق، الذي كانت ميلينا تشعر به، و«تخيلات مجنونة، لفتاة صغيرة عن الحياة»..

كيف كانت تشعر وتفكر عندما كانت فتاة صغيرة، هذا ما حاولت ميلينا

بعدها بعشر سنوات، عندما أصبحت صحفية معروفة، أن تشرحه لنفسها وللآخرين. في إحدى مقالاتها التي كانت تنوه فيها دائما عن خبراتها الشخصية، اعترضت على القول الشائع: إن الشباب هو الوقت الأجمل في الحياة؛ بل، كما قالت ميلينا: إن كل شاب يحمل في داخله «حزن مُفرط». وما يقلق الكبار بشأنه، هو في الواقع، مجرد معاناة لا يمكن تفسيرها، لشاب يعاني لكنه لا يعرف لماذا. والأسوأ، هو أنه لا يمكن لأحد تخيل أن لتلك الآلام نهاية أبدًا. فالكل يتذكر معاناة شباب ميلينا، «البحث المزعج عن مخرج، من الأرض التي تحت قدميّ، وخبطات الرأس اليائسة في الجدار، إلى الصراعات الداخلية، ثم اقتناص شيء ما غير محدد، غامض، حتى الليالي الساهرة!»، وبحسب كيفية تعامل الشاب مع هذا الألم، فقد تعلقت بقية حياة ميلينا بهذا فيما بعد.

بحثت ميلينا عن التوجيه في المدرسة أيضًا. وفي أثناء ذلك ضجرت من البعض. فصحيح أن منيرفا كانت مدرسة تقدمية أكثر من بقية المدارس، لكنها كانت تتبع دائمًا مناهج التعليم التي كانت تُفرض عليها من قبل وزارة الثقافة والتعليم في فيينا. وقد عانى شتيفان تسفايج بالفعل من نظام المدرسة هذا. فقد وصف مرحلة المدرسة أنها مثل «آلة تعليم باردة»، وساعات التعليم في الفصول المكتظة سيئة التهوية إنها؛ «مفزعة، ومجدبة، وميتة». لم يتساءل أحد قط، عمّا يهم الطلاب تحديدًا. «لقد كان تعليما متبلدا، مقفرا»، كما قال تسفايج، «ليس من أجل الحياة، ولكن لأجل التعليم، الذي فرضته هذه التربية البالية علينا»..

وعلى ما يبدو أن طرق التربية تلك قد تمت المحافظة عليها في منيرفا من قبل المعلمين الرجال بصورة رئيسة. ومن بين كل المعلمين، كان

هناك واحدٌ فقط تقدره ميلينا. وعلى النقيض فقد كانت مولعة بالمعلمات عموما، وقد شغفت تماما بمعلمة التاريخ والجغرافيا ألبينا هونزاكوفا. كانت هونزاكوفا نفسها طالبة في مدرسة منيرفا، وكانت من أوائل الفتيات اللواتي درسن في الجامعة وحصلن على درجة الدكتوراه. وقد بذلت كل ما في وسعها علانية؛ من أجل حقوق المرأة، ولم تلتزم بمناهج التعليم؛ بل وضعت وطورت طرق التدريس. كانت «الآنسة الدكتورة»، دعتها ميلينا، قدوة لها، وتمنت ألا تكون مجرد معلمتها فحسب؛ بل صديقتها أيضًا.

فكتبت لها بالحبر البنفسجي رسائل عاطفية، كانت تقوم هونزاكوفا برد فعل رزين نوعا ما على تلك النوعية من الرسائل، فنصحت ميلينا، بألا تكون كسولة في المدرسة. كانت المعلمة ترى أن هذا مجرد خمول، بينما ميلينا تراه بلا شك؛ «عدم استعداد للتعامل مع الأشياء التي لا تهمني».. كان على المعلمة المبجلة أن تشعر بالحنق نوعا ما، عندما وصفت لها ميلينا في إحدى رسائلها، أنها سوف تؤسس مدرسة ثانوية للبنات عندما تكبر ويكون لديها الكثير من المال. وفي هذه المدرسة سوف يتم الاهتمام برعاية الإنسان، أكثر بكثير من مجرد الاهتمام بالنظافة والرعاية الصحية الموجود في منيرفا. فالأمر لا يتعلق بإثقال عاتق الفتيات بحمل «كمية من المواد»؛ بل بالتساؤل عن فائدة تلك المعرفة لاحقًا، وما تعنيه في حياة الطالبات في الوقت الحاضر: «هذه هي مدرستي ـ ياه، سوف تُخرِّج مدرستي إلى العالم أشخاصًا مثقفين، راسخين، أصحاء، وجادين، يفرحون بالعمل، ويسعدون بالحياة.. وليس كومة من الأعباء، عجزة، مملين، متبرمين، تعساء».

نسمع في كلمات ميلينا تلك صوت الوالد، الذي أراد لابنته أن تصبح

شابة سليمة وقوية؛ لكننا يمكننا من هذا أيضًا رؤية تطلع ميلينا الجامح للحياة. كما كتبت لاحقًا في مذكراتها، «لقد انتظرت أن تبدأ الحياة بغتة، من حيث لا أدري، ينفتح ستار؛ وتأتي الحياة». لا تنحصر هذه الحياة في المدرسة، أو مثاليات التربية الأبوية، أو الواجب الذي فرضته على نفسي برعاية الأم المريضة في المنزل والميؤوس من شفائها. لم تستطع ميلينا الاعتراف بأن هذه الرعاية قد أثقلت كاهلها، وأنهكت شبابها؛ لأنها والدتها، حتى قالت ذات مرة «وجلٌ أحتمله بكل سرور». وأحيانًا لم تكن تحتمل المكوث في غرفة المريضة. ذات مرة عندما نامت الأم، تسللت خارج الغرفة، ثم غادرت الشقة، هرولت على الدَرَج؛ كي تسير نصف ساعة على الأقل من دون وجهة محددة في شوارع براغ. وعندما عادت، بدت الأم كأنها ما تزال نائمة؛ لكنها قالت لها بعيون مغلقة: «لست مندهشة منك يا فتاة. كنت سأهرب أيضًا، ولو للحظة، فقط لو كنت أستطيع هذا.»...

فالشعور بالمعاناة من قسوة الأب، كان واردا بأي حال. وكذلك معاناتها من الأم المريضة بشدة، التي تحبها، حالا بينها وبين المطالبة بحقها في عيش حياتها الخاصة. فهل تمنت ميلينا سرًا، تحررها من تلك المآسي؟ إن كان نعم، فان أمنيتها قد تحققت في بداية عام 1913. انتهت حياة ميلينا هيزلاروفا. لم تحظ بموت وديع. لقد ماتت ببطء وبشكل مؤلم. وفي سكرات موتها، كان بجانبها زوجها، وابنتها، والطبيب. وإن كان هذا صحيحا، ما قالته يانا ابنة ميلينا فيما بعد، إن ميلينا قد ضربت الحقنة من يد الطبيب، عندما أراد أن يحقن المتوفية، لم يثبت بعد هذا الكلام. ويمكننا فهم هذا. تم دفن ميلينا هيزلاروفا في

مقبرة أولشانر، في القبر نفسه، الذي رقد فيه ابنها ينيتشك، المُتَوَفَّى منذ فترة طويلة.

كان هناك صليبٌ صغيرٌ مُعلقٌ فوق فراش الأم، أخذته ميلينا في الحال واحتفظت به معها لبقية حياتها؛ لكنها لم تكن متدينة. كانت تذهب أحيانا إلى كنيسة القديس فويتش، الموجودة بالقرب من مدرستها؛ كي تصلي؛ من أجل أمها؛ لكن الرب لم يستجب لطلبها الذي احتاجته في ذلك الوقت. ما كانت تفتقد إليه بشدة، هو وجود شخص، يمكنها التحدث معه بحرية شديدة وبثقة تامة مثلما كانت تفعل مع والدتها. وبالطبع لم يكن والدها في الحسبان؛ فهو دائمًا مشغول جدًا. كان يان يسنسكي في تلك الأثناء أستاذًا في الجامعة، يلقي فيها المحاضرات، ويعمل في العيادة الخارجية لكلية الطب، بجانب عيادته الخاصة.

لم يكن لديه سوى وقت قليل لابنته. وكان يتوقع منها، أن تركز في المدرسة، وتنهي امتحان الدراسة الثانوية عما قريب، وألا تشغل بالها كثيرًا بخلاف ذلك. غير أن ميلينا لم تَعُدْ بَعْدُ تلك الفتاة الصغيرة. ففي أغسطس 1913 أصبحت في السابعةَ عَشْرَةَ. لقد كانت «جميلة بصورة ملائكية»، ونضج عودها بشدة، لدرجة أنها كانت لا تستطيع الجلوس في مقعد المدرسة إلا وهي منحنية. كانت رعاية أمها تستنفد كل طاقتها؛ لكنها تحررت الآن وصارت طليقة.

لم تعرف معلمتها ألبينا هونزاكوفا بالضبط، كيف ينبغي عليها التعامل مع هذا، تراها ميلينا كبديل عن والدتها المتوفاة، كما يبدو بوضوح؛ فالأحاديث الشخصية، التي كانت تطلبها ميلينا بإلحاح، كانت تحظرها المعلمة أغلب الوقت. لم تستطع بالطبع أن تحول من دون استمرار

ميلينا في كتابة رسائل سرية لها. وما كانت تُلمّح إليه، ليته كان شغل بال «الآنسة الدكتورة»، ذلك؛ لأن ميلينا بدا أنها شرعت في المحاولة، من النواحي كافة. وما سمته فيما بعد وهي محبطة «القصة اليومية»، كانت في الواقع قصة حب، انتهت نهاية مؤلمة جدا بالنسبة إليها. كان السبب الخفي وراء ذلك هو علاقة عاطفية مع المغني هريبرت فافرا، أخذتها ميلينا بجدية شديدة؛ لكنها كانت بالنسبة لفافرا مجرد لهو على ما يبدو. فبينما كانت «مُتيّمة» وتصدق هذا الحب، كان فافرا يواعد امرأة أخرى منذ وقت، وصدمت ميلينا عندما قرأت إعلان خبر الزفاف في الصحيفة. فندمت على حسن نيتها، خاصة أن فافرا قد ذاع أمر الطالبة المغرمة به في كل مكان، وصارت نميمة المجالس في براغ.

ازدادت الشائعات عن ابنة أستاذ الجامعة يان يسنسكي، التي وقفت عارية ليستخدمها الرسام آرتوش شاينر نموذجَ رسم. كما قضت ليلة كاملة بمفردها في فندق سيء السمعة، كي تكتشف فقط، شعور المرء في مكان الخطيئة كهذا. وحتى في المقبرة، قيل، إنها شوهدت هناك ليلا، بصحبة بعض الرجال. غذت ميلينا تلك الشائعات حولها، عندما كانت تظهر شاذة الطبع جدا في العلن. وأثناء تنزهها مع صديقاتها يارميلا وستاشا، كان الناس يلتفتون إليهن. حيث كانت ميلينا محط الأنظار بمشيتها الرشيقة الملفتة، وشعرها المجعد، وعينيها الزرقاوين. أيضًا وصف الكاتب يوزف كوديتشك الصديقات الثلاث بأنهن؛ «ظواهر مثيرة». فهؤلاء النساء الشابات لم يعدن يرتدين مشدات حول بطونهن، وأيضًا توقفن عن التصفح بالتنانير والسترات شديدة الشبه بدروع الفرسان، ولم يعدن يكبتن شعورهن بتسريحات متزمتة. أطلقت ميلينا وصديقاتها شعورهن

للهواء الطلق، وكن يظهرن سيدات خارجات من إحدى لوحات فنان عصر النهضة بوتيتشيلي، طويلات، رشيقات، من دون جوارب، يرتدين صنادل بسيطة، وملابس، ذوات ألوان متداخلة مع بعضها بطريقة انسيابية، من الأزرق وحتى البنفسجي والأرجواني.

في إجازة الصيف من عام 1914 ذهبت ميلينا مرة أخرى إلى فندق بروكوب على جبل شبيتشاك في غابة بوهيميا. كانت جالسة مع أصدقائها بعد رحلة طويلة، عندما دخل العجوز بروكوب إلى الحجرة متجهمًا وقال، إن ولي العهد فرانتس فرديناند قد اغتيل رميا بالرصاص. انفجر الخبر كالقنبلة في الجلسة؛ ولكن ما الذي حدث بالضبط، وما كان يعنيه هذا؟ لم يكن يعلم أحد. فلم توجد هناك جرائد في تلك الزاوية البعيدة. وبمجرد أن توقف القطار في بيلزن، الذي كانت تستقله ميلينا للعودة إلى براغ، عرفت المزيد من المعلومات عن الاغتيال الذي تم في سراييفو. وعندما تحرك القطار بعدها ببطء هابطًا من الهضاب، شعرت بالتوتر، الذي يسود المدينة.

وصل فرانتس كافكا أيضًا إلى محطة براغ بعدها بعدة أسابيع. كان قد جاء من برلين، حيث قد انفصلت عنه خطيبته فيليس باور. كان هناك جنودٌ واقفون على الأرصفة في زيهم الحربي الرمادي، وتودع سيدات أزواجهن، وتعلو صيحاتٌ وأغانٍ وطنية. كان كافكا قد خطط فعليًا، أن يمكث في براغ، «براغ العجوز» فقط لوقت قصير، ثم يترك عمله غير المحبوب في شركة التأمين، ويهجر والده المستبد، وينتقل إلى برلين؛ كي يهرب أخيرًا من أُسْرَتِهِ ويحيا حياة مستقلة.

أصبحت تلك الخطة واهنة الآن. فقد أعلنت التعبئة العامة، ولم يعد يُسمح لأحد بمغادرة البلد من دون تصريح خاص. أصبحت هناك

مظاهرات في براغ، وذكرت الصحف الانتصارات الأولى للجيش النمساوي المجري، وعُلقت الرايات على المنازل، ودوت خطوات الجنود العسكرية عبر الشوارع. وفي 2 من أغسطس 1914 كتب كافكا غير مكترثٍ على ما يبدو في مفكرته عن خطر وشيك من وقوع حرب عالمية؛ «أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا. بعد الظهر مدرسة السباحة». فالحرب، وكل ما جلبته معها، مرت على كافكا كأنها لم تكن. فقد تعلقت حياته بأمور أخرى. أعتقد أنه سوف يضيع، إن لم يتمكن من إنقاذ نفسه بالكتابة. فبدأ سريعا بكتابة العبارات الأولى في قصة ما، والتي بدأت بشخص ما اسمه ك. تم إلقاء القبض عليه ومحاكمته، من دون أن يكون قد فعل شيئا.

أيضًا حياة ميلينا بالكاد قد تأثرت بفعل الحرب في بادئ الأمر. كانت تقاتل في حروب أخرى، حرب ضد الوالد، وضد التقاليد، ومن أجل الحياة، وضد مخاوفها الخاصة. محبوسة في حزن شبابها المفرط الذي لا يمكن تفسيره، وتفكيرها في الانتحار كان دائمًا هو المهرب الخفي المريح، الإمكانية فقط، وليس الفعل الحقيقي. فالضعفاء وحدهم هم من يهربون إلى الموت الذي يختارونه بأنفسهم، كما كتبت في وقت لاحق، إن الانتحار أحيانًا يغوي المدلل ويعاقب الكاذب. غير أن مجرد التفكير في هذا المخرج كان «ضروريًا» لكل شاب. لكنه يتبخر ويطير، عندما تبدو أن تلك المعاناة بلا نهاية. في هذه اللحظة، عندما يدرك الشاب، أنّ ألمه أبديّ، يزول الشباب. استطاعت ميلينا فيما بعد قول، متى صدمها هذا الاستنتاج، «أتذكر الوقت بالضبط، في بداية فترة شبابي المؤلمة، التي توقفت فيها عن أن أظل شابة. لم يحدث شيءٌ عجيبٌ أو خاص، لقد كانت مجرد أمسية في الشفق الأزرق الرمادي، بنافذة منزل مستأجر مكون من طابقين، منظر

يومي لشارع مضنٍ من الغم البائس، تتحرك الترامات يمينا، ويسارا، كانت تسرع بلا مبرر، وتبدو مضحكة للغاية. لم أكن سعيدة أو حزينة، اعتدت كل الأمور، يرهقني غرقي في الأحزان العادية، كمن يشتاق كل مساء إلى شيء ما، ولا يخمن أحد، ما هو؟ لكنني فجأة عرفت، أدركت فيما بعد معنى هذا؛ أيًا ما كان سيحدث لي في حياتي المستقبلية بأكملها، أيًا ما كان، فلن أقدم أبدًا على الانتحار».



فضائح

«أفعلُ تمامًا، ما ينبغي عليَّ فعله»

كما قالت المحللة النفسية أليس ميللر: «هناك آباء يحبون أولادهم على طريقتهم الخاصة، يحمونهم، ويودون الدخول إلى عقولهم، وهم مهووسون جدا بتلك الفكرة، ولا يمكنهم تصور أن هؤلاء الأطفال يستطيعون رؤية العالم بشكل مختلف عنهم؛ ذلك لأنهم يرون تمامًا أن طفلهم مجرد امتداد لذاتهم الخاصة». عندما تصبح النزعة، لعيش حياة خاصة، كبيرة جدا عند طفل ما، كما تابعت ميللر، فسوف يصبح إما مريضا نفسيا أو إنه يقرر، «إيذاء الأب»..

بعد امتحان الدراسة الثانوية، الذي أدته ميلينا في مايو 1915، كان يجب عليها أن تقرر كيف تواصل. كان والدها لديه بالفعل تصور مؤكد عن طريق حياة ابنته. عليها أن تدرس الطب وتتسلم مهنته ذات يوم. لم تعترض ميلينا على هذه الخطط، فهي نفسها لم تكن تعرف جيدًا، كيف سيصبح حالها. تنبأت لها معلمتها، أنها سوف تعيش حياة «رحبة جدا» ذات يوم. ولكن ماذا كان يعني هذا؟ أرادت يارميلا دراسة الطب، وستاشا الفلسفة. ولكن ماذا أرادت ميلينا؟

ربما خفف قرار صديقتها يارميلا الألم عن ميلينا، في أن ترضخ لرغبة والدها. فسجلت نفسها أيضًا في جامعة براغ بكلية الطب؛ ولكن

هل أرادت هذا فعلا؟ هل كان هذا هو طريقها؟ تلك أسئلة لم تجد ميلينا إجابات عنها في أي مكان. وقادها بحثها عن الإجابات نحو «مشاهد مزعجة» في المنزل. فكان يان يسنسكي يرى أنه مسؤول دائمًا عن تربية ابنته القاصر؛ لذلك كان مهتما، بكل ما تفعله ميلينا في وقت فراغها. فهي تقابل ستاشا ويارميلا وتتسكع الثلاث صديقات بملابسهن الملفتة للنظر في المدينة، ويذهبن للرقص في قصر لوسيرنا. استطاع يان يسنسكي تقبل هذا؛ فعلى الأرجح نسب هذا إلى الانعكاسات الضارة للممثلات في أفلام السينما تلك مثل إيزادورا دانكن أو آستا نيلسون، اللتين كانتا تؤديان رقصات كرقصة الأباتشي المشبوهة على خشبة المسرح شبه عاريتين وحافيتي القدمين. بيد أن ميلينا لم تعد طوال الليل وهو لم يعرف، أين كانت، ولم يرد يان يسنسكي أن يتغاضى عن ذلك.

فضلا عن أنه تسلم فواتير مشتريات وصلت إلى المنزل، قامت ميلينا بشرائها من دون علمه. فعلى الأقل كانت دفعت ثمن تلك الأشياء أو تركت والدها يدفع. ذلك بخلاف الزهور، التي أخذتها بسهولة من حديقة ما، وبمعني أدق؛ سرقتها؛ لأنها ـ كما كانت دائمًا تؤكد ـ تحب الزهور جدا. كانت تلك جرائم صغيرة، استطاع يان يسنسكي تسويتها في الوقت المناسب، قبل أن ينجم عنها فضيحة ما؛ لكن كان شاقًا عليه، أن ترسب في ممارسة الطب، وتقوم بسرقة الأفيون والأقراص المخدرة، والتي لم يستطع أحد سوى ميلينا فعلها. وصل أيضًا إلى مسامع دكتور يسنسكي، أنه قد أصبح لديها صديق ما. فلم يعترض على يِرِي فوستكا هذا. كان الشاب ينتمي إلى أُسْرَةٍ تشيكية، ويدرس الطب، ويريد أن

يصبح طبيب أسنان. ما كان يقلقه أكثر، أن ميلينا كانت تُرى في المقاهي في الآونة الأخيرة، حيث تتعامل مع فئة تثير استفزاز يان يسنسكي، أدباء يهود، غارقين في خيالاتهم وتافهين.

في الواقع، تجاوزت ميلينا حدودا خفية، وخرقت قوانين غير مكتوبة. كان يوجد الكثير من المقاهي في براغ، مقهى كورسو، ومقهى فيينا، وكونتيننتال، وإلكترا. كل مقهى من هذه المقاهي كان له جمهور معين، ولقد كان أمرا متفقا عليه، أن براغ الفاتنة والثرية تتلاقى في مقهى كورسو أو أن ضيوف المسرح القومي كانوا يذهبون إلى إلكترا بعد الحفلة، حيث كان المرء يستطيع الجلوس على طاولة واحدة مع الممثلين. كذلك كان من البديهي، أن الشخص التشيكي، المحافظ، لا يذهب إلى مقهى آركو، والشابات التشيكيات لا يُفتقدن هناك البتة؛ ولكن ذهبت ميلينا وصديقاتها بالضبط إلى هناك.

كان معظمهم من اليهود الألمان، الذين كانوا يلتقون في أكثر الأماكن المليئة بالدخان في آركو، وكانوا يدعون بشكل ساخر «الآركوناوتن». كانوا مثقفين بشكل هائل ويعرفون أسماء وأعمال الفلاسفة، والأدباء، والفنانين، الذين لم يسمع عنهم أحد قط في براغ. فكانوا يقرؤون الكتب الصادرة حديثا لساعات وساعات، ويتجادلون، أو يحكون عن أفكار الفلاسفة مثل؛ سورن كيركوورد، أو بليز باسكال. وقبل أن يذهب إلى برلين، كان الشاب فرانتس فيرفل يتلو قصائده هنا بحماس. وفيلي هاس، الذي أصدر جريدة أدبية قبل سنوات وكان مشجعا سينمائيا أصيلا، كان يروي أحدث الأفلام الموجودة في أميركا. وقد كان الوسيم هاس مسرورا للغاية؛ لأن بعض الشابات التشيكيات الجميلات قد تجرأن على القدوم

إلى مقهى آركو. حيث دوَّن عن ذكرى ذلك الوقت: «إنهن يرغبن بنا نحن اليهود الألمان خاصة؛ لأن آباءَهنّ كانوا يكرهوننا؛ لأننا كنا في الواقع جذابين أكثر من زملائهن البسطاء في الجامعة»..

في الواقع قد سئمت ميلينا سريعا من صديقها يري فوستكا، الذي كانت تراه ساذجًا وعنيدًا، بعكس رواد مقهى آركو، فكم كانوا مثيرين، خاصة عندما يوجد بينهم أسماء مثل: أوتو بيك، وماكس برود. وفي بعض الأوقات كان برود يُحضر معه إلى آركو صديقه فرانتس كافكا، الذي كان يجلس بالطبع صامتا ومبتسما في ركن ما ويمضي سريعا. وقد كانت هناك شائعة تقول؛ إنه بجانب وظيفته كان يكتب في المنزل روايات كاملة. لم تكن ميلينا تفهم إلا القليل، عندما كانت تدور المناقشات باللغة الألمانية. ثم بعد ذلك وجب عليها الالتفات إلى الضيوف كالشاب يوهانس أورزيديل، الذي كان يتحدث الألمانية والتشيكية بطلاقة. أورزيديل، الذي قد نشرت له بالفعل بعض قصائد بينما كان ما يزال طالبًا، أحب ميلينا؛ لأنها كانت شابة حيوية جدا و«انفعالية جدًا، وذات قلب ذكي»..

وبالطبع وجدت ميلينا ضيفا دائمًا أكثر جاذبية من أورزيديل، الذي كان يأتي فقط إلى المقهى بعد الظهر؛ لكنه كان محط اهتمام أهل الرأي. كان يُدعى إرنست بولاك وكان موظفا لدى بنك الولايات النمساوية الموجود في براغ. بيد أن عالمه الحقيقي كان يقبع في مقهى آركو. فكان كمن ولد لهذا المكان، حيث تحلق الأفكار، وتحتد النقاشات، وتبرع أساليب التعبير عن الذات. صحيح أن بولاك لم يكتب بنفسه أي كتب أو قصائد، كأنه كان عاجزا أدبيا. لكن لم يكن له مثيل كناقد وخبير بالأدب والفلسفة.

وعندما كان يتحدث؛ يصمت الجميع وينصتوا بكل حواسهم. لم يستطع أحد أن يزايد عليه في المعارف، فكان دائمًا ما يصيب كبد الحقيقة بتعليقاته الهجومية والحادة كالسيف، وكان الأدباء المعروفون يلتمسون أحكامه ونصائحه. كان إرنست بولاك بلا شك هو ملك «الآركوناوتن» بلا منازع؛ بل أيضًا المشهد الأدبي في براغ بأكمله.

لم يكن له مظهرٌ جذاب. كان رجلا صغيرا ووديعا، ذا عيون متعبة وأسارير خامدة، وقد أُعْفي من الخدمة العسكرية؛ لعدم لياقته؛ لكنه كان محاطًا بهالة خاصة، كان يصدر عنه سحر ما، وعلى ما يبدو فإن السيدات لم يستطعْنَ الهرب منه. ترددت أمور كثيرة عن الأعزب البالغ من العمر تقريبًا ثلاثين عاما، وفي ذلك الصيف عام 1915، عندما اختلطت ميلينا بمقهى آركو، كانت هناك شابة تدعى أمالي كريدلوفا؛ طالبة في كلية الطب هي حبيبته. قد تعرفت عليها ميلينا سابقًا في الجامعة، لم تكن كريدلوفا مستمتعة، بأن ميلينا تهيم في خيالها ببولاك، وهو يعد ابنة أستاذ الجامعة الجميلة «حادثة صغيرة مثيرة منعشة».

تم تجنيد الكثير من «الآركوناوتن». أخذوا من الغرف الحصينة بالمقهى، حيث لم يشهدوا قبلها قتالا سوى بالكلمات، ثم تم الزج بهم في حرب مهلكة، بعضهم لم يعد منها. أيضًا ميلينا لم تسلم كذلك من واقع الحرب الوحشي. تبخرت تطلعات الشعب المستقبلية، ولم يستطع أحد إغلاق عينيه عن ضحايا الحرب العصرية في براغ، التي خاضتها تلك المعدات التقنية الجديدة، التي كانت محل إعجاب في المعرض الوطني الكبير قبل سنوات. فقد ظهر في الشوارع ما يسمى بضحايا الحرب، ذوي الإعاقات، الذين أصيبوا بصدمة نفسية من أهوال المعارك،

وكانت تلاحقهم رجفات النوبات التشنجية. كان هناك جرحى في قاعات الانتظار الموجودة في المحطات، حيث كان يستلقي المصابون وكانت المستشفيات مليئة بأجساد مشوهة.

كان بعضٌ منهم يعاني إصابات مرعبة في الوجه، ويعلقون آمالهم كلها على أطباء مثل يان يسنسكي، والذي هو خبير في جراحة الفك قد استطاع أن يساعد هؤلاء التعساء في الحصول على شكل يكاد يكون بشريًا إلى حد ما. شهدت ميلينا ذات مرة، كيف يعالج أباها جنديا ما، كان قد أصيب بطلقة رصاص في فكه السفلي. لم يعد الرجل يستطيع الكلام بعدها، والكلمات الوحيدة، التي نطق بها بعناء شديد وبشكل غير واضح، كانت: «إنه يؤلم». كانت العملية بالنسبة إلى يان يسنسكي تمثل تحديًا في مجال اختصاصه، وكان بلا شك راضيا بالنتيجة. فقط لم يستطع الرجل ضبط إفرازات اللعاب بعد، لدرجة أنه توجب عليه حمل كيس صغير على عنقه. تم إخلاء طرف الجندي الشاب وإعادته إلى موطنه، إلا أنه بعدها بقليل جاء خبر من والديه، أن ابنهما قد انتحر بإطلاق الرصاص على نفسه في عشية عيد الميلاد.

أدركت ميلينا أنها كانت تعيش حتى هذه اللحظة في برج عاجي. وبشكل قاس، لعله قاسٍ جدا! حاسبت نفسها حسابا عسيرا، عندما كتبت، إنها كانت تعيش كفتاة حالمة حتى عاينت التجارب في الحرب العالمية، وصحيح أنها كانت قد تعمقت في الصراعات العقلية للشخصيات الروائية؛ ولكنها كانت عمياء عن الأزمات الحقيقية للأحياء: «نشعر في الحياة المعتادة بذواتنا الرقيقة كأنها فظة جدا. فكل شيء، يصدر عنه رائحة الدم، إزهاق النفوس البشرية، نعم ما يصدر

عنه رائحة البشر عموما، نتجنبه بعناية».. الآن أصبحت ميلينا تقرأ كتبا مختلفة تماما، كتبا للأديب الفرنسي جول رومان، والتي لم يكن محورها المشاعر الخاصة للبشر؛ بل تدور حول عمال المصانع، الذين يناضلون في الشوارع للحصول على حقوقهم والذين تم قمعهم من قبل رجال البوليس.

كانت تلك الكتب كصفعة على وجه ميلينا، مزقت أحلامها. استيقظ ضميرها الاجتماعي، وكالعادة عندما تقتنع ميلينا بشيء ما، تتفرغ له كليا. وعندما يقلقها شيء ما ـ كما قالت في مناسبة أخرى ـ فهي تلقي دائمًا «بكل أسباب العقل إلى الجحيم، وأفعل تمامًا، ما ينبغي عليَّ فعله»..

أصبحت ميلينا قلقة، فقد جعلتها الحرب تنتبه إلى فاقة الناس أصلا، فقد تم تقنين المواد الغذائية. كان كل فرد يحصل على كمية محددة من السكر، واللبن، والسمن، والقهوة. كان يجب أن يكفي المرء رغيف واحد لمدة أسبوع. وكان أكثره من دقيق البطاطا، وثمر البلوط، والنشارة. ما الذي يجب على ميلينا أن تؤمن به الآن؟ حتمًا مساعدة الفقراء. وكان ضحية تصدق ميلينا هو والدها بالطبع.

كانت وضع يان يسنسكي جيدًا؛ بل ممتاز؛ فعيادته الموجودة في زقاق أوبست كانت مثل منجم ذهب حقيقي. كان يتردد عليه الكثير من المرضى الأثرياء، وعمله في الجامعة، ومعالجته لضحايا الحرب في مستشفى عسكري مجهز، كل هذا دبر له إيرادات إضافية. ويمكننا استنباط أنه نتيجة للحرمان الذي شهده في فترة طفولته وشبابه، فإن يسنسكي بعد أن أصبح الآن غنيا، صار يغدق على نفسه بالأشياء التي حرم منها سابقًا. فكانت

غرف الخزين في المنزل ممتلئة عن آخرها، وخزائن ملابسه كانت مكدسة بالبدل، والقمصان الغالية، والأحذية، وكان يحتفظ في مكتبه بعدد كبير من العملات الذهبية للطوارئ.

لكن يبدو أن هذا البذخ قد بدا مكروهًا لميلينا وغير ضروري في جميع الأحوال. ومن دون أن تسأل والدها؛ أخذت من غرف الخزين ومن خزائن الملابس، ما احتاجته، أو بمعني أدق، ما احتاجه الآخرون. ودائما كل من كان يشكو لها محنته أو يفتقد شيئا ما، فإنه يكون متأكدا، أن ميلينا ستساعده. فكانت تقدم الصابون والطحين بسخاء، وأيضا لم تتوقف أمام الكماليات الثمينة. وهكذا، فإن الناس الغريبة تمامًا كانت تشكر يان يسنسكي في الشوارع وهو غير مدرك لما يحدث. وذات يوم اكتشف زوجا من أفضل جواربه في قدمي أحد طلابه. وبدوره حذر يسنسكي ابنته من التعدي على العملات الذهبية الموجودة في مكتبه، والتي كانت معدودة بالفعل. فهل ساعد تهديده هذا؟ لا أحد يعرف.

شعر يان يسنسكي أن ابنته قد أصبحت شخصا مختلفا بالكامل. فقد كانت قبل وقت قصير فتاة رقيقة ومطيعة، كانت تعيش أحلام اليقظة، وتعزف على البيانو، أصبحت غارقة بين الكتب، ولا يفوتها عرضٌ مسرحي. وعليه الآن أن يتعامل مع شبح متقلب. كان هناك ناس في براغ يأسفون على حال الأستاذ الجامعي، وكانوا يجدون سلوك ميلينا «غير ممكن» وخمنوا، ما كان يسري بداخل ميلينا. لم تفكر ميلينا كثيرا في المبررات والمنطق، كان سلوكها إنسانيا محضا. فالعطاء لمن يعانون من الضيق والبذل ممن لديهم فائض؛ كانت ترى ذلك أمرًا بديهيا تمامًا؛ لهذا لم تفكر في شيء عندما زورت توقيع والدها، وأخذت أغراضًا من بعض

المحال الموجودة في براغ، من دون أن تدفع ثمنها، أو إن كان عليها الدفع فعلا، كانت ترسل الفواتير لوالدها. وحتما لم يفهم يان يسنسكي وجهة النظر تلك. ذات يوم خارت القوة الباقية من سماحته، ونشر إعلانا في الجريدة، أوضح فيه بشكل رسمي، أنه لن يسدد مستقبلا أي فواتير أخرى لابنته.

كان على يان يسنسكي أن يدرك، أنه لم يعد لديه أي تأثير في ميلينا تقريبًا. وعليه أن يتقبل كذلك أيضًا أنها قد ألغت دراستها الطبية. فالأمل في أن تسير طفلته الوحيدة على خطاه، كان ضعيفا. استطاع التعايش بسهولة مع ذلك، عندما أثبتت ميلينا أنها غير مؤهلة تمامًا لمهنة الطب. فهي لم تكن تستطيع شم رائحة الدم، وكان يُغشى عليها في المشرحة. بغض النظر عن أنها لم تستطع الصبر على النظام اللازم للدراسة. وقد ذكر زميل جامعي لها، أنه نادرا ما كان يراها أحد في الجامعة؛ بل إنها كانت تفضل أن تشتري باقات ورود كبيرة على حساب والدها قبل الظهيرة ثم تتنزه هي وصديقتيها ستاشا ويارميلا في فيرديناند بوليفارد. وعندما خاطبها أحد زملائها الطلاب في ساحة فنتسل وعاتبها بشأن سلوكها، أجابته فقط بقولها: «أنت شاب مثير للاشمئزاز!» ثم قفزت فورًا إلى الترام.

علاوة على ذلك فقد درست يارميلا الطب، وستاشا، التي أدت امتحان إتمام الدراسة الثانوية بعد صديقتيها بسنة، أرادت أن تسجل نفسها بقسم الفلسفة في الجامعة. فكلتا الشابتين كان لديهما بالفعل علاقات جادة مع الرجال. فقد تعرفت يارميلا بالفعل قبل سنوات إلى الطالب يوزف راينر. وعندما عرف والدها بهذه العلاقة عن طريق رسالة

مجهولة، عاقبها بالإقامة الجبرية ومنعها من أي لقاء آخر؛ فهو لم يرد بأي حال أن يصبح زوج ابنته يهوديا. غير أن يارميلا تمسكت بهذا الحب، وبمفردها، غادرت منزل الوالدين البغيض. وصحيح أن عشيق ستاشا رودولف كلاين لم يكن يهوديا، إلا أن أُسْرَتَها لم تكن أيضًا متحمسة له. لقد كان فنانا وشاعرا غنائيا لملهى ليلي، ورزقه غير مأمون، ولا يعلم أحد إن كان بهذا الدخل سوف يستطيع أن يكفل أُسْرَةً بشكل دائم. فضلا عن أن ستاشا درست بعدها في انجلترا بناء على رغبة والدها، لعل هذا يمنع أي ارتباط مبكر.

خلال تمشيتهن معا في كورسو تحدثت الفتيات بالتحديد عما تنوي ميلينا فعله بعد إلغاء دراستها، وحال حياتها الغرامية. وقد حكت لهن ميلينا عن إعجابها الشديد بإرنست بولاك من آركو، وأنها أصبحت بالفعل هائمة به تمامًا.

فهل نوت ميلينا بالفعل بعد إلغاء دراسة الطب أن تدرس الموسيقي، كما قيل بعدها، هذا أمر موضع نقاش. فربما قالت هذا فقط؛ كي تهدئ الأب المنكوب، والذي كان فزعًا من فكرة أن ابنته سوف تصبح بلا سند وتتركه تمامًا. فتلك الخطة لم تكن لتناسب تصور ميلينا في هذا الوقت. فهل أرادت أن تبتعد عن «حماس البريق الثقافي»، وأن تعيش حياتها، كما قالت ذات مرة، «قريبة جدا من الأرض». وأن تكون قريبة من الأرض كان معناها، التوقف عن التقلب في عالم الرومانسية الخاص بالروايات والأوبرا، بل أن تعيش مشاعر حقيقية عظيمة مع شخص مناسب. وكان هذا يعني، أن تتحرر من التبعات والتطلعات الأبوية.

تفاقم الوضع في منزل يسنسكي بشكل درامي جدا، لدرجة أن التعايش بين الأب والابنة أصبح مستبعدا. ورغم ذلك فلم تكره ميلينا والدها، حتى أن الاثنين كانا متشابهين جدا في بعض الجوانب. فقد كانت ميلينا أيضًا سريعة الغضب، وعنيدة، وماجنة مثل والدها. فلماذا لم يحتملا هذا معا؟ كان هما الاثنان مثل لغزٍ لكثير من المحايدين، حتى يانا ابنة ميلينا كانت علاقة والدتها بجدها «أغرب، ما رأته في هذا الجانب، في أي وقت».، ميلينا نفسها لم تستطع حل هذا اللغز الغريب. فكل شيء، أرادت قوله، عبرت عنه ذات مرة في جملة، يحدد منها المرء حياتها بأكملها: «إنني أحب والدي بشدة، ولكني لا أستطيع العيش معه [...]»..

علي الأرجح فقد فكر يان يسنسكي، في أن الحال لن يكون أسوأ من ذلك مع ميلينا. لقد خُدع. فالتوقيعات المزورة، والسرقات، والمخدرات، والديون وإلغاء الدراسة استطاع تحمل كل هذا بطريقة ما. وقد ظل لديه أمل في أن تعود ابنته إلى رشدها مرة أخرى. والآن! تتحدث البلدة بأكملها عن أن ابنته على علاقة برجل يكبرها بعشر سنوات «أديب مقهى، موظف صغير في البنك، يمضي وقت فراغه في مقهى آركو وهناك ترن خطاباته، رجل سيء السمعة، يضلل الفتيات الصغيرات، شخص ـ وهذا هو أسوأ ما في الأمر ـ يهودي.



إرنست بولاك

مصدر الصورة: Verlag Neue Kritik

لم يكن يان يسنسكي بحاجة إلى التعرف على إرنست بولاك. فقد كان يكرهه منذ البداية. وعلي أي حال كان يجب على تلك العلاقة أن تنتهي؛ ولكن ميلينا كانت مضطربة أيما اضطراب. فقد حكى الناس أنها قد سبحت عبر نهر فلتافا بكامل ملابسها؛ لأنها أرادت أن تصل في الوقت المناسب لميعاد غرامي مع حبيبها على جزيرة ما.

سوف تبلغ ميلينا السن القانونية فقط في عامها الحادي والعشرين.

وطالما أنها لم تبلغ هذا فقد كان والدها هو الوصي عليها. وقد رأى يان يسنسكي أن واجبه الأبوي يحتم عليه التدخل. أراد أن يعيد ميلينا إلى صوابها مرة أخرى، ووجب عليه حمايتها من أن تلقي بنفسها إلى التهلكة؛ لأنه قد أصبح جليا، أن هذا اليهودي من المقهى كان يبحث عن مغامرة مثيرة قصيرة، وسوف يتخلص منها بمجرد أن يسأم منها.

حدثت «مشاهد مزعجة» في منزل يسنسكي مرة أخرى. فقد أقنع يان يسنسكي ابنته، رغم أنها ظلت معاندة تمامًا، وقد تحدث على الأرجح عن «الحب الكبير» و«الزواج». واعتبر أنه من الأفضل، أن يمنع تأثير بولاك على ميلينا فترةً من الوقت. وفي صيف 1916 أرسلها إلى جبل سبيشاك، حيث فندق بروكوب؛ كي تستجم، وتجدد أفكارها مرة أخرى من خلال النزهات الطويلة. لم يعرف، أن إرنست بولاك كان في طريقه إلى هناك أيضًا، في فندق ريكسي المجاور، والذي كان ينزل به الضيوف الألمان خاصة. وقد التقى ماكس برود هناك بعضَ أصدقائه الأدباء؛ كي يؤلفوا مجموعة من القصائد التشيكية. وقد تمت دعوة بولاك بصفته خبيرًا في النقد. وكالمتوقع، لم يستغرق الأمر وقتا طويلا، حتى عرفت ميلينا عن هذا الأمر، حيث كانت تتسلل في جنح الليل من فندق لآخر. أخبرت فيلما لوفينباخ، وهي صديقة ميلينا، والتي كانت تنتمي أيضًا إلى المجموعة الموجودة في فندق ريكسي، كيف أن ميلينا دخلت غرفتها ذات صباح حافية القدمين ومعها باقة كبيرة من الزهور، قفزت على فراشها وهتفت منفعلة، أنها قد أمضت ليلتها مع إرنست بولاك.

كانت ميلينا مسرفة جدا في استعدادها لمساعدة الآخرين، ومسرفة جدا في مشاعرها، وحبها أيضًا. فيلي هاس، الذي تعرف إليها في مقهى

آركو، كانت ميلينا، «كامرأة شريفة من القرن السادس أو السابع عشر»، كشخصية من روايات الكاتب الفرنسي ستندال: «حماسية، وجريئة، وباردة، وحكيمة في قراراتها؛ لكن من دون أن تفكر في اختيار وسائلها المناسبة، خاصة عندما يتعلق الأمر بدافع من شغفها.. وكان ذلك دائمًا ما يحدث في شبابها. ولم تكن تنضب وكصديقة، كانت لا تنضب، لا تنضب في اللطف، ولا تنضب في مَدّ يَدِ المساعدة، حتى لأولئك الذين غالبًا ما تظل غامضة بالنسبة إليهم، أينما أتت؛ ولكنها لا تنضب أيضًا في تطلعاتها نحو أصدقائها، كان هذا بديهيًا لها ولأصدقائها، والآن كحبيبة، سيكون هناك هذا العدد القليل من الرجال الذين ينبغي عليها معرفتهم».

وهم الحب

«لا ينبغي أن يُقدم اثنان على الزواج،
إلا أن يكون هذا هو خيارهما الوحيد للحياة»

هل كان يان يسنسكي فقط هو الأب القاسي، عالي الطموح، الوطني المعاند، والمعادي لليهود، كما يبدو في العديد من التصريحات؟ وهل كان إرنست بولاك مخادعا متكبرا، محطما للقلوب مستهتراً، شخصا «متسلطا» محبا للظهور ومنغرسا في اللذات؟ قد مات الاثنان منذ وقت طويل. ولا يستطيعان المدافعة عن نفسهما الآن، كما لا يستطيعان الاعتراض على شيء. لقد سلّما الحكم للأجيال القادمة، خاصة المؤلف الذي يكتب عنهما. وهذا المؤلف غالبًا ما يملك فقط بعض الدلائل والشهادات من المعاصرين، والتي منها وحدها لا يمكن صياغة تصور كامل؛ فعليه إذن أن يملأ الثغرات بالتخمينات، والاحتمالات، والتأويلات التي تدنو فيها ـ بشكل لا إرادي ـ الخبرات والمعايير الشخصية التي لا يمكن تجنبها تقريبًا. وبسهولة جدا تنتج صورة عن شخص ما، قد يكون مشوها وفقًا للأحكام المسبقة. ولا يستطيع المرء بالتأكيد الاقتراب من الحقيقة، وترك الأمر معلقا، إن كان الشخص مختلفا تمامًا. فلعل يان يسنسكي في حقيقة الأمر كان شخصًا مخلصًا وطيب القلب! ولعل إرنست بولاك كان شخصا سريع التأثر جدا، ومخلصا ورقيقًا!

وُلد إرنست بولاك في يتشين عام 1886، وهي مدينة صغيرة شمال شرق براغ. كان والده، الذي يتاجر في الأحجار الكريمة، قد انتقل مع أسرته عام 1897 إلى عاصمة بوهيميا، حيث تردد الشاب إرنست، الذي كان من أُسْرَةٍ تتحدث الألمانية والتشيكية، على مدرسة تجارية وأصبح مستعدا للعمل في الاقتصاد. وفي سن التاسعةَ عَشْرَةَ انضمّ إلى فرع بنك الولايات النمساوية الموجود في براغ، حيث كانت مطلوبة خبراته اللغوية في الانجليزية والفرنسية. كان شغفه الحقيقي يتوجه ناحية الفن والأدب، وقد عرف طريقه مبكرًا نحو مقاهي براغ، حيث استطاع أن يصل إلى منتهى شغفه هناك. احتاج بولاك طائفة لهذا الأمر، احتاج جمهورًا. كان محبوبا، طيب القلب جدا مع الأصدقاء، بشكل أبوي تقريبًا، كريم دائما، وقد شملته نزعة رجل، يتجاوز أفقه عالم براغ الصغير؛ ولكنه كان في المقام الأول فصيحا للغاية، وكانت موهبته الكبرى تكمن في أنه كان يستطيع التعرف على نقاط الضعف والقوة في النصوص الأدبية بسرعة ويصفها بشكل مضبوط. كذلك كان بولاك ناصحا وناقدا لا يمكن الاستغناء عنه عند الكثير من أصدقائه، والذين كانوا كتابا مشهورين، مثل فرانتس فيرفل، وهيرمان بروخ. فأهمية بولاك عند الآخرين كانت مرتفعة، ولا سيما أنه استطاع بها أن يغطي على نقاط ضعفه الخاصة، وتحديدا عدم قدرته على التعبير عن نفسه كتابة.

كم عانى من هذا العجز. قد اعترف به في رسائل سرية، في إحدى مفكراته الخاصة. وهناك وردت فيها أيضًا تسجيلات، توضح كيف كان بولاك مضطربا ولا يثق بنفسه في حقيقة الأمر. حتى إنه ذات مرة قد أطلق على نفسه أنه «كارهٌ لذاته»، مما يمكن للمرء فهمه أنه كما يبدو للعيان غالبًا

ما يلعب دورا يكرهه هو نفسه. وكان ضمن هذا الدور أيضًا، أن بولاك غالبًا ما كان يتم الاتصال به على هاتف المقهى، وهذا ما كان يعطي دليلا للضيوف الآخرين، كم كان هذا الرجل مطلوبًا.

فرانتس كافكا، المراقب الصامت لهذا المشهد، افترض أنه كان يجلس هناك في الجهة الأخرى شخص ما، مهمته الاتصال ببولاك من وقت لآخر. وإن صح هذا، في مثل هذه الأحوال فإن بولاك كان لديه نقد ذاتي فطري وذكاء كاف؛ لكشف تلك المباهاة بنفسه. لم يستطع الاستغناء عنها، ولا قليلا، مثلما استطاع أن يتغلب على ترويض الكتابة. ولعل صديقه هانس جيرك كان على حق، عندما قال؛ إن معرفة بولاك الفائقة وقدرته على تحليل الوقائع حتى آخر رمق، كانت السبب في أنه لم يصبح مبدعا. عقل نهم للغاية يوقف القدرة الإبداعية الخاصة! هذه النتيجة تم تأكيدها من خلال ملاحظة كتبها بولاك في مفكرته والتي ربما أفصحت عن عقدته الكاملة: «ذكي، أذكى، فاشل».

كانت شقة بولاك تقع على ضفة نهر فلتافا، على الجانب الآخر من جزيرة صوفي. يرى المرء من مطبخها أعلى قلعة براغ، حيث كان فرانتس كافكا في هذا الوقت يقضي ساعات كثيرة بمنزل صغير في زقاق الخيميائيين، تملكه أخته أوتلا، ويكتب فوق مفرش المائدة. فكانت حياة الناسك هذه على النقيض تمامًا مما كان يحدث في شقة بولاك، حيث يتلاقى الناس، ويُعزف على البيانو، والرقص، والغناء، والشرب. امتلكت ميلينا في تلك الأثناء مفتاحا لشقة إرنست. وفي المنزل، عند والدها، كانت تعيش أمامه حياة مختلفة، وهكذا سار الحال، رغم أنها نادرًا ما كانت تُخفي شيئا.

كان مسكنها الجديد الفعلي هو شقة الأعزب الموجودة على نهر فلتافا، والتي زينتها على هواها وأرادت بهذا أن تهيء البهجة لإرنست. فسرقت أزهارًا من حديقة ستروموفكا وزينت بها الشقة. وبولاك، الذي عاد إلى المنزل بعد عمله في البنك، لم يلحظ الفرق حتى. كان رجلاً في ميادين الكلمة، والنقاش الفكري، ولديه نقطة ضعف تجاه السيدات الجميلات؛ لكن لم يكن لديه أي مشاعر نحو الأزهار. أيضًا لم يكن على دراية بعشق ميلينا للطبيعة. فقد وافق على مضض ومع ملاحظات متهكمة عن نزعتها الرومانسية، بأن يذهب معها في الصباح الباكر إلى خارج المدينة، للصعود على تل ما ومشاهدة شروق الشمس. كان بولاك رجلاً حضريًا، يشعر أنه بخير في أجواء المقاهي المليئة بالدخان أكثر من كونه طليقًا في الطبيعة الحرة.

كان الاثنان عاشقين برغم كل الفوارق، علمًا بأن مشاعر بولاك كانت تنبع أكثر من إعجابه بميلينا، وحيويتها، وذكائها، وبالطبع كان هذا مصدر فخر له ونصرا أكيدا، في أن يستأثر قلب الابنة الجميلة لأستاذ الجامعة التشيكية، الذي يكره اليهود. «ميلينا متألقة كالعادة، تتعلم الألمانية باجتهاد».، كما كتب بولاك لصديقه فيلي هاس. كان حب ميلينا على النقيض من ذلك، حبا عارمًا، عارمًا جدا، لدرجة أنه يعطي انطباعا، كأنها استطاعت أخيرًا أن تفرغ كل طاقاتها المتكدسة نحو هدف واحد، وكأنها صدقت؛ أن الحب المأمول، الذي ينتظرها خلف الستار وفقًا لتصورها، سيبدأ في الحال مع بولاك. والأكيد أنه قد ربطها ببولاك أمل التخلص من والدها. إضافة إلى ذلك وجب على بولاك أن يكون لديه شيء ما قد جذبها بالفعل. أكد ماكس برود، أن بولاك «سلب عقلها بنوع من السحر». وكانت ميلينا تدرك تمامًا، أن هذا لا يحدث معها فقط؛ بل أيضًا مع النساء الأخريات.

كانت هناك دلائل قوية على أن بولاك لم يستطع أبدًا أن يمتنع عن العلاقات الغرامية مع نساء أخريات، رغم قضائه أغلب وقته مع ميلينا. لقد خانها «مئة مرة في السنة»، كما زعمت ميلينا، وهذا بالتأكيد لا يؤخذ حرفيا؛ ولكن يخبرنا الكثير عن فلسفة حياة بولاك، وعن اعتقاده بأن الإخلاص والرباط الوحيد بامرأة ما، هما بقايا الأخلاق البالية. تقبلت ميلينا أخلاق حبيبها، وربما اعتبرتها جزءًا من حرية الحياة، وهي نفسها كانت مقتنعة بأن الحياة الحقيقية لا تمضي على «الرصيف الزلق» للأخلاق البرجوازية. فقد كتبت في إحدى مقالاتها: «إنه العالم.. عالمنا الصادق، الحي، إنها الحياة، التي هي أعمق من الأخلاق، والعقيدة، والصدفة».. أيضًا عبء خيانة بولاك يعود إلى «السحر»، الذي لم تستطع ميلينا نفسها الهرب منه. وعما إذا كانت قد استطاعت التعايش مع هذا، فهو سؤال آخر.

في بداية حبها كان ما يزال لدى ميلينا الأمل، في أن تستطيع كسب بولاك لنفسها بالكامل. وقد حالت الظروف الخارجية من دون أن تستمر العلاقة سريّة، وأن تظل غير ملزمة. ففي خريف 1916 كانت هناك «أزمة مخيفة»، وما قد حدث بالضبط، لم يستطع أحد تتبعه بوضوح. والشيء الوحيد الذي يمكننا الاستناد إليه، كان الرسائل التي كتبها إرنست بولاك إلى صديقه فيلي هاس، الذي كان ملازما في الحرب، وكان في تلك الرسائل غالبًا ما يذكر تلميحات فقط عن الأحداث. والثابت أن يان يسنسكي انكشف له ما كانت تفعله ابنته من وراء ظهره، وأراد أن يضع نهاية لهذا الحب غير الممكن. كان إرنست بولاك مجبرا، على أن يتخذ موقفًا. فالتقى بيسنسكي؛ كي يتناقشا بطريقة موضوعية، عن كيفية استمراره مع ميلينا. لقد بدا مستعدا، إلى الوقوف بجانب ميلينا بشكل

مخلص، وأن ينتقلا إلى شقة مشتركة، وأن يتزوجها إن طلب الوالد. بالطبع كان على خطأ كبير، عندما اعتقد، أنه سوف يستطيع أن يجري حديثا عن ميلينا رجلا لرجل بينه وبين يسنسكي. فقد شعر أستاذ الجامعة أنها إساءة، أن يتوجب عليه الحديث عموما مع هذا اليهودي، «الكاتب في البنك من الدرجة الثانية»؛ فهو لم يكتفِ برفض كل اقتراحات بولاك بشكل فظ فحسب؛ بل طلب منه الانفصال عن ميلينا بشكل فوري، كما اهتم بأن يترامى إلى أسماع الناس في كل مكان في براغ، من الذي أغوى ابنته بشكل غير مسؤول. «قد جُرحت، بشكل علني، بعد حوار رسمي مع الوالد»، هكذا كتب بولاك إلى فيلي هاس وهو مجروح كبرياؤه بشكل ملحوظ. وبعد هذا الرفض وتلك الإساءة ابتعد بولاك عن ميلينا، حتى إنه فكر بشكل واضح أن ينفصل عنها تمامًا. ومن ناحية أخرى أكد هاس، أن مشاعر بولاك تجاه ميلينا «لم تكن ضعيفة» وما زال يوجد أمل، ولا سيما أن ميلينا لم تكن تحتمل الانفصال في وضعها الحالي. «تعاني ميلينا بشكل لا يوصف، وإنني أشعر بحالة سيئة جدا. ما الذي سوف يحدث؟ لا أعرف، فانا لا أستطيع الزواج الآن».

كانت ميلينا يائسة، وكانت على وشك التخلي عن نيتها ألا تنتحر. شهد خريف عام 1916 معاناتها من فوضى في المشاعر. لم يحدث فقط تحول جذري في حياتها الشخصية؛ بل ثورة في العالم من حولها، ولم تنتبه إليها إلا عرضًا. وفي 21 نوفمبر 1916 تُوُفِّيَ الإمبراطور فرانتس يوزف الأول. وكان قد حكم الإمبراطورية النمساوية المجرية متعددة الأعراق بشكل غير معقول، مدة ثمانيةِ وستينَ عامًا، وشعر معظم أتباعه أن العالم قد انتهى بموت الإمبراطور. وعلاوة على ذلك؛ فقد كان واضحا للكل، أن الحرب

العالمية هذه لم تكن لتنتهي بالنصر العظيم للنمسا وحلفائها. كان الوضع التمويني كارثيًا ولم تعد مخازن الجيش مخفية بعد. بحثت تيارات من يهود شرق أوروبا القادمين من المناطق المحتلة من قبل العدو عن الملجأ في براغ. وكان أمل الشعب التشيكي، في التحرر أخيرًا من نير السيادة الهابسبورجية، قد سطع مرة أخرى من جديد. تم نفي الأشخاص البارزين للثورة التشيكية إلى الخارج بالفعل، مثل أستاذ الفلسفة توماس ماساريك، والذين خططوا من هناك؛ لإنشاء دولة مستقلة للتشيكيين والسلوفاك.

كل تلك الحوادث السياسية أثرت في حياة ميلينا بشكل حاسم؛ لكن الآن، ومع بداية عام 1917، ظهرت في الخلفية في ظل مأساتها الشخصية. فقد نوه إرنست بولاك في رسالة منه لهاس إلى عقبة أخرى لا يمكن التغلب عليها على ما يبدو، والتي لم يكن يريد التحدث عنها، ولم يكن ينبغي أن يسأل عنها صديقه أيضًا. فتقريبا لم يجرؤ على ذكر أن ميلينا حامل. على كل حال فقد هددت تلك الورطة بحدوث كارثة. فمن دون موافقة الوالد لم يكن يُسمح لميلينا القاصر بالزواج، والعيش في براغ مع طفل غير شرعي، كان شيئا محالا لها ولبولاك.

فإسقاط الجنين كانت جناية تستوجب العقوبة طبقًا لقانون الدولة النمساوية؛ لذا يجب أن يتم في الخفاء وبشكل غير قانوني أيضًا. وخطر التعرض لشخص غير كفء في عمل هذا، كان كبيرًا. وربما تكون ميلينا قد طلبت المساعدة من والدها؛ من أجل هذا السبب، وأعطاها عنوانا مناسبًا لذلك، على كل حال فقد روت ميلينا لابنتها يانا بعدها بعشرين عاما، أن جدّها كان ممسكا بيدها ويطمئنها أثناء العملية الجراحية. لم تكن مساعدة يان يسنسكي مجردة من المصلحة الشخصية. فهو الذي

كان فخورا جدا بشجرة أُسْرَتِهِ التشيكية، كان وجود حفيد نصف يهودي يمثل صدمة كبيرة عليه.

ترقب يان يسنسكي بالتأكيد، أن تشفى ميلينا من وهم حبها بعد تلك التجربة الخطيرة. كان الوضع غير مفهوم له بالكامل، وصار حانقًا جدا، فبالرغم من كل هذا قد تمسك بولاك وميلينا ببعضهما، وكانا يتحدثان عن مستقبل مشترك؛ لذا فأول ردة فعل له كانت، تحديد إقامة ميلينا في المنزل. وبناءً على ذلك طلب منه بولاك بكل جرأة موافقته على الزواج، واقترح عليه، أن يأخذ ميلينا على الفور «من المنزل»، فاعتبر يسنسكي أن هذا وقاحة لا نهاية لها. وبالطبع كانت إجابته «لا واضحة». فضلا عن أنه تعامل مع بولاك بطريقة مهينة جدًا، وأجبره على فعل شيء ما، لم يكن يناسبه تحديدًا. فهو، الذي كان دائمًا ما يتهور، طبقًا لأقواله، طلب من البروفيسور مبارزته بالمسدسات. وكان هذا الطلب وقتها قد أصبح قديمًا بالفعل وأيضًا هو شكلٌ ممنوعٌ من النزاعات التي تقام بين الرجال. فآخر مبارزة حدثت في براغ، كان يان يسنسكي مشاركا فيها. لقد كان ذا خبرة وبولاك كان متفوقا جسديا. ولا عجب أنه لم يشعر بالثقة في المبارزة الدامية. فكتب إلى فيلي هاس: «أستاذ الجامعة يسنسكي، الذي كان يصر بطبيعة الحال على السيف، كان سيصبح خصمًا مفزعًا»..

لم يكن الوقت قد حان، فقد أجاب يسنسكي ببساطة على تحدي بولاك الرسمي وأعلن أنه لن يتشاجر معه. فسحب بولاك طلبه «ببرود وأدب» وأعلم البروفيسور كتابة، أن «مندوبه المطلع» كان ليكون مستعدًا في أي وقت، لأنْ يقبل المفاوضات مرة أخرى للمبارزة. والظاهر أن يسنسكي لم يفكر ولو للحظة، في أن يشارك، فكان هذا يعني اعترافه به كخصم مكافئ.

وكانت لديه خططٌ أخرى منذ وقت طويل وعلى استعداد لاتخاذ إجراء والبدء به، والذي فوجئ به بعدها بولاك وميلينا أيضًا بالكامل. «عزيزي فيلي، لقد حدثت كارثة»، هكذا كتب بولاك لصديقه، تُرى ما الذي حدث؟

لم يعد في يد يسنسكي أي حيلة أخرى، سوى عزل ابنته تمامًا. وقد تلقى الدعم على هذا من زميله الدكتور بروخاسكا، والد ستاشا صديقة ميلينا. والذي حرر شهادة، أكد فيها أن ميلينا تعاني من سلسلة من الأمراض العضوية والاضطرابات النفسية، من أول «الشلل» وحتى «البارانويا» و«الاكتئاب». ويقول نص التشخيص الحاسم أنه لديها «جنون أخلاقي»، مصطلح مترهل، يُراد بواسطته إثبات أن الشخص لديه شعور أخلاقي مرضي؛ كي يُبرر أنه لا يعي نتيجة أفعاله، وغير مسؤول عن تصرفاته. ما حدث نفسه أيضًا مع الشاب هيرمان هيسه؛ فقد حدد الأطباء أن لديه «بلاهة أخلاقية» وحينئذ تم وضعه في مستشفى الأمراض العقلية. لم يصدر عن ميلينا يسنسكا شيئا غريبًا. وفي 20 يونيو 1917 تم أخذها من قِبَل والدها وأخته وأحضرت إلى مصحة فنسلافين للطب النفسي بقرية تحمل الاسم نفسه: شرق براغ. وعلى ما يبدو أن صديقتها ستاشا شمّت رائحة دور والدها المخزي في هذا الموضوع، فأرادت أن تحذر ميلينا أو بولاك؛ لكن قبل أن تتمكن من أن تبوح بشيء تم حبسها في عزبة الأُسْرَةِ في ليبشيس.

كانت مصحة فنسلافين عبارة عن قلعة ريفية صغيرة من عصر الباروك، وبجوارها منازل مجاورة مثل الفيلات على حافة براغ. فالمنظر الجميل للخضرة والمباني الإقطاعية يمكنها أن تضلل بسهولة، بينما في هذه المستشفى للأمراض النفسية كان الوضع غير إنساني في كثير من الأحيان.

كانت ميلينا، كما كتبت إلى بولاك في رسالة ما، «سجينة». فقد تم تقييدها رغما عن إرادتها في مكان ما ذي عين سحرية. وكان مسموحا لها فقط بأن تقرأ الكتب؛ ولكن لم يكن مسموحا لها التحدثُ مع المرضى خارج غرفتها. إلا أنها قد فعلت هذا وتمت معاقبتها بالحبس مرة أخرى في غرفتها. كتبت إلى ماكس برود، الذي كان يسأل عن صديق ما، كان موجودا أيضًا في الوقت نفسه في فنسلافين؛ «فقط الطب النفسي هو شيء قبيح، إن تمت إساءة استعماله، فيمكن أن يصبح كل شيء معتادا، وكل كلمة هي سلاح جديد للمُعذبين».



ميلينا قبل فترة وجيزة من زواجها ببولاك

مصدر الصورة: Verlag Neue Kritik

في 18 أغسطس 1917 أصبح لدى ميلينا واحدا وعشرين عامًا وبذلك تكون قد بلغت سن الرشد القانونية. لم يعد والدها يستطيع التحكم بها بَعْدُ، والاحتمال الوحيد، الذي يمكن أن يقيدها بفنسلافين وبذلك يُباعد بينها وبين بولاك، كان هو أن يتم اعتبارها مجنونة. وكان يجب على الأطباء خصوصا ملاحظة أنها ليست مجنونة. وعلى كل حال فقد كانت ميلينا طبيعية بالنسبة إلى إحدى الممرضات الشابات. قد انفطر قلبها لمصير حب ميلينا الرومانسي، حتى أنها ساعدتها وأعطتها مفتاح الحديقة، حيث تم ترتيب لقاء سري لها مع بولاك.

تمنّى بولاك بالتأكيد في بعض الأوقات، لو لم يكن قد شرع أبدًا في قصة الحب هذه. وقد كان مثقلا بين الحين والآخر بالمشاكل والهموم التي سقطت عليه. لم يكن بصحة جيدة، حتى إنه وجب عليه في هذا الوقت أن يخضع لعملية جراحية. ومؤخرا كان قد انشغل في عمل ما، ولم يرد أن يهمل أصدقاءه في آركو. ولم تكن من حسناته، سوى أنه قد ناضل حقا من أجل ميلينا. فدرس نصوص القانون؛ كي يقيم دعوى قضائية ضد يان يسنسكي. وكان عليه أن يحصل على المال اللازم؛ كي يدفع ديون ميلينا الهائلة. وكان عليه أيضًا أن يتعامل مع صديقَتَيْ ميلينا: يارميلا، وأليس جرستل، اللتين لم تثقا أبدًا في إخلاصه لميلينا. والظاهر أن هذا كان صحيحا، إنهما ونساء أخريات كن يراقبن منزله؛ كي يتحققن، إن كانت تتردد عليه بعض العاشقات أثناء غياب ميلينا. «فأنا إن كنت الآن في العِقد الرابع، لكني أشعر كأني في الستين من عمري»، هكذا شكا إلى فيلي هاس، «يسعدني، التحدث إليهن، لأنني أتعامل مع كل النساء ـ ما عدا ميلينا ـ بصوت عال».

كانت تلك مجاملة لميلنا، وقد أعجبه تصرفها في هذا الموقف الصعب. فهل كان حقا ذكاء منها، أن تسرق مجوهرات زميلة مريضة لها، كي تساعده في دفع ديونها المتراكمة؟ أصبح بولاك مرتابا أيضًا. فمثل تلك الأفعال كانت يمكن أن تُستغل كدليل على أنها لا تعي نتيجة أفعالها حقا. رغم أنه على المدى الطويل لم يستطع أحد إبقاء ميلينا في فنسلافين. وكان من الواضح، أنه لا توجد أسبابٌ طبية لحبسها مستقبلا. وفي يوم ما في بداية عام 1918 أدرك يان يسنسكي هذا أيضًا. فأعتقها، بشروط بالطبع، يجب على الزوجين ترك براغ، ويُسمح لهما فقط برؤية بعضهما قبل الزواج بواسطة أخت يسنسكي، عمة ميلينا مارنا فورستروفا.

في 7 مارس 1918 تم إخلاء سبيل ميلينا يسنسكا من فنسلافين. تسلم فيلي هاس رسالة مشتركة قبلها بخمسة أيام من ميلينا وبولاك: «العزيز فيلي، سوف نتزوج، في كل الاحتمالات بعد يوم 14. ثم سوف نسافر إلى فيينا. أتستطيع أن تكون هنا؟ سوف يكون هذا جميلا جدا لنا. فنحن لا نستطيع أن نفكر في إشبين آخر»، لا أحد يعلم بالفعل إن كان قد سُمح لفيلي هاس بإجازة من وحدته العسكرية، كي يؤدي دور الإشبين في براغ. وإن كان قد حدث هذا، فإن الاحتفال قد أقيم إذن بين دائرة معارف صغيرة جدا. ولم يكن يسنسكي معهم بالتأكيد.

دونت ميلينا أفكارها عن الزواج بعد خمس سنوات بالتمام. وفيها كانت حريصة وسألت السؤال الذي بدا وقتها حديثا للغاية: لماذا توجد هناك الكثير من الزيجات التعيسة؟ لماذا ينبغي عليهم أن يكونوا سعداء؟. اعتبرت هذا خطأً عجيبًا، أن يتوقع «اثنان من البشر»، أن يحالفهما الحظ فجأة، بمجرد أنهما أصبحا زوجين، «عندما يتزوج اثنان، ويعتقدان أنهما

يفعلان هذا كي يكونا سعداء معا، فإنهما يتنزعان السعادة، ويغفلانها بسبب احتمالية الإخفاق. الزواج من أجل السعادة أمر نفعي أيضًا، كمن يتزوج لأجل مليونين، أو سيارة، أو لقب نبيل، ولأن الحظ قليلا ما يمنح أشياء مثل المليونين، أو السيارة، أو اللقب النبيل. فلكي تتم مواجهة العالم، ينبغي أن تكون الحسابات والأرقام منطقية. لا ينبغي أن يُقدم اثنان على الزواج إلا لسبب وجيه، أن يكون هذا هو خيارهما الوحيد للحياة. [...] فمن غير الممكن أن يتعرف كلٌّ منهما على نفسه والطرف الآخر فقط قبيل العرس. فحتى إن كانا مُدركَيْنِ لأفعالهما، وشغفهما، وقناعتهما، وآرائهما، ومعتقداتهما، فهما ما يزالان يجهلان أشكال جواربهما، ومظهر أعينهما الناعسة، وطريقة كل منهما في الغرغرة بعد تنظيف الأسنان صباحًا، وسلوكهما عند منح النادل إكرامية، هذه البواطن التي لا يمكن للمرء أن يخدع بها أحد، بعكس».، هذا هو ما كتبته ميلينا بعد خمس سنوات من الزواج.

في منتصف شهر مارس ترك المتزوجان حديثا براغ باتجاه فيينا. وتقريبا من دون حافز خاص لم يكن إرنست بولاك ليترك براغ؛ لكنه كان على حق، وهو الآن قد أصبح مجبرا على الانتقال إلى فيينا. ففي فيينا كانت توجد هناك مَقاهٍ مشهورة، فضلا عن أن براغ أصبحت تشبه المدن الغارقة. حيث كانت هناك مظاهرات شعبية بشكل يومي تقريبًا، ضد الوضع التمويني. ومن خلال تلك الأزمة اشتعلت الضغينة بين الأعراق والجنسيات المختلفة، وراقبت الشرطة المشاجرات بين الألمان والتشيكيين. وتوقفت قطارات الشوارع عن السير، وقَلَّ الفحم، وصار الناس يجلسون في الشقق من دون تدفئة، وتم تكسير نوافذ المطاعم لأن أصحابها لم يعد باستطاعتهم تقديم شيء للضيوف.

كان بولاك يبلغ من العمر اثنين وثلاثين عامًا بينما ميلينا في الحادية والعشرين. كان بولاك يدين لرب عمله الكريم، أنه استطاع من خلاله العمل لاحقًا في بنك الولايات النمساوية. وقد تمت تهيئة وظيفة بائع عملات أجنبية له. وأصبح يتلقى راتبا أساسيا أعلى بسبب الزواج. بالطبع لم يفكر في أن تتقاسمه معه زوجته الشابة. فقد اشتمل تصوره عن الزواج، أن زوجته عليها أن تدبر أمر نفسها. على كل حال، استطاعت ميلينا أن تعتمد على مساعدة والدها. فيان يسنسكي لم يدع ابنته تسقط البتة، مهما كانت الظروف المادية. فوعدها بجهاز العرس، وبالدعم اللازم عند تأسيس الشقة. وبينما كان بولاك في مأمن مهني ومالي وينتظره في فيينا بعضٌ من أصدقائه، بينما لم يكن لدى ميلينا شهادة، أو وظيفة، أو تعرف أحدا في فيينا، بالإضافة إلى أن لغتها الألمانية ما تزال سيئة. عندما وصلا إلى العاصمة النمساوية، كان وصف ميلينا في إحدى رسائلها كالتالي: «عندما جئت إلى فيينا، كنت فتاة صغيرة، لم أكن أجيد الألمانية ولم يكن لدي أي قطعة نقود. تركني بولاك في المدينة الغريبة بمفردي [...] وذهب إلى حيث توجد صديقته»..

من مقهى في شوارع فيينا

«مازال يوجد أشخاص، لا تضيرهم الحياة»

أصبحت فيينا بالنسبة إلى ميلينا، التي صارت تدعى الآن ميلينا بولاك، بداية جديدة بالكامل. قد خلفت وراءَها حياتها السابقة، أُسْرَتَها، صديقتيها ستاشا ويارميلا، المنزل الذي تربت فيه، الشوارع والأماكن المألوفة، دور السينما، المقاهي، والمسارح. كانت معروفة في براغ بالمينرفية، واثقة من نفسها، كطفلة وحيدة لأستاذ الجامعة يسنسكي الذي يحترمه الجميع، ابنة متمردة، وامرأة شرسة، تجاوزت كل نواحي الأخلاق البرجوازية نوعا ما. وكل هذا غير معتاد في فيينا، فهي هنا الآن نكرة، تفتقد لكل أمان وسند، كل شيء صار غريبًا عليها. كيف ستبدو حياتها الجديدة هنا؟ كان إرنست بولاك على يقين، أنه سوف يجد مكانه سريعا في المقاهي مرة أخرى. وبالطبع كان من المعتاد في تلك الدوائر، أن يصطحب الرجال زوجاتهم وصديقاتهم، واللاتي يشعرن بالطبع أنهن أقل من أن ينظر إليهن على أنهن شخصيات مستقلة، مجرد توابع أو مرافقات مثيرات للاهتمام. فبالإضافة إلى زوجها المهيمن والقوي، توعدت البيئة المحيطة ميلينا، البالغة من العمر فقط واحدا وعشرين عامًا، بدور زهرة حائط فقط، فهي حتى لم تكن تستطيع تحدث الألمانية بطريقة صحيحة. فهل ناورت نفسها إلى طريق مسدودة بزواجها وانتقالها إلى فيينا؟ كانت ميلينا تؤمن حتى اللحظة،

أن حياتها تسير وفقًا لقانون خاص، يتضمن الهزائم والانحرافات. تتقبل مصيرها بكل المميزات والعيوب، وعلى هذا استقر رأيها. هي بالتأكيد لم ترد أن تندم. قالت: «أنا من يدفع الثمن»..



ميلينا عندما كانت في فيينًا

مصدر الصورة: **Archiv Klaus Wagenbach**

كانت الأزمة في فيينا ما تزال أكبر من التي في براغ. وكان الخبز ضمن البضائع الناقصة. الأمر نفسه كان يسري على الطحين، والفحم، والبترول. وقفزت الأسعار عاليا بشكل عبثي بسبب التضخم الاقتصادي. فعلبة

واحدة من أعواد الثقاب أصبحت ذات يوم تكلف عشرين ضعف ثمنها الأصلي. تم استثناء الإيجارات فقط من هذا التلاعب بالأسعار. فقد منعت الحكومة أي زيادة، وسرعان ما أدى ذلك إلى أن يصبح إيجار شقة متوسطة الحجم في السنة أقل من ثمن وجبة غداء.

أولاً وجدت ميلنا وإرنست شقة في شارع نوسدورفر، قريبة من محطة فرانتس يوزف. وانتقلا في منتصف شهر مايو إلى شقة أكبر في 113 شارع ليرشنفلدر، في الحي الثامن بفيينا. وكان المبنى الجديد يقع بجانب كنيسة، ويبعد عدة خطوات فقط عن حديقة. وقد جهزت ميلينا الغرفة الكبيرة المشرقة الموجودة في الطابق الثالث بنقود والدها. كانت غرفتها تطل على الشارع، الصاخب كثير المرور. وعندما كانت تنظر من النافذة، كانت تستطيع مراقبة عربات النقل والسيارات، وفوق الأسقف كانت ترى جزءا من السماء. كان ينبغي عليها قضاء أيام كثيرة بمفردها في تلك الغرفة. فقد أصبحت مسكنها الجديد، والذي منه تستكشف المدينة وتعود إليه بعد النزهات الطويلة.

وافق بولاك على الشقة؛ لأن صديقه فرانتس فيرفل كان يسكن في الجوار، وأيضًا يمكنه الوصول إلى مكان عمله في بنك الولايات ومقاهي وسط البلد سيرًا على الأقدام. عمل فيرفل مثل بقية الأدباء في المركز الصحفي الحربي، بينما يقضي وقت فراغه في مقهى سنترال بزقاق هيرن. كان قد أعلن بالفعل عن صديقه بولاك بحماسة، وقدمه إلى دائرة الأدباء، والفنانين، والصحفيين، التي ينتمي إليها أسماء كبيرة مثل: روبرت موزيل، وبيتر ألتنبيرج، وكارل كراوس، وهايميتو فون دوديرر. وكان مكان الالتقاء في نهاية المقهى، ويدعونه أيضًا «قدس

الأقداس» أو «قاعة القبة». وقد سمي بذلك ليس فقط من أجل هندسته المعمارية الخاصة؛ بل لأنه كان يتصاعد منه دخان السيجار والسجائر إلى أعلى، مع سيل من كلام لا نهائي، ويشكل قبة شفافة غريبة. كان الاندماج في هذه الدائرة اللامعة بمثابة الانضمام إلى مجتمع سري، مثل الاعتراف الرسمي بأيديولوجيا عالمية، أيديولوجيا المقهى، والتي شعر معها إرنست بولاك أنه في المنزل بالفعل في براغ. فهو لم يتم قبوله على الفور فحسب؛ بل سرعان ما أصبح أحد المتحدثين الرئيسيين. لم يستطع أحد سواه الابتعاد عن الأدب الراهن ولفت الانتباه نحو كتَّاب جدد، خاصة الموظف فرانتس كافكا في براغ، والذي كان يُقدِّر نصوصه كثيرا، لكن لم يكن يعرفه أحد في فيينا. وعلى ما يبدو كانت ذاكرة بولاك أيضًا لا تنضب، خاصة عندما كان الأمر يتعلق بدعم أحاديثه بشواهد مقتبسة من جوته، أو نيتشه، أو شكسبير، أو بودلير.

تأثر المجتمع سنترال الأدبي بالشائعات، خاصة التي كانت تسبق مجيء بولاك. وقيل إنه قد اختطف ابنة أستاذ جامعي معروف وتزوجها. فدوى هذا كعمل بطولي لفارس، أنقذ الأميرة من براثن التنين. ذات يوم أحضر بولاك هذه «الأميرة» معه إلى سنترال. تُرى أي انطباعات تركتها! كانت هناك أقوال متباينة لهذا. أخبر بولاك فيلي هاس، الذي شهد النهاية القريبة للحرب على الجبهة الايطالية، أن ميلينا قد حققت «نجاحات اجتماعية كبيرة» وأنها «مدللة جدا ومحبوبة من قبل الكثيرين». وقد أضاف نادما بلا شك؛ «لو كانت مختالة قليلا، لكان هذا قد عنى لهم الكثير». أراد بذلك أن يقول، إن ميلينا كانت طبقًا لذوقهم شخصًا متحفظًا، وهذا لم يكن كافيًا، وأنها لم تجد لعب المجاملات والدلال

المتوقع في المقهى، كان هذا ليناسب ملاحظات الضيوف الآخرين، الذين أعجبوا بشباب ميلينا وجمالها، ولكنهم أيضًا شعروا أنها «غريبة» و«تائهة» في تلك البيئة المحيطة.

بعدها بسنتين، وصفت ميلينا جو المقاهي كالذي كان في سنترال. كانت ترى أن تلك الأماكن، يقصدها الوحيدون، من بحاجة إلى صحبة. وقد قل تعاطفها مع الضيوف ذوي الأسماء الكبيرة، «أشباح الرأسماليين»، كما تدعوهم، الذين هم آمنون مالياً واجتماعياً ويواجهون خطر «الانحلال العقلي»، و«الغارقون»، الهامات الغامضة، و«المكتئبون الصامتون»، الذين لديهم أفكار حول كتب في رؤوسهم؛ لكنهم لن يكتبوها أبدًا، الذين يكافحون فقط من أجل البقاء في زمن الحرب: «في السنوات القليلة الماضية، عندما شحَّ الأكل، والملبس، والتدفئة في المنازل، تحول المقهى إلى سكن جماعي للبوهيميين، فبدا المقهى كأنما قد أصابته لعنة بائسة أثناء الحرب. بعضهم أيضًا قد اختفوا، ماتوا من الجوع، والإعياء، والمرض. ما يزال آخرون يلتمسون تدفئة أنفسهم من خلال القهوة التركية. في المقهى كانوا يكتبون، ويصححون، ويتحدثون. في المقهى كانت تمر المشاهد الأُسَرِيَّةُ، وفي المقهى كانت تنعقد المعاملات المالية الجادة. في المقهى كان الناس يعيشون، يتكاسلون، ويقتلون الوقت»..

كان المقهى يمثِّل لميلينا نظام حياة، به شغف وجاذبية، ويحمي من المخاطر. وعلى الأرجح أنها كانت تفكر أيضًا في زوجها إرنست بولاك، عندما كتبت: «ينفرد الشخص المبدع بنفسه، وغير المبدع يلتمس هناك التسلية. يبحث عن الترفيه، الذي يناسب مستواه؛ أحاديث، أدب، الحد الأدنى من تذوق الإبداع المختلف. وكالأمراض المعدية كذلك كل مجال

فكري يصبح معديًا. فمن يتهاوى في وتيرة الحياة العفنة الزاحفة لتلك المقاهي، نادرًا ما يصعد إلى القمة»..

القمة كانت وما تزال في نظر ميلنا هي الأدباء، الذين كانت تعجب بهم وهي فتاة: إبسن، هامسون، نيتشه. كانوا مستحيلي المنال. ولكن على الأقل لم ترد أن تغرق في العالم الوهمي العاجز الموجود في المقاهي. لم ترد فقط أن تقرأ عن الحياة، بل أن تعيشها بنفسها. لم ترد فقط أن تتحدث عن الأدب، بل أن تفعل شيئا بنفسها. لكنها تجرأت في صيف وخريف عام 1918 ومازالت لم تفكر بعد. في تلك الأيام والأسابيع، عندما انهار العالم القديم لمملكة هابسبورج ببطء، ولم يعرف المرء، كيف سيصبح النظام الجديد، وبالنسبة إلى الجميع كان السؤال يدور حول، كيف وأين نأخذ الطعام، والحطب، والملابس. استُهلِك جهاز ميلينا منذ وقت طويل، وظل إرنست بولاك متمسكا بقناعته، أنه ينبغي على امرأته أن تنفق على نفسها. وطلب المساعدة من والدها، لم يكن أمرا واردا. لكن كيف ينبغي عليها أن تأتي بالمال؟

وعلى عكس التعامل مع زوجته كان إرنست بولاك كريمًا للغاية مع أصدقائه. فقد كان هناك بينهم تعساء كثيرون، لا يقيم عودهم سوى اقتراض المال من الجميع. وكان بولاك رجلا منشودًا في هذا الصدد، واحدًا من ضمن القليلين، الذين يحصلون على راتب ثابت، كان معروفًا بأنه يسدد الفواتير الغريبة عن طيب خاطر. لذا فقد كان محبوبًا جدًا من بعض الفنانين مثل الرسام المتشرد إميل سزيتيا، الذي كان متعاطفًا معه جدًا، لأنه كان هو الشخص الوحيد الذي يمده بالمال دائمًا. وانتقل بولاك مع أصدقائه في تلك الأثناء، إلى مقهى هيرِنهوف، الذي كان

موجودًا أيضًا في زقاق هيرن. هناك كانت توجد مقصورات، محفوظة لفئات معينة. ففي مقصورة ما كان يجلس الكاتب ليو بروتس مع زملاء وممثلات. وفي مقصورة أخرى كان يجلس فيها عالم النفس الدكتور ألفريد آدلر وطلابه. ولكن «عامل الجذب الرئيس» لإميل سزيتيا كان موظف البنك إرنست بولاك، والذي كانت تقع في مقصورته «المعارك الكلامية، والمناوشات الجنسية» الأكثر إثارة. في مقهى هيرنهوف ترددت السيدات أنفسهن، الزوجات والصديقات، اللاتي كن، كما حكت ميلينا، غالبًا «بهذه الطريقة وحدها»، ينتقلن من طاولة لأخرى ويخلصن قليلاً أو كثيرًا.

تضمن أسلوب الحياة المتحررة في المقهى، عدم فرض أي حدود أو محظورات في الحب. كان نبيّ لذة الحب الجامحة تلك هو الطبيب والمحلل النفسي أوتو جروس، وهو شخص غريب الأطوار حقًا. فقد شرح تعاليم زيجموند فرويد وفقًا لطريقته الخاصة، وأعلن أن الجنس والمخدرات هما الدواء الشافي من كل القيود والالتزامات الداخلية والخارجية. وعلى الرغم من أنه كان متزوجًا، فقد أنجب هذا الطبيب المدمن أطفالاً من عدة نساء، كما تم استدعاؤه بين الحين.والآخر من قبل الشرطة بتهمة الاشتباه في القتل. وبسبب تجاوزاته، احتجزه والده، وهو محام مشهور وعالم في الجريمة، في مؤسسة مغلقة، وحجر عليه في محاكمة مثيرة. وقد عاش في فيينا مع رجال ونساء فيما يشبه إلى حد ما مجتمع مستقل، كما كان زبونا دائمًا في هيرنهوف، حيث أعلن رغبته الزواج بأكبر عدد ممكن من الفتيات الصغيرات، من أجل مساعدتهن على تحقيق الحرية الجنسية الكاملة.

كان فرانتس فيرفل وإرنست بولاك أتباعًا مخلصين لتعاليم جروس. كانا ينتشيان بالكوكايين، ويقدمانه تقريبًا في هيرنهوف إلى الآخرين لمساعدتهم على تحمل الجوع. إلى جانب ذلك فقد انكشف أمر عشيقة بولاك السرِّية، التي كان قد تعرف عليها في براغ، وانتقلت كذلك أيضًا إلى فيينا. عرفت ميلينا بهذا، وتحملته، لكنها لم تستطع إخفاء حقيقة أنها جُرحت وأصيبت بالغيرة. فعندما كان يصطحبها بولاك إلى هيرنهوف، كان الآخرون يتعاملون معها كالمريضة، وقد حاولت الصديقات مثل جينا كرانتس تعزيتها. وجينا كرانتس هذه كانت مناسبة لهيرنهوف أكثر بكثير من ميلينا. كان جمال ميلينا جمالا مريرا نوعا ما، بعينيها الزرقاوين، وعظم وجنتها البارز، وأنفها الأفطس. كانت ترتدي ملابس بسيطة، وتنصت متحيرة للأحاديث؛ لأنها أصبحت بالتدريج أكثر فهمًا للغة الألمانية.

كانت جينا كرانتس جميلة جدا، وطائشة، وثرثارة، ترتدي دائمًا على الموضة. زوجها السابق كان جنديا قد سقط في الحرب، وأصبحت الآن عشيقة رجل الصناعة ثري فيينا يوزف كرانتس. الذي تبناها رسميًا، كي ما يضفي شرعية على فارق السن الكبير بينهما. وعندما كانت ميلينا في زيارة لمنزل جينا كرانتس، اضطرت أن تكون صريحة، فإنه صار يوجد كثيرون رابحون من الحرب أيضًا. بينما كانت هي نفسها جائعة وتمتلك فستانا واحدًا، كانت جينا تتقلب في نعيم يفوق التصور، ولم يؤنبها ضميرها، في أن تستعرض أمام صديقتها ميلينا مجوهراتها الثمينة. لم تستطع ميلينا فعل شيء آخر؛ فعندما انشغلت جينا قليلا، التقطت ميلينا بروشا وأخفته. لاحظت جينا السرقة وسرعان ما ارتابت في ميلينا، لكنها لم تتمكن من إثبات شيء. كما لم تتضرر الصداقة من هذا الفعل. «كانت ميلينا أكثر

صديقة متقلبة الوجوه، من الصديقات اللاتي كن لدي في أي وقت».، كتبت جينا كرانتس هذا، وانفصلت بعد قليل عن يوزف كرانتس، ووقعت في الحب مرة أخرى ودُعيت بعد ذلك باسم جينا كاوس.

في فيينا كان وضع عامة الشعب كارثيًا. فالكثير من الأشخاص قد ماتوا بسبب الجوع أو المرض. حتى جنود الجيش النمساوي المجري قد توقف إمدادهم. إلى جانب ذلك كان الوضع العسكري ميؤوسا منه. وبدت الهزيمة حتمية. فقد امتنع الجنود عن الأمر، غادروا وحداتهم واقتحموا طريقهم إلى مواطنهم. والأسوأ من ذلك أن أوروبا ابتُليت بوباء لا مثيل له. ففي بداية أكتوبر عام 1918 كان يموت في فيينا حوالي مئتي شخص كل يوم بما يسمى بالأنفلونزا الأسبانية. امتلأت صالات الأموات ولم تعد المشافي تستقبل المزيد من المرضى، وتم إغلاق دور المسرح والسينما.

في براغ كان فرانتس كافكا ضحية للأنفلونزا الأسبانية أيضًا. فقد لاحقته حمى من شقة والديه، كما حدث انقلابٌ في المدينة. فالوطنيون التشيكيون مثل يان يسنسكي شعروا أن تلك هي ساعة الفوز بالتحرير. طافت الجماهير في الشوارع بأعلام حمراء إلى ساحة فنتسل، وهتفوا باسم ماساريك، الذي يعود إليه الفضل في تقديم المساعدة من الأمريكان والفرنسيين لاستقلال التشيكيين والسلوفاك. تم إسقاط النسر مزدوج الرأس، رمز النظام الملكي الهابسبورجي، من على المباني، كما تم طلاء اللافتات ذوات الكتابة الألمانية. وفي ظل حالة الهيجان القومي سقط تمثال العذراء مريم في ميدان المدينة القديمة. يوهانس أورزيديل، الذي تجرأ على التساؤل عن معنى هذا الفعل، تمت مطاردته من قبل مجموعة من الرعاع الهمجيين، ونجا بنفسه بصعوبة بالغة، حيث اختبأ داخل محل

قبعات سيدات. رغم ذلك لم تحدث أي اعتداءات وحشية متوقعة أو معارك دموية من شارع لشارع. وانتهت الثورة بشكل سلمي بطريقة معجزة. وفي 28 أكتوبر كان الوقت قد حان للإعلان عن جمهورية تشيكوسلوفاكيا المستقلة، وبعدها بأسابيع قليلة تم اختيار توماس جاريجو ماساريك أولَ رئيس للدولة الجديدة. كافكا، الذي كان راقدا في الفراش، ودرجة حرارته تزيد على الأربعين بسبب الحمى، احتمى من كل هذا. وكان الأطباء قد يئسوا منه بالفعل. لكنه بقي حيًّا.

لم تعرف ميلينا الموجودة في فيينا شيئا عن الحوادث الجارية في وطنها. وعندما وصلت حوادث الشغب إلى فيينا، كانت جالسة مع آخرين في هيرنهوف. أثارت ضجة الشارع فضولها، فذهبت هي وجينا كاوس وفرانتس فيرفل إلى مبنى البرلمان الإقليمي، حيث احتشد الناس هناك. وقف النواب في شرفة البرلمان يطالبون وسط التصفيق الجماهيري بتنازل القيصر عن العرش وتأسيس الجمهورية. شقت ميلينا وجينا طريقهما عبر الجمهور إلى إدارة تحرير جريدة تاجبلاتس، كي تعرفا من هناك، ماذا يحدث في براغ. وكان رئيس التحرير كارل تشوبيك من براغ، أقنعته ميلينا، بالاتصال بمكتب الإمبراطورية في براغ. تظاهر تشوبيك أنه ممثل إدارة الأمن الملكي للإمبراطورية واستطاع بالفعل الاتصال ببراغ. ساد صمت متوتر في قاعة إدارة التحرير، عندما أنهى المكالمة مع السامع بعد محادثة قصيرة وقال: «إنها نهاية النمسا». لم يصل إلى أي موظف، بل إلى عاملة تنظيف، وهي التي أجابته، إن إدارة الأمن الملكي للإمبراطورية يمكن أن تكون «تلعق مؤخرتها». بالنسبة إلى تشوبيك كان هذا الخبر أكثر أهمية بكثير من تأكيدات ضمانات السياسيين الساذجة، وإن المملكة الهابسبورجية

القديمة لم يعد لها وجود، كانت تلك هي الحقيقة التي أدركها حينها. وتأكد الجميع منها بعد ذلك بقليل. انتشر خبر، أن الإمبراطور تنازل عن العرش وأنه يريد مغادرة البلد. كانت ميلينا متحمسة للأخبار التي تأتيها من براغ وفخورة ببلدها وهذا ما لم تستطع جينا فهمه. فأجابتها ميلينا: «أنت لم تُظلمي أبدًا»..

مثل التشيكيين والسلوفاك انشق أيضًا البولنديون والإيطاليون عن الدولة السالفة متعددة القوميات. ما تبقى كان مجرد «جسد مشوه»، دويلة صغيرة، بدت أنها غير قادرة على البقاء، ذلك لأنه تم قطع العلاقات الاقتصادية مع الأقاليم كافة التي كانت تابعة لها. والأصعب ما قد شعر به التشيكيون في فينا. فقد تم اعتبارهم خونة، ولم يستطيعوا مساعدة وطنهم. أغلقت الحدود. لم تعد تصل أي خطابات أو طرود مساعدة. وكآخرين كثيرين اعتمدت ميلينا على التموين. الذي كان عبارة عن خبز متعفن قاس لونه أصفر، لم تستطع ميلينا أن تُكره نفسها على تناوله، حتى وإن كانت جائعة للغاية. كان الشتاء قارصًا. سارت عبر محطات الترام المزدحمة إلى خارج المدينة، كي تجمع الخشب الرطب الموجود في غابات فينا مع جيش النساء، والشيوخ والأطفال، كانت تبيع ذلك الخشب في المدينة أو تدفئ به غرفتها مؤقتًا. «لم تعد القطارات تسري بعد»، كما كتبت عن ذلك الوقت، «ولم يعد لدى الشعب أي خبز، أو طحين، أو بطاطس، أو بريد، أو تليفون، أو تلغراف، وأي شيء كان يعمل بعد تعب ومشقة، وببطء لا يصدق، وفي المشافي والعيادات كان المرضى يستلقون بثياب مهلهلة، وفي السجون كان المجرمون المساكين يصرخون من الجوع والبرد، لدرجة أن الناس، الذين كانوا يقطنون بالقرب منهم، لم يستطيعوا النوم!».

اعتمدت ميلينا على المساعدة، لكن وجب عليها أن تمر بتجربة غير متوقعة، وهي أن كل الرجال، الذين كانت تطلب مساعدتهم، كانوا يريدون منها شيئًا في المقابل. ومن دون وجود بعض الأشخاص القليلين، الذين يدعمونها من دون دوافع خفية، لكانت، كما اعترفت فيما بعد، قد هوت. وهي نفسها رغم الفقر الكبير لم تفقد استعدادها المفرط تقريبًا لمساعدة الآخرين. لهذا لم يكن لديها جدال في أن تدبر شقة لفيلي هاس، الذي ألقي به إلى فيينا. وعندما طلبت منه، تقديم شيء من أجره العسكري الوافر، تردد هاس، فانتزعت منه النقود ببساطة بشكل تلقائي. كان بالنسبة إليها هذا البخل هو ضيق أفق، إن كان يرى أن الأمر مجرد خدمة بحكم الصداقة، فهو أعمى البصيرة.

ومع ذلك، وعلى المدى الطويل جرح كبرياءَها، حاجتُها إلى الاعتماد على المساعدة الخارجية. فأرادت كسب المال بنفسها، بالرغم من أن حالها كان جيدًا حتى وهي من دون عمل. فكانت تحمل حقائب المسافرين في المحطة الغربية. لكن الإكرامية، التي كانت تحصل عليها، لم تكن تكفي لغداء يوم واحد. الإمكانية الوحيدة، لكسب المال، هي معرفتها باللغة التشيكية. وبالفعل، قبلت بعض المدارس، أن تعينها بين الحين والآخر كمعلمة لغة تشيكية. بالإضافة إلى ذلك أعطت دروسًا خصوصية لرجال أعمال، كانت مصانعهم موجودة في ذلك الوقت في تشيكوسلوفاكيا وكان عليهم تعلم اللغة الجديدة من أجل تجارتهم. أحد هؤلاء كان هيرمان بروخ، الذي يعمل في مصانع النسيج التي يمتلكها والده وينبغي عليه أن يستعد لكي يرثها. لكن بسبب انزعاجه الشديد من والده فضّل بروخ الجلوس في مقهى هيرنهوف والتحدث مع إرنست

بولاك ـ الذي كان يعزّه جدا ـ عن الأدب والفلسفة. ربما يكون بولاك هو من بعثه إلى ميلينا ليدرس على يديها. إن صح ذلك، فبالتأكيد قد ندم سريعًا عليه؛ لأن بروخ وميلينا اقتربا من بعض أثناء الدروس. اقتربا جدا، لدرجة أن بولاك أصبح يشعر بالغيرة. فهل استثارت ميلينا تلك الغيرة؟ هل أرادت أن توضح لزوجها الخائن دائمًا، أنها أيضًا متحررة، وأنه يوجد بلا شك رجال آخرون، ينشغلون بها؟

لديها سببٌ كافٍ لهذا. فقد شعرت بأن بولاك قد أهملها. كان يذهب بعد العمل مباشرة إلى هيرنهوف، ويعود متأخرًا في المساء، عندما تكون ميلينا نائمة بالفعل، في أغلب الأوقات كان يرافقه الأصدقاء إلى الشقة المشتركة الموجودة في شارع ليرشنفلدر، ليواصل معهم المناقشة. بعض هؤلاء الزائرين المتأخرين كانوا يبيتون عنده. وكان معروفا أن بولاك يمتلك شقة كبيرة ويمكن للمرء أن «ينام» لديه في أي وقت ويتزود بالكوكايين أيضًا. حتى إن أحد هؤلاء الضيوف، كانت لديه عادة غريبة، وهي أن يلتف بسجادة عند النوم، في حجرة صغيرة خلف المطبخ. بل إن ميلينا قد رضيت كذلك أن يصطحب بولاك صديقاته إلى الشقة. حتى إن واحدة منهن، كانت تدعى ميتسي بير، أقامت لديهما فترة طويلة. ووفقًا لمذكرات يانا ابنة ميلينا، والتي بالطبع لم تكن مرتاحة لمثل تلك الأمور، كانت ميتسي بير جميلة جدا لكنها غبية ومتقلّبة. تطابق هذا بالطبع مع أن بولاك لم يكن يرغب بحل مشكلات فلسفية في «الفراش». فقد كان لديه أصدقاء في هيرنهوف من أجل إشباع احتياجاته الروحية، بينما كان أكثر ما يقدّر في النساء صفاتهن المثيرة وأناقتهن العصرية.

نادرا ما كان يرى أحد ميلينا في هيرنهوف، وعندما يرونها، كانوا يسخرون منها بسبب تعبيرات وجهها الجادة، ولغتها الألمانية المتعثرة وملابسها الرثة. ومن ناحية أخرى فقد وجدت أن المجتمع هناك قد أصبح «سخيفا» بشكل متزايد. في تلك الأثناء تعرفت على فيينا مختلفة، وشعرت عن قرب بأولئك الأشخاص، الذين تقابلهم في شوارع المدينة. أصبحت صديقتها المفضلة الآن هي باني كوهلر، حارسة عقار في شارع ليرشنفلدر. اضطرت باني إلى مغادرة وطنها المجري وفقدت زوجها في الحرب. صارت هي الآن روح المنزل الطيّبة، كانت ترعى ميلينا بمحبة بالغة. فاهتمت بتنظيم شؤون حياة ميلينا كافة. فكانت ترتب غرفتها، وترتق ملابسها وجواربها. وعندما كانت ميلينا تحن إلى وطنها، كانت تعد لها فطائر بوهيمية، أو ما ترغب به وقتها. وفي أغلب الأوقات كانتا تجلسان معا في المطبخ وتفكران، في أي أشياء مازالت يمكنهما رهنها في بنك الرهونات، كي تحصلا مجددا على المال لشراء البنجر والملفوف. وفّرت باني كوهلر لميلينا الدعم وكامل السلوى. وقد أقامت أيضًا نصبا تذكاريا مُحبا لصديقتها: «إن هذه المرأة واحدة من عامة الشعب، بدائية، وأميَّة، وتنتمي إلى الجيل السابق، لكن لديها أجمل قلب في العالم، إنني أشعر تجاهها بمحبة أصيلة حميمة. [...] تتشارك معي كل كرونة، أو قطعة خبز، بل وتصر على إعطائي الجزء الأكبر منها. أين كنت سأصبح من دونها؟ في ذلك الوقت عزمت على إعطائها نصف ما سأحصل عليه، حتى لو صرت مليونيرة، سوف ألتزم بعهدي. وسوف ترون»..

كانت ميلينا تنجذب إلى أشخاص مثل باني كوهلر. تتأمل خلال سيرها بائعة الخضراوات، وبائع الحليب، والحوذي، ومراقب التذاكر

في الترام. قديمًا كانت تتجنب مد نظرها؛ لأنها لم تكن تستطيع احتمال كل هذا البؤس والخزي. اختلفت الآن نظرتها لذلك الشقاء، أو بالأحرى، صارت تجلّه وتكرمه. المتسول الأعمى، الذي يمتلك قيثارةً، وجرسًا صغيرًا، وبوقًا يؤلف بهم موسيقى صاخبة، ليلفت نحوه انتباه المارة غير المكترثين. بائع الجرائد في زيه القديم، الذي يجر ساقيه من طاولة إلى أخرى في المقاهي. ماسح الأحذية ذي الساق الخشبية والفُرَش الكثيرة، والزجاجات، والدهانات. كانت وجوههم جميعًا تعلن بوضوح، أنه «مازال يوجد أشخاص، لا تضيرهم الحياة»..

مَثَّل كل هؤلاء الأشخاص لميلينا نوعًا من الدعاية. لم تكن دعاية تجارية أو استهلاكية كالمعروضة على واجهات المحلات، وإعلانات الشوارع المعلّقة فوق أعمدة؛ بل دعاية ترغم المرء على مواجهة البؤس والشقاء. «الرأسمالية، التي تسوِّق دعايتها التجارية بالصور الملونة، كأنها تنعكس بشكل مبدع. سخرية لاذعة من العجز، بكل القبح الإنساني». أحيانا بالطبع كانت تلتقي ميلينا بفقير، لا ينشد أي اهتمام، يسخط على العالم عبر معاناته دون أن ينبس بكلمة «لقد عانيت بالأمس شيئا مرعبا. رأيت امرأة، ملتصقة بعمود الكنيسة، شاحبة كما الظل. لا يوجد هنا أي إعلان. فقط معاناة بائسة. لا يوجد هنا أي تضرع أو دموع، فقط وجه أخرسته الشكوى. كانت المرأة تحمل بين ذراعيها، طفلا قد مات للتو. وجسده مغطى كله بطفح جلدي. لم تنظر نحوي، أو تجبني؛ لكن عندما اقتربت منها، دفعتني بإشارة من يدها، تحمل كثيرا من الازدراء للجميع، والشعور بالوحدة، لدرجة أني وليت هاربة من الفزع، كأنه عليَّ أن أنقذ نفسي».

كان على ميلينا تقديم نفسها، إن لم تكن ترغب في خسارة زوجها تمامًا. فيبدو واضحًا أن بولاك لا يثير انتباهه سوى النساء اللواتي يمتلكن زهوًا في سلوكهن وتصرفاتهن، وهو ما أفتقده في ميلينا. فقد عجزت عن مجاراة النساء اللواتي يرتدين ملابس عصرية ومغرية في هيرنهوف، وبالتالي فقد زاد إهمال زوجها لها. لقد دفعها يأسها المطلق إلى تكرار السرقة مرة أخرى. كان هذا في خريف عام 1919، في الحادي عشر من أغسطس، بعد يوم واحد من عيد ميلادها الثالث والعشرين. فهل كان لفعلتها تلك علاقة بعيد ميلادها؟ وهل نسيها بولاك أو لم يكن يبالي بمثل تلك الذكريات البسيطة؟ كانت ميلينا تعمل في ذلك الوقت كمدبرة منزل لدى زوجين ممثلين، ثم أخذت مالا من درج ما. فيما بعد أخبرت ابنتها يانا وصديقتها مارجريته بوبر نويمان، بأن تلك السرقة كانت لها عاقبة مؤلمة. ربما يكون البعض قد أختلق وصفًا لما حدث. بيد أن جوهر الموضوع يكمن في المشهد التالي، كست ميلينا نفسها بالمال من أغلى المتاجر، ثم ذهبت إلى هيرنهوف، حيث كان بولاك جالسا مع أصدقائه. عندما شاهد زوجته التي بالكاد عرفها، أطلق عبارات مديح وطلب منها مشاركته في جلسته. لكن ميلينا غضبت غضبًا مفاجئًا، لدرجة أنها صفعته أمام الجميع.

المعروف أن ميلينا تم إلقاء القبض عليها في اليوم نفسه بسبب السرقة وأقتيدت إلى محكمة إقليمية. وقد جاء في محاكمتها، التي حكم عليها فيها بعقوبة حبس قصيرة، إجابة أسطورية على القاضي، عندما سألها لماذا سرقتي المال واشتريتي به ملابس، فقالت: «لأنني كنت أمر بأزمة جنسية»..

أرادت ميلينا أن تُخبر زوجها من خلال تلك الصفعة، أنها لم تعد

ترغب في تقبل، كل ما كان يثقل به كاهلها. تبع دهشة إرنست بولاك إنكار وعدم تصديق، كيف أن ميلينا بدأت المضي قدمًا في طريقها الخاص. دونت التجارب والملاحظات، التي جمعتها من شوارع فيينا، وأرسلت النصوص إلى صديقتها ستاشا، التي كانت تعمل في مجلة تريبونا في براغ. كانت ردود الفعل متحمسة، أرادت إدارة التحرير طباعة المقالات. بينما كان بولاك مازال متوجسا مع مزيج من الشكككوك والسخرية تجاه قرار ميلينا، بأن تجرب العمل كمترجمة. وقد كان الكاتب، الذي وقع اختيارها عليه لترجمة أعماله، هو تحديدًا الكاتب المفضل غالبًا لدى بولاك؛ فرانتس كافكا.

كان إرنست بولاك أحد القلائل، الذين انتبهوا عموما إلى كتابات كافكا، رغم أنه كان معروفا بنقده الصارم وأحيانا الهدام، فقد كان يحترم موظف البنك هذا القادم من براغ. فكل جملة لكافكا هي «غريبة»، كتب في رسالة له كلماته، هي «الشيء الأكثر إزعاجًا». وُجدت مطبوعات قليلة لهذا المؤلف غير المعروف. وما أثّر في ميلينا بالأخص كانت قصة: الوقاد. وفيها حاول رجل شاب ـ تم نفيه في الغربة إلى أمريكا، بلا جدوى ـ مساعدة عامل في الحصول على حقه. فهل اكتشفت ميلينا في تلك القصة خبرات خاصة؟ ألم تُلقى هي أيضًا في عالم غريب؟ ألم تقترب هي أيضًا للغاية من بؤس الأشخاص المهمشين في فيينا؟ ألم ترد هي أيضًا المساعد، من دون أن تعرف، كيف؟

في نهاية أكتوبر 1919 كتبت رسالة إلى فرانتس كافكا مع رجاء، أن يسمح لها بترجمة قصّته إلى اللغة التشيكية. وعندما تلقى كافكا الرسالة، عرضها على خطيبته يولي فوريتسك فخورًا. فقد عزم الاثنان على الزواج خلال

أيام قليلة. ويسبب هذا الزواج حدث شجار رهيب بين كافكا ووالده، الذي كان رافضا لهذا الزواج. أراد كافكا كتابة رسالة لوالده، والتي لن يقرأها أبدًا بطبيعة الحال. لم يتم الزواج بيولي فوريتسك. وقبل العرس بيومين رجع كافكا عن قراره.

قبلات مكتوبة

«الحياة لساعتين؛ أجدى من كتابة صفحتين»

«من الأفضل التمدد في الفراش، وتغطية الأذنين، وعدم الخروج إلا بعد انتهاء العطلات. بهذه الطريقة نويت الاحتفال بعيد الميلاد!»، هكذا بدأت ميلينا مقالتها عن أعياد الميلاد في فيينا عام 1919، والتي وصفت فيها «رحلتها الطويلة» عبر المدينة للبحث عما يصلح للأكل وصادفت أثناء ذلك تناقضات كبيرة. كانت شبابيك العرض الموجودة في المحلات فارغة، لكن في السوق السوداء يمكن الحصول على كل شيء؛ طالما يوجد معك قدر كافي من المال. كان الكثير من الناس جائعون ويتجمدون، وآخرون يرفلون في النعيم. عاشت العائلات في حجرات متعفنة من دون كهرباء، فقط على ضوء الشموع، ومن ناحية أخرى كانت المسارح والملاهي الليلية ممتلئة. مدينة مجنونة. زمن مجنون.

كانت ميلينا تنتمي لأولئك، الذين لا يحصلون على هدايا عيد الميلاد أو حفلة شواء، الذين يهربون من الجوع والبرد إلى الفراش ويحلمون باحتفالات أعياد الميلاد السالفة. رغم أنه قد ولت أوقات حمل الحقائب في محطات فيينا. فهي الآن لديها وظيفة. تكتب مقالات وتترجم كتبًا إلى التشيكية. وقد تعرفت على آرني لورين، نائب رئيس تحرير مجلة تريبونا في زيارة قصيرة لها إلى موطنها براغ. لقد كان متحمسًا جدًا لتقاريرها

الصحفية من فيينا، لدرجة أنه كان يريد المزيد وسيدفع نقودًا مقابل هذا أيضًا. لم تر والدها، وقد التقت بفرانتس كافكا في أحد مقاهي براغ.

كان مجرد لقاء عابر، فبعده لم يعلق وجهها بذاكرة كافكا، تذكّر فقط هيئتها وفستانها. وقد دُهشت ميلينا، عندما تلقت رسائل من كافكا. بداية من براغ، ثم من ميرانو، حيث كان يُعالج من مرضه الرئوي. فما الذي كان يريده منها؟ كان كافكا يكبرها بأربعة عشر عامًا، ولا تعرف عنه سوى أنه يعمل في مؤسسة تأمين في براغ، وبجانب هذا يكتب بعض القصص. وقد سمعت أيضًا عن خطوبة فاشلة مع امرأة من برلين وإلغاء عرسه مؤخرا مع ابنة خادم كنيس يهودي، كان قد خطبها سابقًا. كذلك أيضًا لم يفت كافكا الأحاديث الفاضحة التي تناقلتها الألسن حول ابنة أستاذ الجامعة. وهذا ما جعله ينفر تحديدًا.

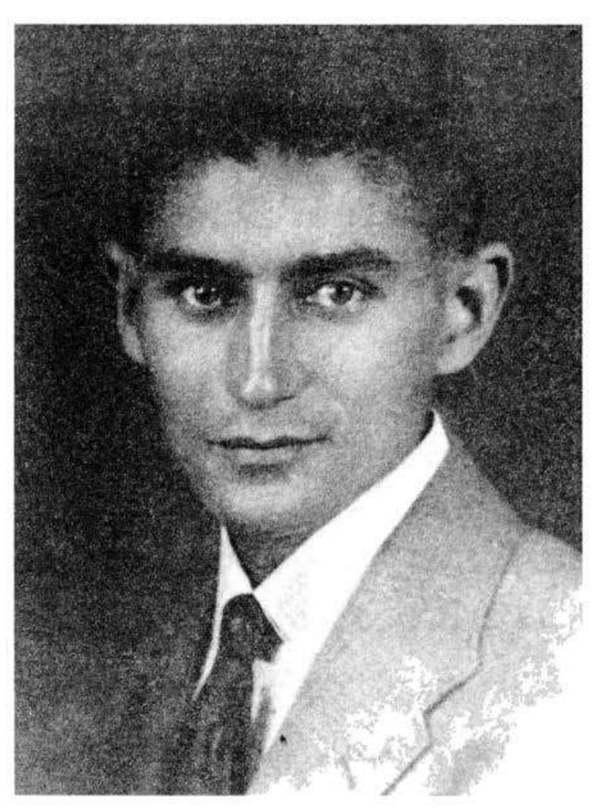
لم تجب ميلينا على أسئلته حول صحتها، وعَدَّت هذا لفتة مهذبة فقط وغير مُلزمة. رغم أن هذا الرجل، طويل القامة، الممشوق، الذي كان في براغ خجولًا ومتحفظًا، ظل صلب الرأي. وفي رسالته لها مجددًا، اقترح عليها، الاستجمام بعيدًا عن فيينا، تلك «الموقد المحمي أكثر من اللازم».، أو ربما تذهب حتى إلى ميرانو. على ما يبدو كان لدى كافكا تصورًا خاطئًا عن حياتها. فبينما كان يقضي عدة أيام مستلقيا في شرفة الفندق عاريًا معظم الوقت، كانت هي تجلس متدثرة في ملابسها؛ منكبة، تكتب على الطاولة. كان ينبغي عليها العمل لكسب المال. لم تكن ترتاح أو تستجم حتى في العطلات، ورغم ذلك فقد شعرت، أن هذا الشخص الغريب على ما يبدو أراد أن يحمل جزءًا من معاناة حياتها وهمومها، دون أن يريد منها شيئًا في المقابل. وهذا ما لم تكن معتادة عليه. بيد أن ذلك الأمر قد طاب لها.

أجابت ميلينا، فصارحته أنها لا تمتلك المال، وتتغذى في بعض الأيام فقط على كوب شاي وتفاحة، إلى جانب أنها مريضة أيضًا بالالتهاب الرئوي. انتبه كافكا مع كلمة الرئة، فقبل سنوات كان يعاني ذات ليلة من نزيف رئوي. واكتشف الأطباء حينها إصابته بالدرن، وبسبب هذا المرض أنهى علاقته مع خطيبته فيليس باور. لكن تلك كانت مجرد ذريعة. فكافكا اعتقد أن هذا المرض هو في الحقيقة عاقبة لقصة الحب المؤسفة تلك. فقد أراد أن يتزوج، وينعم بحياة طبيعية، لكن هذا لم يحدث. كانت هناك رسائل لا حصر لها تغدو وتعود بين براغ وبرلين، بينما هو كان دائم الخوف من مجيء يوم ترد فيه كلمة «غريب» بإحدى رسائل فيليس. إنه غريب عنها. غريب ومثير للاشمئزاز؛ مثل الصرصور، الذي تحول إليه البائع المتجول جريجور سامسا في واحدة من قصصه. أرسل كافكا الكتاب إلى فيليس، التي قرأته على مضض ووجدته غريبًا ومبهمًا بشكل عجيب. غريبًا كنظام غذائه النباتي، غريبًا كانعدام طموحه المهني، غريبًا كخوفه من التقارب الجسدي، غريبًا ككتابته الليلية.

لم تعجب قصصه ميلينا وحسب، بل قامت أيضًا بترجمتها، وكتابتها بنفسها. فضلا عن أن كافكا قد أعجب كثيرًا، بتمردها الصريح على والدها، بينما هو لم يزل يعيش مع والديه، فقط تجرأ على كتابة رسالة إلى والده، الذي كان يصفه أنه «ابنه السيئ». كانت أعظم رغباته ومنتهى آماله، أن يعيش حياته المستقلة الخاصة، التي يقررها بذاته، وأن يغادر براغ «الأم الصغيرة ذات المخالب». كان لدى ميلينا الشجاعة الكافية للقيام بذلك. لقد تشجعت لفعل كل شيء، فشل هو في القيام به. فهي كانت قد تزوجت. وتركت موطنها وسافرت نحو الخارج.

أصبح لدى ميلينا في تلك الغربة خبرات كثيرة، سيئة أكثر من كونها جيدة. فقد انكسرت نفسها واُستغِلت. والآن تتلقي رسائل مليئة بالدفء، من شخص غريب، اقتربت منه لتوها، عندما كتب: «وما الذي سوف تفعلينه الآن؟ على الأرجح لا شيء، إن رعاكِ أحدهم قليلا. لكن ينبغي على الجميع رعايتك، بل يجب على الجميع أن يعتنوا بك، حينئذ يسكن كل شيء آخر. هكذا أيضًا يكون في هذا خلاص هنا؟ أقول: نعم، لا أقصد المزاح، فأنا لست خفيف الظل مطلقًا، ولم أكن كذلك سابقًا، حتى إن لم تكتبي لي، حاولي أن تجعلي أسلوب حياتك جديدًا وصحيًا».

بقيت رسائل كافكا لميلينا. وعلى العكس فقد فُقدت رسائلها إليه. ويمكننا فقط بشكل غير مباشر من خلال إجابات كافكا استنتاج ما كانت تكتبه ميلينا. أحس كافكا أن رسائلها «كالعاصفة»، تهب في غرفته الموجودة في ميرانو. ويبدو أن ميلينا لم تبقِ منها شيئًا، الالتماس ببطء في البداية واللطف البسيط في تبادل الأفكار. أرادت معرفة، من هو ذلك الشخص الذي يختبئ في ميرانو خلف تلك السطور. وقد أظهرت نفسها بصراحة، أرعبت كافكا، وجذبته في الوقت نفسه. فأثناء مراسلاته مع خطيبته الأولى فيليس باور، كان يقدم نفسه لها بتردد كبير، وكانا أغلب الوقت لا يتفاهمان. واستطاع مع خطيبته الحالية يولي فوريتسك الضحك كثيرًا، ولكن لا شيء أكثر من ذلك.



فرانتس كافكا

مصدر الصورة: Archiv Klaus Wagenbach

كان الأمر مختلفا تمامًا مع ميلينا. فقد كانت «عاقلة بشكل مخيف»، وتتحلى بصدق وصراحة أبهرته وأقلقته. أسئلتها الصريحة، عما إذا كانت لديه حبيبة، أخرسته تقريبًا. فمدح «شبابها»، «نضارتها» و«جرأتها»، وأعجب بـ»طاقتها المانحة للحياة». وفي الوقت نفسه تهيَّب حدة طبعها من رسائلها، التي تبدأ غالبًا بعدد من النداءات العاطفية.

لم تسمح ميلينا له بالانسحاب، عند شعوره أنه قد جُرح أو أُسيئ

فهمه. كانت تطالبه، أن يكون مخلصًا، وترفض اتهامه لنفسه بنقص روح الدعابة أو البلادة، إن لم تستطع الضحك على مزاحه أو إن لم تفهم بعض تصريحاته مباشرة. أزعجها أيضًا، أن كل كلمة من كلماته كانت «مدروسة جيدا». وعلى النقيض كانت رسائلها تلقائية وحالتها النفسية، على ما يبدو، تتغير من رسالة لأخرى. مرة تجيء زائدة عن الحاجة وتافهة، ومرة أخرى غير مبالية، وخالية البال، ومعتدلة المزاج، وتشعر أنها متفوقة على أصدقاء زوجها. تغاضى كافكا عن كل تلك التقلبات. فتناقضاتها بالنسبة إليه كانت تنتمي لطاقة ميلينا المنعشة، الطاقة، التي كانت قادرة على أن تسلمها لشيء أو شخص ما، ومن ثم تكتسب طاقات جديدة مرة أخرى. كتب كافكا إلى صديقه ماكس برود يصفها قائلا: «إنها نار حية، لم أرَ مثلها من قبل، حساسة للغاية، وجريئة، وذكيّة، تستحق التضحية بكل شيء من أجلها، من أراد أن يحظى بها ينبغي عليه أن يضحي».

ابتعدت ميلينا في تلك الأثناء عن المقاهي. ونادرًا ما كانت تذهب مع رفقة. كانت تجلس أغلب الوقت في غرفتها في شارع ليرشنفلدر، وتكتب. وقد اتفقت مع إدارة تحرير مجلة تريبونا، أن تسلمهم مقالتين أو ثلاث كل شهر. بالإضافة إلى ذلك أرادت ترجمة المزيد من الكتب، ليس فقط لكافكا، بل أيضًا لألفريد دوبلن، وفرانتس فيرفل، وابتون سينكلير، ورسائل روزا لوكسمبورج من السجن. في مايو 1919 ظهرت ترجمتها لقصة الوقاد لكافكا في الصفحة الأولى لمجلة «كمن» الأدبية الأسبوعية. تأثر كافكا «بصدق الجمل الصغيرة جيئة وذهابًا»، والسلاسة التي ترجمت بها قصته إلى التشيكية. قصد بهذا مدحًا. أحست ميلينا بهذا المدح كأنه مجاملة من أعلى. فالأكيد،

أنها ما زالت مبتدئة ضئيلة، وهو كاتب معروف. لكنها أخذت هذا على محمل الجد، وألا يُطلق عليها «طفلة صغيرة» أيضًا. أسرع كافكا عندئذ في التأكيد لها، أنه يثق بها بشكل غير محدود، كما يستحسن أيضًا حسها اللغوي كثيرًا. لم يفته، أن يشتري من براغ أحدث الإصدارات لمجلة تريبونا التي كانت تنشر مقالاتها، والتي لم يستطع مدحها بما فيه الكفاية. قرأ متلهفًا أيضًا مقالة ميلينا عن الموضة، التي كتبتها صدفة في ضائقة مالية، كانت تستحي منها وأرادت في الحقيقة أن تخفيها عنه. لقد كان «تفكيرها سريع كالبرق»، والشعور بطابع شخصيتها المميز حتى في المواضيع الثانوية، هو ما ترك فيه أثرًا: «إن لديك نظرة ثاقبة»، كتب إليها، بعدما أغفل بالصدفة، وكتب «أنت»، «ليت هذا لم يكن كثيرًا، أن يتجول العامة في الزقاق ويجذب النظر إليه، لكن لديك جرأة تلك النظرة، وقبل كل شيء، الطاقة اللازمة لتجاوز هذه النظرات؛ هذا التجاوز هو الشيء الرئيس وأنت تدركين ذلك».

أطلقت ميلينا على كافكا اسم «فرانك»، كرد فعل عابث على توقيعه الذي تصعب قراءته. ففي البداية كان يوقع على رسائله «فرانتس ك»، علما بأن «ك». كانت بالكاد تُعرَف. أبقت ميلينا على هذا اللقب، لتنفرد من خلاله بخصوصية مع كافكا، يجب أن يكون له اسما خاصًا، لا يُسمح لسواها باستخدامه. اعتادت ميلينا على أن تتلقى الرسائل من «فرانك»، نعم كانت تشتكيه، إن لم تتلق أيَّ رسالة لعدة أيام. ومع ذلك لم تخف عنه، أنها كانت تستاء من بعض رسائله. غاب عنها شيء ما. وبدا أن كافكا أدرك هذا، عندما أقر، أن المرء يستطيع أن يراوغ عبر رسائله كما يريد، لكن «هذا لا يُخرج شيئًا من إطاره».. ما الذي لم يخرج عن الإطار، وما

فوته ميلينا، أصبح واضح فجأة، عندما طرحت سؤالا بعد أسابيع قليلة، خاف منه كافكا في البداية وأصابه في النقطة الأكثر حساسية لديه: «هل تأتي إلى فيينا؟».

هذا السؤال باح بسر، وهو أن كتابة الرسائل لدي ميلينا وكافكا كانت مختلفة تمامًا. فالرسائل كانت بالنسبة إليه مخبأ، ظل محميا فيه من الأذى وخيبة الأمل للقاء الحقيقي. استطاع أن يتخيل بشكل لافت، كيف أن ميلينا كانت معه في ميرانو، واستطاع أن يؤكد بشكل مصدق، كيف أنه شعر بتعلقه بها، لكن وجهه ظل على الرغم من ذلك، كما وجب عليه أن يقر، وجها من ورق، والقبلات ظلت فقط في الرسائل مجرد «قبلات مكتوبة»، لم تصل إلى هدفها، والقرب المتكل عليه كان مجرد وهم في نهاية المطاف. على النقيض كانت الرسائل إلى ميلينا دائمًا مجرد مرحلة تمهيدية للحياة. «لا نتوقع من الرسائل أيَّ مهارات»، كتبت في مقالة لها، «نتوقع من الرسائل فقط الإنسانية».. كانت معجزة لها، إمكانية وصول شخص إلى آخر، والتأثير فيه بواسطة كلمات مكتوبة. ولكن ليتها وافقت على الرأي، بأن الرسائل يمكنها أن تكون بديلًا عن الحياة المعاشة. ووفقا لذلك أجابت بشكل حازم أيضًا، عندما لاحظت، أن كافكا يفضل أن تستمر علاقته بها في شكل رسائل حب. هكذا كتبت إليه؛ «الحياة لساعتين، أجدى من كتابة صفحتين».. عندئذ أجاب كافكا أيضًا بصدق، إن هذا حقيقي بالفعل؛ «الكتابة أفقر، لكنها أوضح».

كلما طالبته ميلينا بشكل ملح بالقدوم إلى فينا، كلما زاد خوفه من طفرة عالم الكلمات الذي يمكن السيطرة عليه إلى الحقيقة غير

المحتملة. ما نوع العواقب التي لا يمكن التنبؤ بها، إن أخذ هذا على محمل الجد؟ ما نوع المصائب التي سوف يسببها؟ أخبر ميلينا بالتفصيل عن حالة وفاة مأساوية، وقعت في براغ، فالظاهر، لأنه رأي فيها إشارة منذرة للمصير في حالته الخاصة. يارميلا، صديقة ميلينا، التي تزوجت من يوزف راينر المحرر الشاب في مجلة تريبونا، بدأت في علاقة حب مع فيلي هاس، وعندئذ انتحر الزوج اليائس. فهل خاف كافكا فعلا، من أن يقوم إرنست بولاك بردة فعل مشابهة؟ ألهذا كان يبعث رسائله لميلينا تحت الاسم المستعار «كرامر». إلى عنوان صندوق بريد في شارع بيننو في فيينا؟ أم كان هذا إجراءً وقائيا لميلينا، التي لم ترد أن تصبح تلك الرسائل في قبضة رجلها؟

عرف بولاك أن ميلينا كانت على اتصال بكافكا، ومن ثم ارتفعت في نظره. ولم يكن هذا سبب الغيرة المتزايدة. فقد كان يوجد رجال آخرون في فيينا، يصدر عنهم خطر أكبر. فقد أُغرِمَ فرانتس فيرفل بميلينا، لكنها صدته. وكان بولاك ليقبل بلا شك غرامياتها الصغيرة، إلا أنه تمسك بنموذج الزواج المخلص. فلماذا لم يكن ينبغي عليها أن تراسل كافكا أو تقابله؟

أنا آت، لن أجيء. استمر الأمر على هذا النحو لعدة أسابيع، قبل أن يقوى على حزم أمتعته ويستقل القطار إلى فيينا. وفي يوم الثلاثاء، 29 يونيو 1919 وصل إلى هناك واتخذ لنفسه غرفة في فندق رخيص يدعى ريفا عند المحطة الجنوبية. وقد آن الأوان فقط في اليوم التالي لمقابلة ميلينا أمام الفندق. أرته ميلينا شقتها في شارع ليرشنفلدر، وقد تعرف على باني كوهلر، وزارا أماكن، لم يكن يعرفها حتى تلك اللحظة سوى من خلال

رسائلها فقط. وما شهدته ميلينا مع كافكا في ذلك اليوم، وصفته بعدها لماكس برود. فعندما ترك كافكا تلجرافًا في البريد، ظن أنه أخذ أكثر من بقية النقود بعملة واحدة وارجع هذه العملة للسيدة الواقفة في الشباك. بعدها بوقت قصير تأكد، أنه قد اخطأ في الحساب، وأراد أن يسترد العملة من الشباك المزدحم. «فلتتركها إذن»، قالت ميلينا لكافكا، الذي لم يستطع إدراك، كيف يمكن للمرء تجاهل مشكلة كتلك بكل سهولة. موقف مشابه كان مع متسولة، أعطاها كافكا عملة مزدوجة وأراد أن يستعيد عملة منها. ولكن المتسولة لم يكن معها فكة، وقد استعصى عليه الأمر تمامًا أن يتنازل لها عن العملة الثانية أيضًا.

ما الذي فكرت فيه ميلينا، التي تحب الشخص الكريم، كمرافقة لكافكا؟ هل اعتبرت كافكا شخصًا فظًا، مهووسًا، ضيق الأفق، بخيل بشكل مَرَضي أو حتى مجنون؟ لا. فهي أدركت أنه شخص ذو يقظة أخلاقية شديدة الحساسة، لدرجة أنه لم يستطع تناول الأمور اليومية كشيء بديهي. فبالنسبة إليه لم يكن هناك أيَّ روتين، أو عادات، أو مبادئ ثابتة، تسهل له الحياة أو تحميه منها. لقد سلم بالواقع غير المحمي وهذا جعله خائفًا. كتبت ميلينا إلى ماكس برود: «الأمر الأكيد، أن الذي يبدو لنا كلنا؛ أننا قادرون على الحياة، وذلك لأننا نهرب في أيِّ وقت إلى الكذب، والضلالات، والاندفاع، والتفاؤل، والتشاؤم، والقناعة أو أيِّ شيء آخر. ولكنه لم يهرب إلى أيِّ ملجأ واقٍ. إنه غير قادر على الإطلاق على الكذب، كذلك هو غير قادر على السكر. ليس لديه أيَّ ملاذ، دون مأوى. لذلك كل شيء لديه به عيب، ممن نحتمي فيه. إنه كشخص عاري بين من يرتدون ملابسهم».

ظهرت ميلينا كالمنقذة المأمولة بالنسبة إلى كافكا. فهمت مخاوفه،

وأكثر من ذلك، أنها استطاعت تهدئته. استعملت في ذلك وصفة، تعلمتها من والدها. في اليوم الرابع، كان عيد ميلاد كافكا، فاصطحبته إلى بوابات فيينا، نحو الغابة، وذهبت معه في رحلة طويلة. تمشيا النهار بأكمله تحت أشعة الشمس الساطعة. كان كافكا سعيدًا ولم يحس بشيء من مرضه. وعندما كان خوفه يتسلل إليه بقوة، لم يكن يحتاج سوى إلى النظر في عيني ميلينا فيختفي ذلك الخوف بالفعل مرة أخرى. كم كانت ثقته كبيرة بها، لدرجة أنه استطاع حتى أن يحكي لها عن مخاوفه مع النساء، عما سمته ميلينا باحتقار «نصف ساعة في الفراش». فكيف استطاعت التعامل مع حالته المعطوبة تلك، برهنت، على أنهما عندما كانا مستلقيان إلى جانب بعضهما بعضا في الغابة أزاحت ميلينا قميصها قليلًا، كي يستطيع أن يضع رأسه على صدرها العاري. فكان ذلك بالنسبة لكافكا أسعد لحظات حياته. فلقد أسلم ذاته إلى امرأة ولم يُجرح أو يُخدع. لم تتفهّم ميلينا خوفه فحسب، بل أوضحت له، أنه يمكنه التغلب عليه، أنه لا يجب أن يستمر. كانت الحياة ممكنة مرة أخرى؛ لكن مع ميلينا فقط.

ووجودهما في غابة فيينا كان بالنسبة لكافكا كعرس سري. فبعد تلك المعجزة أصبحت لديه قناعة لا تقبل الجدل، أنه لميلينا، وميلينا له. فإن شعرت بالمثل، إذا وجب عليها ترك فيينا وزوجها والذهاب إليه في براغ. كم كان الأمر مهمًا له، وقد تجلى، عندما عاد إلى براغ. فلقد أنهى علاقته مع خطيبته يولي فوريتسك نهائيًا، والتي كتبت بناءً على ذلك رسالة يائسة لميلينا. لم تستطع فهم، لماذا تصبح سيدة متزوجة، قضى كافكا معها عدة أيام قليلة في فيينا، فجأة، هي حب حياته.

علي ما يبدو فقد انتظر كافكا أن تأخذ ميلينا الخطوة ذاتها وتنفصل عن

إرنست بولاك. فقد استخف بالطاقات، التي تربط هذين الزوجين معًا. وقد شعرت ميلينا أنها خانت زوجها. فعلى الأقل قد حررها بولاك من والدها وعاشا الكثير سويًا. فحكت له عن كل شيء، وجعلته يقرأ رسائل كافكا أيضًا. أدرك بولاك فجأة، أن الأمر يتعلق هنا أكثر بكثير من مجرد مغازلة بريئة. فهو، زير النساء الأناني، اعتاد دائمًا على التقدير، خاصة من زوجته. وكونها تلتفت إلى رجل آخر، يمتدح إبداعه، فقد أعياه ذلك. بدأ بولاك يتصارع مع ميلينا، ليس بالكلمات فقط. فهناك تلميحا في رسائل كافكا، على أنه كانت تحدث مشاجرات حادة في شقة بولاك في فيينا، وعلى الأرجح كان العنف والكوكايين له يد فيها.

وقفت ميلينا بين رجلين. وأصبح الأمر معقدًا. تلقت رسالة من والدها، هي الأولى منذ ثلاث سنوات. كانت ميلينا أيَّ شيء آخر سوي أن تكون سعيدة. فقد أوضح يان يسنسكي في صفتيه المعروفتين منذ القدم، كلماته الودِّية والاستبدادية. كتب أنه يتألم من أجل كل شيء، وأنه «حزين بشكل مروع». فتحديها له كان شيء غير مفهوم دائمًا، لكن وجب عليها أن تفهم، أن زواجها قد فشل. «وبطبيعة الحال» كان مستعدًا للمساعدة، لكن شريطة أن تتطلق من بولاك وتعود إلى براغ. أما زال والدها يعتقد، أنه يستطيع أن يقرر عنها؟ ألم يمكنه إدراك، أن عليها أن تعيش حياتها وأن المصالحة كانت ممكنة فقط، إن عاملها أخيرًا كشخص مكافئ!

والآن يعيق حياة ميلينا ثلاث رجال. كان الموقف مضطربًا. عليها أن تترك براغ، لأنها تزوجت يهوديًا. والآن ينبغي عليها ترك هذا اليهودي، كي تعيش مع يهودي آخر، تحديدًا كافكا، في براغ، تحت عين والدها، الذي يكره اليهود. تبدو هذه فكرة غير مريحة! فليت ميلينا كانت تستطيع تحمل

غضب وازدراء والداها بعد. والسؤال المهم والحاسم كان، عما إذا كانت هي نفسها تستطيع العيش مع كافكا فعلًا.

بين براغ وفيينا جاءت وذهبت رسائل وتلجرافات. غالبًا أكثر من مرة في اليوم الواحد. وقد عرفت ميلينا من ماكس برود، كيف تدهورت صحة كافكا فعلًا. وعرفت، أنها الوحيدة القادرة على مساعدته، وإنه من دون مساعدتها يمكن أن يصبح مرضه مميتًا. فهل شعرت مجددًا أنها دُفعت إلى دور المنقذة مرة أخرى، مثل تلك الأيام الخوالي، عندما كانت فتاة ووجب عليها الاعتناء بوالدتها المريضة؟ فقد أسست في فيينا حياة مستقلة بشق الأنفس. وأن تتخلى عن هذه الحياة لكي تذهب إلى براغ، لن تستطع فعل ذلك. وأيضًا لم تطاوعها نفسها، أن تأخذ من كافكا أمله في مستقبل مشترك. فهل كانت هي نفسها تؤمن بهذا؟

رقدت ميلينا في الفراش يائسة ولم تعرف بعد، كيف يمكنها أن تواصل. وقد طلبت من كافكا بإلحاح، أن يأتي إلى فيينا. وعليها أن تتحدث معه. ليس بواسطة الرسائل، بل وجها لوجه. وعدها كافكا، أن يسافر لها في الحال، طالما أنها في أمس الحاجة لذلك. لكنه لم يأتِ. لم يكن قادرًا على الهرب من رئيسه في العمل بكذبة، كي يمنحه عطلة. خاب أمل ميلينا كثيرًا وكانت حائرة، لدرجة أنها سقطت «سقوطًا غبيًا»، وسممت نفسها. وكانت صديقتها باني كوهلر، هي من وجدتها فاقدة للوعي في الشقة وأطعمتها لوقت طويل الكبة البوهيمية، حتى استطاعت ميلينا أن تتقيأ في النهاية. وبعدها قالت ساخرة، إن خوفها من كبة باني، هو ما منعها دائمًا، من أن تسمم نفسها مرة أخرى.

سحر اللقاء الفييني، وتأثير قرب ميلينا الجسدي كانا مهددين بالتلاشي. فقد اعتقد كافكا أن ميلينا مازالت متعلقة بزوجها، أكثر مما أرادت الاعتراف به، وأنه يوجد بين الاثنين «رباطًا لا يتمزق». وهنا أخطأ كافكا. فما أبقاها في فيينا لم يكن حبها لبولاك. فقد تحطم زواجهما منذ وقت طويل. لكن ما كان كافكا لديه الحق فيه فعلًا، هو عندما قال إنه لن يتصارع مع بولاك على ميلينا، بل إن الصراع يحدث داخل ميلينا. ولكن ربما، كما رجا الاثنان، أن يخمد كل سوء الفهم والشك الذي نما في الرسائل، عندما يلتقيا مجددًا. لعلهما يستعيدا أمان أيام فيينا.

كانت فكرة كافكا، أن يلتقيا في جموند، مكان على الحدود بين براغ وفيينا. استطاع أن يصل إلى هناك في نهاية الأسبوع، دون أن يتوجب عليه الكذب على رئيسه. وفي الرابع عشر من أغسطس وصل الاثنان إلى جموند في وقت متأخر بعد الظهر. استطاعا أن يبقيا معا حتى بعد ظهر اليوم التالي. وقد اتخذا غرفًا مختلفة في الفندق نفسه، تنزها، استلقيا على العشب، تحدثا، وأنصتا لبعضهما بعضا. فاللحظات السعيدة في القرب الكامل الذي لا يعرف الخوف، والتجاوب العقلي والجسدي «لم يعودا موجودين». فهناك شيء مَا فُقد. أصبحا غريبين.

حاولت ميلينا وكافكا في الأسابيع التالية أن يتحريا عن هذا الخلل وأن يتغلبا عليه. كافكا من خلال الرسائل. غلفته ميلينا بقصة حياتها. تمنت أن يزور قبر أخيها المتوفي منذ وقت طويل، أن يقوم بالتسوق من أجلها في براغ، وأن يتحدث مع ستاشا ويارميلا. أطاع كافكا أوامرها عن طيب خاطر. وأخيرًا التقى بمساعدة يسنسكي. كان ينبغي عليها أن تنقل لرئيسها صورة واقعية عن حياة ابنته وأن تؤثر فيه، كي يدفع لميلينا على

الأقل ثمن الغداء بصفة دورية. كانت ميلينا غير راضية تمامًا عن وساطة كافكا وكتبت له رسالة غاضبة. فلقد خافت، من الوقوف أمام والدها لتستعطفه.

كانت كل تلك مجرد محاولات عاجزة لمداواة شيء، انكسر منذ وقت طويل وصار غير قابل للشفاء. شعر كافكا بارتياب ميلينا واعتبره في النهاية أنه لا يمكن تخطيه. كان موقناً، أنه وميلينا لن يعيشا معاً أبدًا. وكالعادة، عندما يصبح الأمر ميئوسًا منه، ينسحب ببطء إلى كتابته. وطلب من ميلينا، ألا تعاود كتابة الرسائل له، لأن تلك الرسائل أصبحت بالنسبة له الآن مصدر كل التعاسة.

اعترفت ميلينا من ناحيتها أن مقاوماتها الداخلية ضد وجود علاقة تربطها بكافكا كانت أقوى من القوة التي تستهويها نحوه، أقوى أيضًا من الرغبة في مساعدته. فضلا عن أنها لم ترد أن تقحم نفسها في دور المرأة، التي يجب عليها أن تقرر الاختيار بين رجلين. فالأمر في النهاية يدور حولها. لماذا لا ينبغي أن يكون لديها بدائل أخرى؟ فكتبت بالفعل إلى كافكا في يونيو 1920: «أفضل الهرب إلى طريق ثالث، لا يقود إليك أو إليه، فقط نحو أيِّ مكان في الحياة الاستقلالية».

لماذا لم يستطع كافكا وميلينا أن يتزوجا؟ كتبت ماري هوكاداي في كتابها عن الحب بينهما، أن ميلينا لم تكن فقط ندة ملائمة لكافكا ذهنيًا، بل أيضًا وجوديًا. فقد أدرك كافكا في ميلينا المزاج نفسه، عندما شهد لها، أن نظرتها تتجول عبر الأسطح، في العمق، وهناك، حيث تسود القوى، التي تقرر حياتنا. هناك يكمن الخوف، الذي ملأ كافكا كثيرًا. وبخلاف الفزع، فلم يتجه الخوف نحو شيء محدد، بل هو غير

محدود وغامض. وبالنسبة إلى الفيلسوف مارتين هايدجر ندرك العالم الموحش، وتدهوره، وتعسفه عبر الخوف. فهو يظهر في الذاكرة، وهو في حقيقة الأمر شيء فاحش، إن العالم موجود ونحن موجودون. والشيء المعتاد أصبح مفزعًا. «مم يخاف الخوف؟»، يقول هايدجر: «من البقاء في العالم نفسه». ففي الخوف تسقط عنا كل ثقاتنا. والحياة تصبح مثل طبقة جليد رقيقة، يمكننا كسره كل لحظة.

كان الخوف بالنسبة لكافكا هو الإحساس المؤكد بالحياة. وقد جعله قادرا على أن يبدو أكثر عنفًا واتقانًا كبقية الأشخاص، وقد حماه هذا الاستبصار من تجنب الحقيقة والهرب من الثقات الخاطئة، لكن من ناحية أخرى جعله الخوف شخصًا مراقبًا، متفرجًا. وقد امتص خوفه مقدرته على اتخاذ القرارات الفعلية الواضحة. ولم يسمح له، بالتخلي عن حياته، حيث كل كلمة، أو فعل ما يمكن أن يكون لهم عواقب لا يمكن التنبؤ بها. وقد أدى إلى أنه لم يعرف كيف يبدأ «بهدية النسب»، لأن هذه المنطقة ظلت مليئة بالخوف لديه. لقد كان، كما كتبت ميلينا، إنسانًا، ليس لديه «أي معرفة» عن الرغبة. فالجنس بالنسبة له كان يعني دائمًا الرجس فقط. عرفت ميلينا أيضًا هذا الخوف. وقد عدته شيئًا جيدًا وقويمًا. إلا أن هذا الخوف لم يكن هو الكلمة الأخيرة بالنسبة لها. وبخلاف كافكا فقد تمتعت بقوى جوهرية أخرى، هدأت بها هذا الخوف، وحدت منه، نعم استطاعت أن تخفيه. وقد اعترضت الحقيقة التي لا يسبر غورها بعض الشيء. وما قد حملته، كما كتبت في رسالة إلى ماكس برود، كان «شيء في اللاوعي، حب عفوي للحياة». كانت ميلينا امرأة حسية حيوية، كما

قالت ذات مرة شبه معتذرة، «أنثى صغيرة شهوانية». قالت ذات مرة لصديق شبه ساخرة، إنها كانت تحديدًا «في الواقع مجرد فلاحة تشيكية» كثيرًا ما تمنت، «أن يكون لدي أطفال كثيرين، وأحلب الأبقار، وأرعى الإوز، ويكون لدي زوجًا، يصفعني بين الحين والآخر»، لكن في حياتها مع إرنست بولاك كانت مسؤولة عن المتطلبات الواقعية للحياة اليومية، فسرقت وكذبت، حين استوجب الأمر ذلك. وفي ارتباطها بكافكا كانت لتقمع جوانب جوهرية في شخصيتها، إن لم يكن عليها إنكارها بالكامل. ولم ترد أن تحتمل هذه التضحية في نهاية المطاف. وأن تصبح منقذة لكافكا، كان الثمن غاليًا بالنسبة إليها. كتبت لماكس برود: «لكنني قد التصقت رجلي بقوة في هذه الأرض هنا بشكل أبدي، ولن أتمكن من ترك زوجي، ربما كنت أكثر بكثير من مجرد أنثى، لكي أحصل على القوة اللازمة، لأخضع لتلك الحياة، التي أعرف عنها أنها سوف تعني الزهد المدقع، مدى الحياة. لكن بداخلي شوقٌ لا يُقهر، شوقٌ سريعٌ جدًا لحياة مختلفة تمامًا، عن التي أعيشها حاليًا، والتي سوف أعيشها مستقبلًا، حياة مع طفل، حياة، قريبة جدًا من الأرض».

في لقائها بكافكا اختبرت ميلينا الكثير. فقد عرفت الآن، أن طريقها كان مختلًا، طريق، يقودها إلى حياة خطرة. فيلي هاس، الذي ذهب مع يارميلا إلى برلين بعد دراما الغيرة المميتة في براغ، قال مستعيدًا الماضي، إنه لم يلتقِ طوال حياته بشخص واحد، خُلق ليعيش حياة محفوفة بالمخاطر ومأساوية، سوى امرأة واحدة، فتاة اسمها ميلينا».

هنا وهناك

«شخوص السيناريو فحسب، هم مَن يمكنهم اصطناع بسمات واضحة»

بدا أن الزوجين الشابين الموجودين على الرصيف قد تشاجرا. انصرفت الفتاة غاضبة ومستاءة، كأنها، قد خاب أملها نهائيا. مجروحة، وتريد أن تغادر إلى الأبد. إلا أنها استدارت بعد بضع خطوات، واتجهت ببطء ناحية الرجل مرة أخرى ولمست بحذر كوعه بيديها مرارًا وتكرارًا. لم يلتفت إليها الرجل وبدا أنه يستمتع بنصره.

تابعت ميلينا هذا المشهد عبر نافذة الترام المار بالشارع. فهي تحتفظ بتلك المشاهدات في ذاكرتها وتدونها في شقتها الموجودة في شارع ليرشنفلدر. فهي تؤمن أن مفتاح الحياة بأكملها يكمن في تلك الوقائع الصغيرة، بالمشاعر والتبعيات، التي توجد بين البشر، والتي تصبح ملحوظة بسرعة البرق، لكن ميلينا لم تكن مراقبة غير مبالية. فهي تضع نفسها مكان الفتاة الشابة، وتصف، ما دار في ذهنها عند رؤيتها للزوجين الشابين: «اعتقدت أن التحرر الوحيد من مثل هذا الموقف كان عبر لكمة بقبضة يديها الصغيرة، في منتصف وجهه، ذلك إن كان يوجد عمومًا تحرر من الإهانات الصغيرة الخاصة بالتبعية. لكنني أعرف، أنها لم تفعلها أبدًا، ولن تكون قادرة على القيام بهذا. والراجح أنها ستعود إلى المنزل وتزداد المهانة بشكل لا نهائي».

بالتأكيد كانت ميلينا قادرة على أن تضرب زوجها في وجهه. لكنها كم من المرات كان عليها تحمل الإهانات الصغيرة في زواجها؟ وكم مرة عادت إليه بالرغم من ذلك؟ وأثناء ذلك كانت بعيدة عن رؤية نفسها كضحية. فقد أدركت، ما تورطت به، عندما تزوجت بإرنست بولاك، وكانت مستعدة، لتحمل العواقب. فإن أرادت أن تلوم أحد، فلن يكون هو، بل نفسها. وهذا الذنب لم ترد أبدًا أن تستبعده عن السيكولوجية، التي تغفر عمل شخص ما ذات دوافع لا شعورية أو مرحلة طفولة صعبة. ويقينها أننا نحن أيضًا مسئولون عن الأمور، التي ليست في متناول أيدينا.

شعرت ميلينا بالمسئولية أيضًا تجاه حبها الفاشل لفرانتس كافكا. ولم تتبرأ من فكرة، أنها قد فعلت شيء ما خاطئ. فضلا عن أنها كانت تذهب كل يوم إلى مكتب البريد الموجود في شارع بينّو، حيث لم تعد هناك أيَّ خطابات تنتظرها بعد. تلقت فقط في يناير من عام 1921 خبرًا عن كافكا. كان قد ورد من ماتلياري، وهو مكان ناءٍ في سلسلة جبال الكاربات، إلى حيث قد هرب «لوقت من الزمن» طال أم قصر. ولقد رجا ميلينا بإلحاح، ألا تعود تكتب له بعد وأن تتجنب كل «تأثر» في المستقبل. وهذا الطلب قوّى لديها تأنيب الضمير ولجأت إلى إرسال رسائل بائسة إلى ماكس برود، صديق كافكا. «إفهم من فضلك، ماذا أريد». كتبت إليه: «إنني أعلم، من هو فرانك؛ أعلم، ماذا يحدث، ولا أعلم، ماذا يحدث، لقد بلغت حد الجنون، ولقد بذلت الجهد، كي أتصرف بشكل سوي، وأعيش، وأفكر، وأشعر، بمقتضى الضمير، ولكن يوجد ذنب في مكان ما. وهذا ما أريد معرفته. (...) فأنا أركض عبر الأزقة، أجلس معظم الليالي أمام النافذة، وأحيانًا تساورني الأفكار

كالشرارات الصغيرة المتطايرة عند شحذ السكاكين، وإن قلبي معلق كطعم في صنارة، متصل بخطاف صغير للغاية، وهكذا يتمزق قلبي، بهذا الألم الدقيق والرهيب للغاية».

لم يعاتبها كافكا. المذنب بالنسبة إليها على أكثر تقدير كان كلاهما، لأنهما كتبا رسائل لا تُعد وأشعلا خلالها الآمال، التي لم تكن تمت للواقع بصلة.

لدى كافكا عموما ملكة كتابة الخطابات، سحر شرير، يَخدع المرء خلاله أو يُخدَع به. وقد كان يؤمن، بأنه لا يوجد خصم حقيقي عبر الاختراعات الحديثة كالتلجراف والتليفون «أشباح» هذا العالم، حيث تجري اللقاءات في غرفة شاغرة، فتكبر فقط ويحدث إنهيار مروع للأنفس». لم يستطع كافكا فهم، أنه سيمكن أن توجد شبكة اتصالات عالمية ذات يوم، يرتبط فيها البشر سويا بقدر يفوق التصور في مملكة الأرواح، مكدسة بالبيانات والاتصالات.

ما ذكره كافكا عن سحر الرسائل الشرير، كان خطرًا بالنسبة لميلينا، خطرًا يكمن في التعايش اليومي بين الرجل والمرأة، ذلك إن، ضخّم المرء المطالب لنفسه وقدمها للآخرين. فقد رأت في دائرة معارفها كثير من الزيجات، التي فشلت بالفعل بعد وقت قصير، أو إن لم يتم الانفصال، فانه يخلّف ورائه كومة من المشاكل لا يمكن إيقافها ويتجه بهذه الزيجة إلى فاجعة. والسبب الرئيس في ذلك كان بالنسبة لميلينا هو أن الرجال ومثلهم النساء لا يأملون من الزواج شيئًا أقل من السعادة العظيمة. والنتيجة، أنهم يقطعون عهودًا، لا يستطيعون الالتزام بها، ويتوقعون أمورًا من الشريك، لن يستطيع تحقيقها أبدًا.

كتبت ميلينا في مقالة لها عن الزواج والسعادة في بداية عام 1923: «كل تلك الكلمات الكبيرة الرائعة هي مجرد ذريعة، بينما تظهر المصاعب عند أول موقف حقيقي، حيث ينبغي على المرء التصرف باحترام. لكن لم لا يتعهد البشر بعضهم بعضًا، بأنهم لن يصيروا أبدًا فاسدين، وأن يحضروا معهم باقة من زهور البنفسج، أو قلم رصاص جديد، أو كيس زبيب؟ لماذا لا يتعهدون، أن يظهروا مغتسلين عند الفطور، تفوح منهم رائحة الصابون، منتعشين ومرتدين ملابسهم بعناية، طوال الأيام بعد الزفاف، كما كان الوضع في الأيام التي تسبقه؟ لماذا لا يتعهدون بأنهم يفضلون ضرب أنفسهم، بدلا من أن يلقوا باللوم على بعضهم بأشياء شنيعة، ومبتذلة، وقبيحة، لماذا لا يتعهدون بأن يهتم كل منهم بالآخر وباهتماماته، يحبوا تاريخ الفنون، أو كرة القدم، أو جمع الفراشات؟ لماذا لا يتعهدون بأن يتركوا لبعضهم بعضا حرية الهدوء، حرية الاعتكاف، حرية الانفعال الطبيعي؟ لماذا لا يتعهدون بتحقيق تلك التفصيلات الصعبة غير المنتهية والتي لا تتحقق أبدًا، بدلا من شيء تافه كالسعادة؟».

كانت تلك أسئلة، وجهتها ميلينا بالطبع إلى نفسها. فلعلها لم تأمل في سعادة كبيرة بزواجها من إرنست بولاك، لكنها أملت في أكثر مما أصبحت عليه. وقد تعلمت خلال ذلك أن تتقبل زوجها، كما كان. ونصدقها بالطبع، عندما قالت، إنها أحبته. وهذا لا يعني أن الإساءات والمهانات التي جرحها بها راغبًا كان أم رافضًا، استطاعت أن تحتملها على المدى الطويل، خصوصًا أن بولاك لم يكن هو الرجل، الذي استطاع أن يجعل خيانته المعروفة أمرًا يمكن احتماله عن طريق اللفتات

الصغيرة التي تدل على الاهتمام وكلمات المحبة بين الحين والآخر. أرادت ميلينا أن تتحرر من سحره وأن تصبح مستقلة، ووجب عليها ذلك. وكخطوة أولى لهذا الغرض كانت تكسب نقودها الخاصة من خلال مقالاتها. أرادت أيضًا أن تؤجر جزءًا من الشقة بشكل صوري، كي تحصل على مصدر آخر للدخل.

كانت الخطوة التالية، أنها تعرفت على رجل آخر، ساعدها على التخلص ببطء من إرنست. كان يدعى فرانتس إكسافر كونت شافجوتش وكان ينحدر من عائلة نبيلة من سيليزيا. كان شافجوتش، الذي يكبر ميلينا بستة أعوام، جنديا شابًا أصيب في بداية الحرب العالمية وتعرض للأسر الروسي. قضى سنوات الحرب في مستشفيات الجيش المتنوعة والمستشفيات العسكرية في روسيا، قبل أن يُخلى سبيله ويعود مرة أخرى إلى وطنه في أبريل من عام 1918. انتسب إلى بعثة بعد نهاية الحرب، كانت تتفاوض على رجوع مصابي الحرب النمساويين والألمان في سانت بطرسبورج وبطريقة غير مباشرة وبعد زواج بائس انتهى به المطاف في فيينا. انتمى إلى مشردي الحرب، أولئك الأشخاص، الذين فقدوا مكانتهم بعد انهيار الإمبراطورية وبحثوا عن وظائف جديدة. كان شافجوتش مشهورًا في المقاهي بلقب «الكونت الأحمر»، لأنه كان متحمسًا للثورة الروسية وصار شيوعيًا ذو عقيدة وإيمان. قالت جينا كاوس، إن شافجوتش كان حبيبها لفترة قصيرة، وأنها بعد فترة مررته إلى ميلينا. لم تذكر ميلينا شيئًا عن هذا فيما بعد. ووفقا لروايتها فإن الكونت قد حمل حقيبتها في محطات فيينا مدفوعا بمُثُله الشيوعية العليا. وأثناء ذلك نشأت بينهما صداقة.

كان شافجوتش بالنسبة لميلينا أنقى استراحة، مختلفًا عن «الأذكياء الوقحين»، الذين كانت تعرفهم بما فيه الكفاية، فقد كان الكونت رجلًا نبيلًا سويًا. أخلاقه ممتازة ويتعامل معها باحترام وإجلال. بالإضافة إلى أن شافجوتش كان يخصص وقتًا لها أكثر من بولاك. فكان يرافقها في استطلاعاتها عبر المدينة، ويذهب معها إلى السينما. أحبت ميلينا السينما وكتبت عنها. أحبت بلا شك الأفلام البسيطة والترفيهية، فهي لم تكن بحاجة إلى أن تأخذها على محمل الجد. وبالطبع كانت تكره تلك الأفلام، التي تدّعي بأنها تصور مغزى الحياة، وتعرض قصص الأشخاص، الذين هم في حقيقة الأمر غير موجودين، إما أنهم طيبون أو شريرون، نبلاء أو فاسدون، مخلصون أو خائنون. فكانت تلك الأفلام بالنسبة لها أفلام «للجبناء»، الذين يحبون أن يُخدَعوا، كي يتمكنوا من تحمل الحياة بشكل أفضل.

ومع ذلك فقد كانت ميلينا تقدِّر أفلام تشارلي تشابلن، لأنه يوجد بها أشخاص حقيقيون. «شخوص السيناريو فحسب، هم مَن يمكنهم اصطناع بسمات واضحة»، كتبتها في مقالة لها. «بينما الأشخاص الحقيقيون يتناقضون مع أنفسهم وغيرهم مئة مرة في اليوم، يعوضون شهامتهم باللؤم، ويدفعون ثمن حقارتهم عبر جمال أرواحهم». كانت ميلينا تمتلك صورًا لتشارلي تشابلن على مكتبها، ولم تعرف أبدًا، إن كان عليها أن تبكي أو تضحك، عندما تتأمل وجهه. فقد أحبت شخصية المتشرد رث الثياب التي كان تشابلن يمثلها، ذلك لأن أصعب المصائب لم تستطع أن تمسه بسوء. عرفت ميلينا الكثير من الناس في فيينا، الذين عانوا من مصائب مرعبة ولم ينكسروا منها. لكن ليس لامتلاكهم الكثير

من القوة، بل لأنهم لم يكن لديهم عمقًا. كانوا ببساطة متماسكين «وألمهم»، كما قالت ميلينا، «لا أعلم، أين ينبغي أن يُطمر. فهو ينزلق ويتلاشى»، ألم بلا عمق لا يُنتج خبرة أو يُثري الحياة.

التقت ميلينا بأشخاص في ضواحي فيينا، عانوا من أشياء مفزعة وكانوا يعيشون في فقر مدقع. وتعجبت، كيف أن هؤلاء الرجال والسيدات يتقبلون مصيرهم ولا يحتجون أو يثورون! قد عرفت من الكونت شافجوتش، أن الأمر يمكن أن يسير في اتجاه مختلف أيضًا. ففي روسيا حمل الضجر العام على الانفجار كما فعل لينين. واُغتيل عائلة القيصر وتسلمت طبقة العمال السلطة. وأصبح شافجوتش في مأزق حرج، عندما يحدث عن الفكر الشيوعي، تحرير المضطهدين، وإقامة المساواة بين الناس، والاستثمار، ومحو الظلم. لم تكن ميلينا شخصًا سياسيًا، ليس بعد. فقد تأثرت بشكل مباشر من المعاناة والظلم، دون أن تفكر كثيرًا في الأسباب والوسائل. وكانت تعطي كل متسول عملة فضية، حتى إن كانت تعرف أيضًا، أن نصفهم يمثل فقط «كوميديا الفقر». «أنا لست سياسية»، كتبت ميلينا. «لا أعلم، ما هو الطريق الأفضل لمساعدة الفقراء. لا أعلم إن كانت ما يطلق عليها الاشتراكية هي الطريق الأفضل، أو الشيوعية، أو الرحمة، أو العمل. أعلم أمرًا واحدًا، إنه طالما يوجد بيننا شخص واحد فقط جائع، فان العالم يظل مكانا سيئا».

انتمت ميلينا نفسها إلى أولئك الأشخاص، الذين كانوا يجوعون أحيانًا، وكان يجب عليهم عمل حساب لكل قرش. فالأجر، الذي كانت تحصل عليه نظير مقالاتها، لم يكن يكفيها. كان والدها يرسل لها المال بشكل منتظم بين الحين والآخر، لكنه أوقف معونته لها، عندما أراد أن

يجبرها على شيءٍ ما. استدانت ميلينا. مُنِعَت من دخول أحد المتاجر، لأنها طلبت ملابس، ولم تدفع ثمنها. ازداد الحال سوءًا، وتدهورت حالتها الصحية، وكان تعاطيها الكوكايين سببًا أيضًا في ذلك. وقد قال الطبيب الذي كانت تذهب إليه، أنها لن تعيش أطول من بضعة شهور مقبلة، إن لم تذهب إلى مكان مؤهل لمعالجتها. لم تكن في استطاعتها دفع مصاريف علاجها. زوجها نفسه كان مديون، وشافجوتش، الذي كان يترجم نصوصًا أدبية وسياسية عن الروسية لصحيفة شيوعية، لم يكن أفضل حالًا منها. لم يبقَ أمامها سوى أن تلجأ إلى والدها. والذي أظهر استعداده لدفع مصاريف إقامتها في مصحة ما بجزيرة سبيتسبرجن في النرويج.

في صيف 1921 سافرت ميلينا إلى غابة بوهيميا المحبوبة حول براغ. آخر مرة ذهبت إلى هناك كانت قبل اندلاع الحرب، إلا أنه لم يتغير شيئًا هناك. الطرق، الأشجار، كل شيء كان مألوفًا. في طريق العودة إلى فيينا في محطة براغ في بداية أكتوبر، كانت قد تماثلت للشفاء. على أيِّ حال كانت صحتها أفضل من كافكا، الذي عاد إلى براغ في نهاية أغسطس، بعد أشهر طويلة في جبال الكاربات، بينما لم تكن حالته قد تحسنت بعد. عندما عرفت ميلينا، أن كافكا موجود في براغ، أرادت اقتناص الفرصة، ومقابلته. فتركت له خبرًا. على الرغم من أن كافكا كان خائفًا من اللقاء، فقد سمح لها بزيارته. وبهذا وطئت ميلينا شقة كافكا في ساحة البلدة القديمة لأول مرة. وجب على والدي كافكا أن يكون الاستقبال مهذبًا، لكنه كان رسميًا. فميلينا لم يكن لديها سمعة طيبة في منزل كافكا. وما يربط بين الحياة المخجلة لابنة أستاذ الجامعة

وبين ابنهما فرانتس، لم ترغب يولي وهيرمان في معرفة هذا بالضبط. تسبب في استنكارهما، عندما طرقت ميلينا باب منزلهم في اليوم التالي مرة أخرى.

لا أحد يعرف، عما تحدث كافكا وميلينا. وهو لم يذكر بالتأكيد أنه كتب وصية مؤخرًا، طلب فيها من صديقه ماكس برود، أن يعدم كل كتاباته بعد موته. على الأرجح حكت ميلينا أنها كانت تكتب للجريدة الوطنية المحترمة نارودني ليستي، لسان حال حركة الاستقلال التشيكية، والتي كان يقرأها الوطنيين المخلصين خاصة مثل يان يسنسكي. ربما تجنب كلاهما، الحديث عن قصة حبهما القصيرة. لكن للوداع فعل كافكا شيئا، لعله أراد من خلاله أن يُظهر ويسلم نفسه بالكامل لميلينا، فليته استطاع شرح ذلك شفهيا، لقد سلمها مذكراته. لم يكن هناك دليلًا أقوى من هذا على ثقته بها. فهو لم يسمح لأحد من قبل بمنحه نظرة عميقة داخل روحه. ومع إقامتها مجددًا في براغ، وبعد زيارتها له مرة أخرى في نهاية نوفمبر، كتب في مذكراته: «م. بعد أربع زيارات، تنطلقين غدًا مبتعدة. أربعة أيام هادئة يتخللها الوجع. طريق طويل من هناك، إنني لست حزينًا على رحيلها، في الواقع لست حزينًا فحسب، لكني حزين حزن أبدي لأجل رحيلها (...) دائمًا م. أو لا م.، لكن الفكرة، نور وسط الظلمة».

في فيينا كان هناك رجلان ينتظران عودة ميلينا بفارغ الصبر. فقد شعر شافجوتش أنه ضائع دونها في المدينة. وبولاك، الذي كان غالبًا ما يواجه واجبات والتزامات الحياة اليومية بطريقة عاجزة. فقد كان يصبح في حيرة من أمره إن لم تلمع له ميلينا حذائه. فضلًا عن كونه مريضًا أغلب

الوقت وقد أتعبه قلبه الضعيف. وكان يستلقي في السرير لأيام متوالية، فكان يجب الاعتناء به. زاد الطين بلة إضراب باني كوهلر صديقة ميلينا. فقد خُطبت لإسكافي، لم يرد أن تظل تعمل في شقة بولاك. فعلى ما يبدو قد حكت له باني كوهلر أشياء عن حياة السيد بولاك الجنسية، وقد خاف من غواية خطيبته. فصارت أمور التدبير المنزلي متعلقة جميعًا بميلينا. لكنها كانت تتسلل في الدقائق الشاغرة إلى غرفتها، لتكتب مقالاتها وتعمل على ترجماتها.

بسبب عملها، كانت تتأرجح دائمًا بين فيينا وبراغ. ورفضت عرض والدها لها بأن تسكن لديه عندما تكون في براغ، واتخذت لها حجرة صغيرة رخيصة الثمن في حي سميتشوف. لم تتوانَ أبدًا، عن المرور على كافكا. كانت آخر مرة في مايو 1922. كان كافكا يتوقع، أنه سرعان ما سوف يصرّح بعدم قدرته على استمراره في العمل وأنه سيتقاعد مبكرًا. كانت ميلينا كالعادة «محبوبة ووقورة»، ومع ذلك كانت ترتبك عند عيادتها للمرضى. عَلِمَ كافكا، أن ميلينا بالنسبة إليه هي فرصته الأخيرة. كان رأي صديقه ألبرت إرنشتاين، أن الحياة قد مدت يدها إليه هو وميلينا. فإن صح هذا، فهو لم يمسك إذن بتلك اليد، واستقر على وضعه ضد الحياة.

ممن بين كل الرجال الذين لعبوا دورًا في حياتها، ظل كافكا بالنسبة لميلينا رفيق الروح. كان شافجونش صديقًا جيدًا. وبولاك عاطفة خامدة. ووالدها العدو الأبدي، الذي ظلت معلقة به رغم ذلك. كانت ميلينا تقّدر وتحب هؤلاء الرجال. فقد كانوا مهمين بالنسبة إليها، كي تتمكن من فهم نفسها كامرأة، وحبيبة، وابنة. في الوقت نفسه وجب عليها الدفاع عن

منطقتها الحرة تجاههم. فهل كان ذلك بمثابة توازن مستحيل؟ وكيف كان ينبغي أن تبدو تلك المنطقة الحرة؟

كم كان هذا الأمر صعبًا، أن تقود مصير حياتها بنفسها كامرأة مستقلة، هذا ما كان على ميلينا أن تتعلمه يومًا بعد يوم، وأن تجعل قراء مقالاتها يتشاركون معها تلك الخبرات. نفثّت عن غضبها، بأن الكثير من السيدات لا يجرؤن، على الذهاب بمفردهن إلى السينمات أو المسارح، وكان يُنظر نحوهن شزرًا، عندما كن يقفن لمدة دقيقتين في الشارع بمفردهن ينتظرن شخصًا ما. بالتأكيد كان ينبغي التغلب على تلك الأحكام المسبقة، غير أن ميلينا في بادئ الأمر كانت ترى هذا طبيعيًا بالقياس إليها، اعتبار الواقع شيئًا ممكنًا، الرجال فيه أكثر حرية واستقلالية من النساء، «فإن خسروا كل شيء، فهم بالكاد لا يخسرون شيئا، ويستطيعون أن يبدؤوا من جديد مرارًا وتكرارًا، حتى عندما يكونون وحيدين، فهم لا ينسحبون، لأن أبواب المجتمع والعمل تظل مفتوحة أمامهم، عالم مختلف تمامًا عن عالم النساء، عالم تلقائي دائمًا، على النقيض يؤدي عمل الرجال إلى حياة مخيبة للآمال وموحشة. بالنسبة إلى امرأة فان محنة الانفصال هي مصيبة كارثية، تضع حياتها بالكامل موضع تساؤل، وعلى النقيض يتعامل الرجل مع الانفصال كحزن عادي. الوحدة بالنسبة للمرأة كارثة، وبالنسبة للرجل ربما تسبب له بعض الإزعاج، لكنها ليست شيئًا مميتًا».

تتعلق عدم المساواة تلك بالمجتمع. فبالنسبة إلى ميلينا لم يكن لديها أدنى شك، في أن السيدات قادرات وعاقلات تمامًا كالرجال. لكن أيضًا لم يكن لديها ريب في أنه توجد اختلافات أساسية بين النساء والرجال،

ولا يستطيع أحد إنكارها أو محوها. فالنساء تحمل وتصبح أمهات، وهذا يحدد تقديرها لذواتها وطريقتها في صنع العالم. أرادت ميلينا أن تثبت تلك الطبيعة لدي السيدات، وكان لديها الاستعداد أيضًا لأن تدافع عن «أرآء الطراز القديم». لم يكن يتوجب على السيدات أن تظل تستحي من إبداء أرآئها، في تدبير المنزل أو تربية الأطفال. فهذا العمل التربوي، ليس شيء تافه أبدًا وقد يكون مهمًا كإدارة شركة أو إلقاء خطابا في البرلمان. كان ينبغي على النساء إدراك أن اختلافهن عن الرجال لا يمثل نقاط ضعف، بل نقاط قوة. «فعبر قلبها، تظل هكذا، فيما خلقها الله، امرأة وأم. ولحسن الحظ أنها لا تريد أن يتغير هذا أيضًا، بعكس كل مطالب الحركة النسائية، ولهذا أهمية اكبر بالنسبة إليها». كانت ميلينا بالنسبة إلى كثير من قارئاتها مثل أعلى للتحرر، حتى إن كانت بعض أرائها محافظة. لم يكن هذا تناقضًا بالنسبة لها. رؤية الحقيقة، كما هي، وتصورها كما يمكن أن تصبح عليه، كل هذا ينتمي لبعضه بعضا. حتى في مقالاتها عن مواضيع الموضة كانت تدعو النساء، إلى التحرر من نموذج الجمال البالي، والثابت، والمستعار، ما كان قمعيًا في نهاية المطاف، وأن ترتدين ثياب بسيطة مريحة لكنها أنيقة، وأن تعتنين بالصحة والنظافة. «صارت الموضة أمرًا هامشيًا»، كتبت ميلينا؛ «فمن تمتلك في الأصل شخصية مثقفة تكون سيدة جميلة».

تميل شخصية المرأة في المقام الأول، إلى أن تكون مستقلة تمامًا، ومستقلة ماليًا على وجه الخصوص. فالأوقات، التي كان فيها الرجل هو «سيد المنزل»، ويكسب المال بمفرده، وهو فقط من يسمح للسيدة أن تكون سعيدة، إن كان هو سعيدًا معها، قد انقضت. وبالنسبة إلى ميلينا

ففي العلاقة الحديثة يتلاقى الاثنان في المستوي نفسه. «إن كان هناك شخص أقل من الآخر»، كما كتبت، «لا يمكن أن تكون هناك قناعة معتدلة في الصداقة»، فاعتماذ المرأة على ذاتها لا يعني بالضرورة، أنه يجب عليها التخلي عن عائلتها وأطفالها. وللجمع بين الاثنين، تطلب الأمر بالنسبة إلى ميلينا «تنظيم جديد للعمل».

ففي النصوص حول وضع المرأة يغلب دائمًا ذلك الحنين القديم إلى حياة مختلفة، كما كتبت لماكس برود، حياة قريبة من الأرض، «حياة مع طفل». وحياة مثل تلك بدت بعيدة المنال في فيينا. وكان غائبًا عنها أيضًا الرجل المناسب. وغالبًا ما كانت تقلِّب ميلينا الأمر في ذهنها، عما إذا كان ممكنًا، أن تترك كل شيء خلفها وتبدأ من جديد كليًا. بدا لها أنه من الممكن. عندما وقفت في نافذة حجرتها، ونظرت أعلى نحو الأسقف قويت الرغبة في داخلها، أن تهرب إلى العالم، إلى هناك، حيث يوجد المجهول على الجانب الآخر من الأفق مبشرًا بالخير. «فهناك يوجد متسع للأساليب الجديدة»، كتبت ميلينا بأسلوب خيالي: «هنا تغلق الباب خلفك وتبدأ هناك من جديد. من الأول بالكامل، كل شيء مختلف [...]، هنا يتداعى كل شيء، لكن هناك يستطيع المرء أن ينجو بنفسه. فهكذا تأملت نفسك ذات مرة، يا قلبي، في ليلة من ليالي نهاية الصيف، في النافذة، فجأة لم تقل شيئًا، فقط بعيدًا، بعيدًا، بعيدًا. تجعل كل شيء صامتًا، تضع نهاية في كل مكان، كل المشاعر معبأة في حقيبة؛ ذات ألوان متعددة ومتداخلة، كُلّ منكمش على الآخر».

حزمت ميلينا حقيبتها بالفعل في صيف 1923. صعدت إلى القطار وسافرت إلى إيطاليا. لم ترَ البندقية بطريقة كافية، تجعلها تتأمل كل

شيء بديع من حولها، القصور الأسطورية، والبحر، والتلفريك، والشمس. نسيت أنها قد انطلقت للبحث عن شيء ما. وقفت مبهورة في بيزا ومملوءة بالحماسة أمام البرج المائل. غير أنها سألت نفسها فجأة إن كانت تستطيع العيش هنا، فانقبض قلبها خوفًا. عند تصورها أنه يجب عليها البقاء هنا، شعرت بأنها مهملة كما لم يحدث من قبل. فجأة ظلت واقفة كأنها متحجرة في أزقة وأروقة بادوفا. في تلك اللحظة اتضح لها، أنها قد خُدعت. وفي التفكير، أن كل شيء سيصبح جيدًا، عندما تسافر من مكان إلى آخر، كان مجرد سخافة. فكانت توجد أمور كثيرة جيدة، كل شيء كان مفيدًا، وتطرب له الأنفس، لكن ما الذي بقي لها مع كل هذا؟ لم ترد بعد أن تتأمل أيَّ معلم سياحي شيق. فالعالم، الذي كانت تبحث عنه، يجب أن يكون شيئًا مختلفًا، مختلفًا عن الوطن، وعن الغربة، شيئًا ثالثا، لعله كان صعب المنال. «عالم» مختلف بعض الشيء عن الواقع بشوارعه، ومنازله، وناسه. فهل وجب عليها البحث عن هذا العالم بنفسها؟ ألم يكن هو الشيء الوحيد، الذي استطاعت ائتمانه، هو؛ «قلبها الصغير»؟

لم تستطع ميلينا انتظار عودتها مرة أخرى إلى المنزل. وأخيرًا وقفت أمام المنزل في شارع ليرشنفلدر. صعدت السلالم، وأسرعت لاهثة إلى غرفتها الحميمة. وما حدث لها قد دوّنته في تقرير غريب للرحلة؛ «أول شيء تفعله أيها القلب؛ أن تتطلع من النافذة. هناك خلف الأسطح، والسماء، والشارع يوجد العالم. الذي يبدو اليوم مجهولًا جدًا، ومبتغى، ومغرٍ كذلك اليوم، الذي رحلت فيه. تقف هنا أمام النافذة، في تجربة أكثر بؤسا، مع استنتاج؛ أن العالم هناك، وحتى إن

كان أكبر بعشر مرات، لا توجد فيه أيَّ بدايات. والطريق إليها لا يؤدي إلى قضبان السكك الحديدية التي ترحل بعيدًا. يوجد فقط طريق واحد لعالم داخلي جديد؛ أن تراقب بشجاعة، كيف ينهار العالم القديم. يجب أن ينهار بالكامل، لدرجة أن كل شيء يصير مبعثرًا ومقفرًا، ويجب عليك أن تحتمل».

تداعى العالم القديم بأسرع مما توقعت. أحبت ميلينا العيش في فينا، لكن على المدى الطويل أصبحت المدينة بالنسبة إليها ذات تحدٍ أقل، وأصبح الناس سطحيون، يفرحون دائمًا بأيِّ مديح. كانت تستطيع العيش في أيِّ مكان بواسطة عملها. ربما في باريس أو برلين؟ الشيء الأهم، وهي قد قامت به، هو أن تصبح مستقلة ماليًا. وهي كانت ناجحة بالفعل في ذلك. كان بعض القراء يرون أنها خبيرة بالشؤون الحياتية، وكانت تتلقى منهم رسائل عديدة. في واحدة من تلك الرسائل أرادت امرأة أن تعرف، كيف ينبغي عليها التعامل حيال زوجها الخائن. ولأن ميلينا قد أصبحت خبيرة هنا؛ فلا ينبغي على النساء أن يرين أنفسهن كضحايا وألا نصف الرجال بالأوغاد. فالرجال، كما تزعم ميلينا «أطفال كبار»، وهم كالتلاميذ الذين يجربون قدراتهم ويريدون أن يبرهنوا شيئًا آخر، إنهم سيظلون دائمًا شباب. في حقيقة الأمر، فالرجال، وكذلك ميلينا، يتظاهرون، كأنهم يفهمون الحياة. أما في الواقع فالرجل بالكاد يفهم نفسه فقط. وإن حدث واحتار بين مرأتين، فلا يجعله هذا الصراع سوى شخصٍ أناني. وقد نصحت ميلينا بعدم فعل أيَّ لفتات مأساوية، أو مشاهد، أو تهديدات. وبدلًا عن ذلك ينبغي على المرأة أن تهتم برجلها، وتنتبه تمامًا إلى إشاراته، وتنصت بعناية إلى ما يقول وطريقة قوله، عندها

ستكتشف، أنه شخص بائس وضعيف، وسوف تجد الكلمات المناسبة، التي ستساعد كلاهما. نصحت ميلينا القارئة بقولها: «عيشي إلى جانبه، لا توجهي إليه الاتهامات، فيما لا يستطيع فعله، بل أخبريه بما يمكنه فعله. [...] نحن لسنا قضاة، ودعينا من فضلك ألا نكون وعاظ. فنحن بشر. وإنه لمن الضروري مساعدة من يخاف».

ترجع هذه النصائح بلا شك إلى تجارب ميلينا مع زوجها. وقد اكتشفت، أن خيانته المعروفة هي مجرد نقاط ضعف؟ رغم أن نقاط الضعف تلك لا يستطيع أن يُقر بها، وقد أصبحت بالنسبة لميلينا شيء لا يُحتمل، حتى إن كانت هي نفسها قد احتملتها سابقًا بصبر وتفهم. وقد عرفت أن سيدة شابة تحمل منه طفلًا. ليس هذا فحسب لكن أيضًا هناك شخص اسمه إرنست فايس، كان زميل بولاك في العمل، اشتكى لإدارة البك، أن بولاك يتسلى بعلاقة غرامية مع زوجته ميا وأنه قد استدرجها إلى تعاطي الكوكايين. انتهى الأمر بشكل درامي. فقد عانت ميا فايس من انهيار عصبي إثر مشاجرة مع زوجها ونُقِلَت إلى مصحة ما. وهناك قفزت من النافذة، ووقعت على مظلة فانكسر مفصل فخذها. وبسبب ذلك ظلت تعرج طوال حياتها..

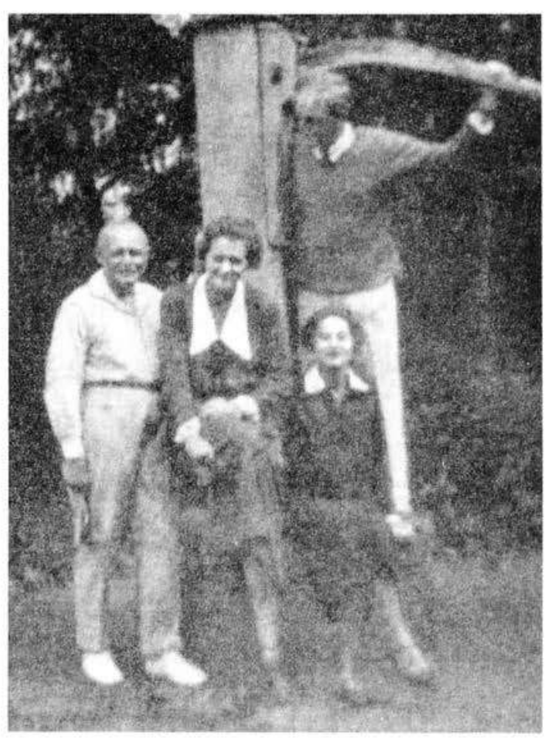
أجهزت تلك الأحداث على البقية الباقية من ميلينا. فاتخذت قرارها بأن تترك زوجها، بلا رجعة، وأن تبتعد عن فيينا تمامًا. ولكي لا تترك بولاك مديونًا بالكامل، أرادت أن تبيع الشقة والأثاث لتسوية ديونه. وفي 20 مارس 1924 كتبت ميلينا إلى كاريل هوخ، رئيس تحرير جريدة نارودني ليستي: «إذًا، أود الانفصال عن زوجي. لقد صرت متعبة للغاية من هذه الحياة، ولا أعتقد أنه سيتغير، ربما حتى

لا أريد البقاء هنا بعد الآن، حتى لو تغير. فمنذ سنوات أصابتني أمور مؤلمة، حتى إن كنت أدرك تمامًا عدم وجود من يستطيع فعل شيء حيال ذلك، وعلى الرغم من أنني قد تعلمت الكثير من هذا بشكل مخيف وإنني قد أصبحت شخصا أكثر نضجا وصلابة، فلن استطيع الاستمرار بسهولة. لكن الفراق هو أمر مرعب أيضًا، نعم هو شيء مُنهك جدًا، وأنا لا أعلم إن كنت قادرة على تحمله. [...] لكني أريد أن تتغير حياتي وأتحرر من كل التبعات، أرغب قبل كل شيء أن أظل مستقلة ماليًا».

هل كانت ميلينا تعلم، أن كافكا وقتها كان في طريقه إلى فيينا؟ ليس لزيارتها، بل للعلاج في المشفى الجامعي. فقد أصبح مرضه في مرحلة متدهورة. وذات مرة لم يتجاوز وزنه بملابس الشتاء الخمسين كيلو، أصبحت حنجرته متضخمة جدًا، لدرجة أنه لم يستطع الأكل بشكل سليم. لم يكن كافكا بمفرده. كان قد وجد امرأة تلائمه. كانت تُدعى دورا ديامانت وقد تعرف عليها عند إقامته في بحر البلطيق. وبمساعدة دورا الشابة، التي تبلغ من العمر أربعة وعشرون عامًا كان قد نجح بالفعل أن يولي ظهره لبراغ ولوالديه. قضى الاثنان، في برلين شهورًا قليلة لكنها سعيدة، قبل أن يجبر المرض كافكا، على أن ينهي حياته التي حددها بنفسه مع دورا. نُقِل في منتصف أبريل إلى عيادة الحنجرة في فيينا. وفي العنبر الضخم، الذي كان موجودًا به، كان يموت المرضى كالذباب. لم يكن يريد أن يموت هكذا. فتولت دورا نقله إلى مصحة خاصة في كيرلينج، في ضواحي مدينة فيينا.

قالت ميلينا في رسالة لها بعد أربعة عشر عاما، أنها كانت جالسة

بجانب كافكا، عندما كان يحتضر. هذا أمر مشكوك فيه، لعدم وجود دليل عليه. لكن ما الذي يجعلها تدعي الكذب؟ فكافكا مات في 3 يونيو 1924. وكان معروف أن ميلينا موجودة وقتها في براغ. لم تستطع أن تحضر موته، لأن وقتها كانت دورا فقط موجودة بجانبه. لكن هذا شيء يمكن تصوره بلا شك، نعم؛ فمن المحتمل جدًا، أن تكون قد زارته قبل وفاته بوقت قصير.



فترة النقاهة في بوخهولتس بالقرب من دريسدن بين عامي 1924 و1925 أوتو رولي، وميلينا، وستاشا، والكونت شافجوتش (بدءًا من اليسار إلى اليمين)

مصدر الصورة: **Verlag Neue Kritik**

بعد ثلاثة أيام من وفاة كافكا نشرت جريدة نارودني ليستي نعيًا له كتبته ميلينا يسنسكا. جاء فيه: «توفى أول أمس في مصحة كيرلينج الموجودة على مقربة من كلوسترنويبورج بالقرب من فيينا دكتور فرانتس كافكا، كاتب ألماني، عاش في براغ. لم يعرفه هنا سوى قليلين، لأنه كان منعزلًا، واشتهر عنه خوفه من الحياة، كان مصابًا بداء الدرن لسنوات طويلة، وبالرغم من أنه كان يعالج من مرضه، إلا أنه عمل على تنمية مداركه وأفكاره. [...] وقد منحه المرض بالفعل رقة مذهلة ودقة مخيفة لا هوادة فيها. بيد أنه كإنسان؛ قد ألقى بكل مخاوفه الذهنية من الحياة على عاتق مرضه. كان خجولًا، مرتجفًا، وديعًا، وطيبًا، لكنه كَتَبَ كُتبًا قاسية ومؤلمة. [...] كان حصيفًا للغاية، للتعايش مع الضعف النبيل، ومجابهة البشر السعداء، الذين يتجنبون المعارك خوفًا من سوء الفهم، وتجنبًا للقسوة والخداع الفكري، رغم أنهم يعرفون سلفا، بعجزهم، وتعرضهم للتشهير من الطرف المنتصر. [...] لقد كان إنسانًا وفنانًا ذي ضمير حيٍّ ومرهف للغاية، لدرجة أنه كان يشعر بأمور، لا يتأثر بها آخرون بشكل كبير، بل يتعايشون معها في سلام».

بحلول نهاية يونيو 1924 تركت ميلينا فيينا مع شافجوتش، إلى الأبد. انفصلت عن بولاك في العام التالي. كان انفصالها عن بولاك قد غيَّر مجرى حياته. فقد استقال من وظيفته، وحاول أن يعيش في باريس وبرلين بمعاشه الزهيد. عام 1926 عاد في أثناء ذلك البالغ من العمر الأربعون عامًا إلى فيينا وانتظر، أن يحدث في حياته تغير حاسم مرة أخرى. هذا التغير حصل بعدها بسنتين. فقد عوض عن

امتحان الثانوية العامة وبدأ يدرس الفلسفة واللغة الألمانية وآدابها. كتب بولاك لصديق له: «لقد كان هذا أفضل تحول حدث لي في فن الحياة». ظل على اتصال بميلينا. وأكدت ميلينا أنها ما دامت حية، فإنها لن تتوقف عن حبه.

زجاج هش

«أنا وحيدة بشكل مخيف، بينما أنتم أصحاء تمامًا».

بدا الزوجان في الصورة، كما لو كانا على ما يُرام في زيارة إلى المسرح. كانت ميلينا ترتدي فستانا أنيقا يصل إلى كاحل قدميها. وكان الكونت شافجوتش واقفًا بجانبها، مرتديا حُلَّة سوداء مع رابطة عنق ومنديلًا أبيضًا في جيب صدره. كان يضع يده اليمني على كتف ميلينا. والاثنان موجودان في حديقة كبيرة، تخص منزل الزوجان أليس جيرستل وأوتو رولي في بوخهولتس بالقرب من دريسدن. كانت أليس جيرستل تنتسب إلى عائلة ثرية في براغ، وقد تعرفت على ميلينا في فترة شبابها. وقبل أربعة أعوام في 1921، تزوجت من أوتو رولي البالغ من العمر عشرون عامًا، شخصية لامعة في ألمانيا السياسية. كان نائبًا في البرلمان الألماني عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي وقد صوّت ضد أغلبية حزبه برفض اعتمادات مالية جديدة لاستمرار الحرب. أسس مع روزا لوكسمبورج وكارل ليبكنشت عُصبة سبارتاكوس الأسطورية، التي أرادت إحداث ثورة شيوعية بعد نهاية الحرب. أُغتيلت لوكسمبورج وليبكنشت في يناير عام 1919 بشكل وحشي على يد أعضاء ميلشيات فرايكوربس اليمينية. تقهقر رولي بعدها عن السياسية وتفرغ لموضوع، إمكانية دمج الأفكار الشيوعية بأساليب التربية الحديثة. قام رولي

وزوجته الشابة أليس، وهي تلميذة عالم النفس الفردي ألفريد آدلر، بإدارة دار النشر «آم أندرن أوفر» في بوخهولتس، والتي كانت تنشر كتابات سياسية وتربوية.

امتدت الزيارة، التي خطط لها أن تكون قصيرة، إلى بوخهولتس لتسعة أشهر طويلة. كان هذا الوقت بالنسبة لميلينا استراحة قبل أن تبدأ مرحلة جديدة في حياتها. فرصة، للتفكير في مستقبلها. كانت قد قررت سلفًا، ألا تذهب إلى باريس أو لندن، بل تعود إلى براغ. فهناك توجد الجرائد ودور النشر التي كانت تعمل لصالحها. وهناك أيضًا استطاعت أن تؤسس حياة أكثر استقلالا. وما نهاية ذلك؟ أكان ينبغي عليها أن تظل ترتقي في المراتب فقط؟ ماذا عن حلمها بأن تعيش حياة قريبة من الأرض مع شريك حياة وطفل؟ هل كان الكونت هو الرجل المناسب لهذا؟

هكذا أقرت ميلينا لإحدى صديقاتها؛ «إن أردت العيش في رأيي، وليس متأخرًا، كما أدركت، أنه كان ينبغي عليّ العيش، وربما انتهى بي المطاف في مكان ما يشار إليه أنه (دنيء)». من ناحية أخرى، الهبوط للدنو يعني المزيد من الاعتماد على الآخرين. لذا وجب على ميلينا تقديم بعض التنازلات وأن تسلم مقالاتها وترجماتها في مواعيدها المحدد، حتى لو لم يعد خط سير صحيفة وطنية كناروودني ليستي يرتقي إلى مستوى توقعاتها. ومن بوخهولتس حاولت أن تقنع المحرر كارل شاينبفلوج ألا يطبع قصة الميلاد الهادئة مرة أخرى في إصدار عيد الميلاد من براغ، بل أن يطبع قصة قصيرة لروبرت لويس ستيفنسون، مؤلف جزيرة الكنز، والتي أرادت أن تترجمها له. كتبت إليه، «فقط قل نعم، وسوف تكون على طاولتك في لمح البصر؛ تكفيني ليلتين لهذا. أيها العزيز، الجذاب، الفريد، المحبوب،

الغالي الرءوف الحنون بشكل لا يوصف، أيها السيد شاينبفلوج. من فضلك أسدِ إليَّ معروفا!»، من يمكنه قول لا مع كل هذا!

عادت ميلينا أخيرًا كالابنة الضالة إلى براغ في خريف 1925 وأُستقبلت بأذرع مفتوحة. وطبقًا لمذكرات الصحفية هانا شكليبوفا فقد كان الانطباع الذي سببته، «جارفًا»: «لقد كانت مرتدية ثيابا أنيقة، وشعرها قصيرًا، ظريفًا، ومرحًا. بدا لي، كأنها قد أحضرت معها الشكل الغريب لسحر فيينا وهذا الطيش المتهور إلى براغ. أنا لم أكن سندريلا، بل ميلينا، وكان هذا هو العالم الكبير». وقد ربحت بالفعل جمهورًا مخلصًا من القراء في براغ بواسطة تقاريرها الحية من فيينا. أصبح اسمها له تأثير كبير جدًا على الجمهور، لدرجة أنه قد نُشرت لها مجموعة من وصفات الطعام، وراجت بشكل رائع، ومع أن ميلينا كانت طباخة سيئة، كما لم تكن تستطع تجهيز معظم الأطعمة، فلم يكن هذا مهمًا. وعلى الرغم من كل ذلك طبعت لها دار النشر توبيتش الموجودة في براغ، مجلدًا لصفحات الأدب والفن التي نشرتها سابقًا، تحت عنوان؛ الطريق نحو البساطة. أهدت ميلينا المجلد إلى «الأب العزيز». فهل كان هذا عرضًا للصلح؟

كان يان يسنسكي فخورا بابنته بلا شك، حتى إن لم يُظهر ذلك. لكنه كان غير موافقًا على شريك حياتها الجديد. فصحيح أن هذا الكونت لم يكن يهوديًا، لكنه كان شيوعيًا، وكان هذا سيئًا بالنسبة لأستاذ الجامعة. لم ينبهر يسنسكي كثيرًا باللقب النبيل والأصل الراقي. وعندما قدمت له ميلينا شافجوتش، ألقى الأب عليه نظرة قصيرة فقط، ثم دمدم بتحية مقتضبة واختفى مرة أخرى خلف جريدته.

واجه شافجوتش صعوبات في براغ. بينما كانت ميلينا قد كونت سلفًا شبكة من الاتصالات وأصبحت شقتها في ساحة المالطية، ببراغ الصغيرة، ملتقى للفنانين، والصحفيين، والكتاب، في حين لم يجد شافجوتش أي مدخل للدوائر الفنية الإبداعية أو حتى السياسية. ظل «الكونت المهووس»، كما كانوا يسمونه، غريبًا في براغ، كانوا يسخرون منه، عندما كان يظهر في المقاهي يسأل قانطًا عن ميلينا. خاض بولاك حياته الخاصة وشعرت ميلينا كثيرًا بأنها مهملة، فقد كانت تربط كلاهما «لغة داخلية»، ولهذا السبب كان انفصاله عنها مؤلمًا جدًا لها. ومع رجل مثل شافجوتش، الذي كان متشبثًا بها كالنبات المتسلق، وله «لغة داخلية» مختلفة تمامًا، لم تستطع التعايش معه، وأكثر من ذلك، فقد أصبح بالنسبة إليها لا يطاق. ولهذا لم تكن حزينة عندما ترك براغ وعاد مرة أخرى إلى فيينا. «لقد سررت، بأنه قد غادر».، كتبت لإحدى صديقاتها، «وخشيت بنفس القدر، من احتمال عودته. ما زلت أكرهه إلى اليوم».

كانت فيينا مدينة، لا تزال تعيش في عبق الماضي. وعلى النقيض فقد سيطرت أجواء التفاؤل في براغ. تشكلت جماعة، أرادت أن تتخلص من قذارة النظام الملكي، وقد تشربت بشغف كبير كل ما يُتاح من أفكار جديدة في أوربا؛ في مجالات الفن، والفوتوغرافيا، والسينما، والعمارة، والمسرح والموضة. وبالنسبة لأعضاء دفيتسيل، كما سمت جماعة الفنانين أنفسهم، كان هذا بالتأكيد تيارًا يساريًا. كان «اليسار» بمثابة مرادفًا للتقدم، والمستقبل، والتحرر من الأنماط القديمة والقيود، والبحث عن عالم أفضل. وأول دولة اشتراكية، نشأت بعد الثورة البلشفية في الاتحاد السوفيتي، تعد من قِبَل الكثيرين أنها المكان الذي تحققت فيه كل هذه

اليوتوبيا. تشاركت ميلينا الإحساس بالحياة مع طليعة دفيتسيل. وجمعت بينها وبين الرواد البارزين علاقات صداقة مثل كاريل تايجي. أرادت أن تهيئ الجمهور العريض للأفكار الجديدة بواسطة مقالاتها. وفي ذلك كان الأمر يدور حول الاتجاه «للموضوعية الجديدة»، وبالنسبة إلى ميلينا هو «وصفة سحرية»، يستطيع المرء بواسطتها التحرر من أنماط العيش وجماليات القرن التاسع عشر، «زخارف وتماثيل الجص المصنوعة من الجدائل القديمة الأصلية والرمزية»، وطريقة الحياة الجديدة هذه كان ينبغي عليها أن تعبر عن الروح السياسية أو الموضة المتغيرة وفهم مختلف للذات.

ومع ذلك، أعربت أكثر فأكثر عن شكها في ما إذا كانت نارودني ليستي هي المكان المناسب لآمالها. كان والدها يؤمن لها احتياجاتها الأساسية، وكانت المساهمات كريمة وقاسية وعطوفة ومملة ولا حياة لها. كتبت إلى كاريل هوخ: «كل شيء يتحرك من حولنا، يتطور ويتغير ونحن كالمياه الراكدة». بدا لها الأمر أكثر جاذبية، عندما لبّت عرض صديقتها ستاشا وعملت في جريدة جديدة. كانت الجريدة تُدعى بيستري تيدن، الأسبوع الملوّن، وهي مجلة تعمل وفق نمط النموذج الأميركي. عُين ستاشا المحررة المسئولة. انتمي لفريقها بجانب ميلينا الرسام هوجو برونر وأدولف هوفمايستر كثير المواهب. كانت ستاشا قد تزوجت منذ ثماني سنوات وأنجبت ابنتين، توأم. غير أنه لم تكن ميلينا فقط الوحيدة التي لاحظت، أن ستاشا والشاب الجذاب هوفمايستر كانا متفاهمين للغاية، وتربطهم ببعض علاقة أكثر من مجرد العمل المهني.

استطاعت ميلينا أن تلاحظ الاثنين في رحلة بالباخرة إلى نهر فلتافا في يوم من أيام الصيف في عام 1926. وقد كانت جمعية الفنانين التشكيليين الموجودة في براغ قد دعتهم إلى هذه الرحلة. كانت الرحلة تسير ضد التيار إلى المكان الصغير الذي يُدعى سبراسلاف، حيث زارت الجمعية قصر باروك واستقرت بعدها في حديقة فندق ما. كان يوجد القليلون ضمن الرحلة الترفيهية، لا يعرفون ميلينا. ومنهم كان المهندس المعماري الشاب يارومير كريتسار، وقد تحدثا سويًا بإعجاب كبير. استرسلت ميلينا معه في الحديث، ولاحظت سريعًا، أنهما لديهما العديد من الأمور المشتركة. كتب كريتسار مقالات عن فن العمارة وعن السياسة لجرائد متنوعة في براغ وقد زيّن كتبًا كثيرة برسوماته. فكل شيء مما كان يقوله حول تصوراته في العمارة الحديثة، كانت ميلينا توافقه عليه بحماس شديد. لم يصرف الاثنان نظرهما أو سمعهما عن بعضهما بعضا طوال رحلة العودة إلى براغ، وعندما تفرق كل المتنزهين في كل الاتجاهات بعد الوصول، اختفت ميلينا وكريتسار معا في أزقة براغ. وحيثما كانوا قد أمضوا تلك الليلة، وما كان ينبغي عليهم فعله، كانت هناك أكثر الشائعات وحشية في مطاردتهم.



ياروMير كريتسار

مصدر الصورة: Verlag Neue Kritik

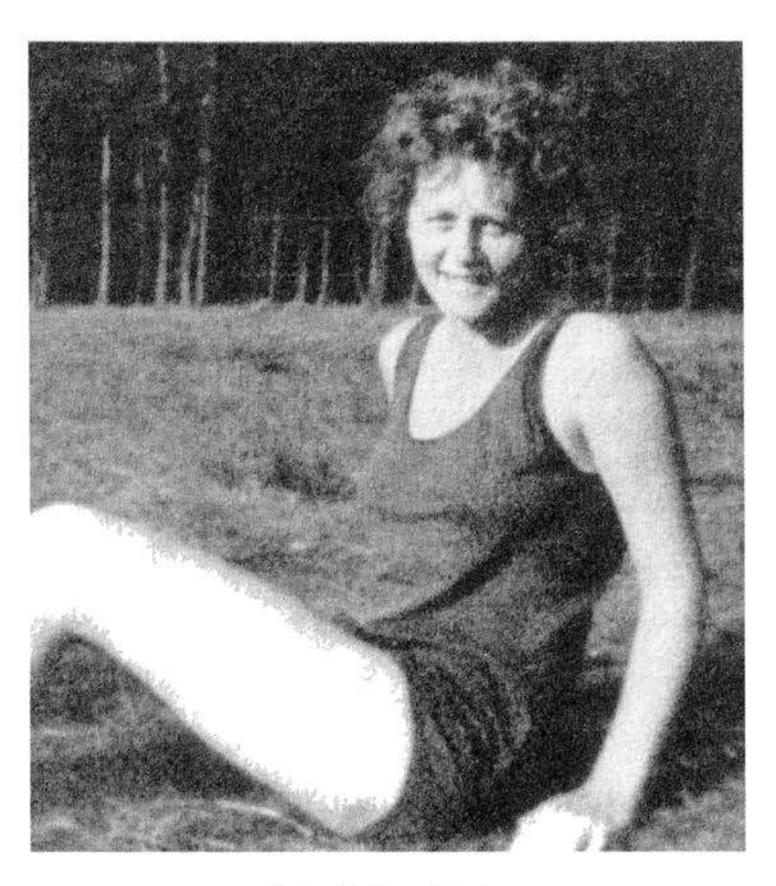
تمنَّت ميلينا في يوم من الأيام، العثور على شخص ما، يثير شغفها، وبطريقة تمكنها من تحمل تلك القدرة دون ندم. فهل وجدت في ياروMير هذا الشخص؟ استطاع الاثنان أن يتحدثا في كل شيء مهما كانت الظروف واستطاعا أن يكونا خاليا البال كالأطفال الصغار. أحبا الطبيعة. فطافا حول براغ عبر الغابات وسبحا في نهر فلتافا. وحدث، أنه راودها فجأة حنين إلى غابة بوهيميا وقررا بشكل تلقائي أن يقترضا بعض النقود من الأصدقاء،

كي يسافرا إلى شبيتسبرج بواسطة سيارة أجرة. وعلى الرغم من أن كريتسار كان مهندسًا معماريًا معروفًا، إلا أنه لم يكن لديه سوى القليل من المال دائمًا. وهذا شيء اعتاد عليه منذ طفولته. فقد انحدر من أسرة فقيرة جدًا، وكان يضمر الغضب لكل الرأسماليين، الذين، كما قال ذات مرة، أنه يريد أن يحاربهم بواسطة أسلحته الخاصة.

كريتسار، الذي يكبر عن ميلينا بعامين، فقد والده، عامل الغابات، في وقت مبكر جدًا. ونتيجة لذلك، انتقلت والدته مع طفلها الوحيد من مكان الميلاد في النمسا السفلى إلى براغ، وجنت المال من أجل تعليم ابنها من خلال محل حلويات صغير. حصل يارومير على تدريب مهني كبناء، وتردد على مدارس متخصصة متنوعة، قبل أن يستطيع أن يدرس في الكلية. كان تلميذا موهوبًا جدًا وحصل على توصيات من الأفراد ومن رجال الأعمال بعد إنهاء دراسته. كان وهو في بداية حياته العملية يقول الجميع عنه أنه سوف يكون له مستقبلًا كبيرًا.

ومثل ميلينا، فقد خلف يارومير كريتسار ورائه زواجًا فاشلًا، وقد كان أبًا لابن يبلغ من العمر ثلاث سنوات، يعيش مع أمِّه. في ذلك الوقت، عندما تعرف على ميلينا، كان كريتسار على اتصال بكيميائية شابة. غير أن كريتسار كان مبهورا جدًا بميلينا، وكان كل شيء آخر بجانبها يفقد أهميته، وقد قرر بعد وقت قصير، أن يتزوجها. وميلينا كانت قد كتبت في مقالة سابقة لها عن الزواج، أنه لا ينبغي أن يُقدم اثنان على الزواج، إلا أن يكون هذا هو خيارهما الوحيد للحياة. بالنسبة ليارومير فقد انطبق عليه هذا الأمر بوضوح. أملت ميلينا، إضافة إلى

ذلك أن تستطيع أن تعيش حياتها مع يارومير، كما تمنت دومًا، ألا وهو أن تظل مستقلة ومع ذلك يكون لديها عائلة وأطفال؟ تزوج الاثنان في 30 أبريل 1927. بارك يان يسنسكي هذا الزواج، رغم أنه كان ينتقد كريتسار في بعض الأشياء. فلم يكن يعجبه موقفه اليساري، وأعتقد أنه كان زير نساء.



ميلينا الشغوفة بالسباحة

مصدر الصورة: **Archiv Klaus Wagenbach**

كانت ميلينا غير مبالية بأفكار والدها. لقد كانت في غاية السعادة، وشعرت «كمن أُنقِذ» وقصدت «أن أعيش بإخلاص، لا أكذب ولا أرتكب أتفه القباحات، كي أستطيع أن أحيا في علاقة مخلصة سوية مع زوجي الجميل النبيل الرائع». انتقل الزوجان الشابان إلى شارع سبالنا، إلى المنزل، الذي كانت تمتلك فيه والدة يارومير محل الحلويات الخاص بها في الطابق الأرضي. جهزا الشقة الموجودة في الطابق الأول وفقا لذوقهما، وهذا كلفهما الكثير من المال، الذي لم يكونا يمتلكاه في الواقع. وما كانت تكسبه ميلينا من مقالاتها، كان يكفي بالضبط لتدبير احتياجات المنزل الأساسية، والملابس، والإيجار. لم ترد أن تعكر سعادتها بسبب مخاوفها من نقص المال. فالشخص العاقل، كما قالت، يأمل دائمًا في الحصول على المال، ولكن حتى إذا كان غير مؤمن اقتصاديًا، أو جائعًا، فإنه لا يزال يشعر «باللامبالاة من المال» في الزاوية الأخيرة من روحه.

على ما يبدو أن يارومير كان يفكر مثلها. فبالرغم من الديون، لم يحد عن شراء سيارة، التي من المحتمل عدم قدرته على تسديد ثمنها أبدًا. وبواسطة تلك السيارة ماركة أوسترو دايملر قام هو وميلينا برحلات بعيدة. وقد سافرا مع الأصدقاء إلى فيينا، حيث أطلعتهم ميلينا على مكان معيشتها السابق. وفي خريف عام 1927 سافرت هي ويارومير إلى شتوتجارت، لزيارة المعرض الدولي للإسكان. وقدمت ميلينا تقريرا شغوفا لنارودني ليستي عن التصميمات المعمارية الرائدة للفرنسي لو كوربوزييه، والألماني فالتر جروبيوس. لم يكن التقرير مجرد نص نمطي لميلينا، حتى لو لم تكن أيضًا قد سردت انطباعاتها الشخصية عن ألمانيا. وأعربت عن

إعجابها بحالة الطرق الألمانية الممتازة، والنظافة والنظام الذي ساد في كل مكان، لكن ما افتقدته بشكل مؤسف كان اختفاء الطابع الشعبي للروح السلافية. «بالنسبة للشخص الألماني يكمن معنى الحياة بداخله، أن يُنجز ما يُؤمر به، ويتجنب ما هو ممنوع. [...] يفتقر الألمان إلى أيَّ علاقة بمتع الحياة، وأيَّ معنى لجودة الأشياء، إنهم ببساطة؛ عميان عن سحر العالم. لا يذهبون إلى أيِّ مكان، إن لم يكن هذا ضروريًا، ويلاحظ المرء أن هذا الواجب لا يثير الدهشة، حين لا يكون هو الهدف، ويبدو مثيرًا للسخرية في مواجه الرب واللانهائية، وإن هذا ما فعلته الروح السلافية الأخيرة مع أقل نشاط، وكل نفس».



ميلينا مع صديقتها ستاشا

مصدر الصورة: **Verlag Neue Kritik**

عانت ميلينا من هذه الروح السلافية خاصة مع إدارة تحرير جريدة بيستري تيدن. كان الفريق المحيط بها هي وستاشا كالعائلة، تضحك معهم، وتحتفل، وتعمل. ولهذا فقد كانت صدمة كبيرة بالنسبة إليها، عندما فُصِلَت في نهاية عام 1927. وكما يقال، فقد جاوز تعاطف ميلينا للأفكار الاشتراكية الحد لدى مالك الجريدة. ثارت ستاشا جدًا بسبب جرح صديقتها، لدرجة أنها استقالت. لكن ظلت علاقتها المندفعة بأدولف هوفمايستر قائمة. ولم يدم الأمر طويلا، حتى تركت زوجها وانتظرت، أن يترك هوفمايستر امرأته أيضًا ويجتمعا معا في النهاية.

طوى النسيان الانتكاسة المهنية، عندما عرفت في بداية العام 1928 أنها حامل. وكانت تبلغ وقتها واحد وثلاثين عامًا. فهل حلمها بحياة مع طفل سوف يتحقق أخيرا؟ تمنت أن تلد صبيًا. ماذا سيكون اسمه؟ قد اختارت له؛ هونزا، وهو اسم التدليل الخاص بيان، الاسم الشخصي لوالدها. لم تكن ميلينا تعلم، أنها قد وصلت إلى قمة السعادة. ففي نهاية هذا العام لم يعد متبقي الكثير من هذه السعادة. كيف يمكن أن يحدث هذا، من الصعب تتبع ما حدث. فالمصادر متنوعة ومتضاربة وبدايتها كانت أن ميلينا قد كُسِرت ساقها عندما كانت تتزلج على الجليد في الربيع. وهذا أمر غير مرجح، لأنها في يونيو كانت تتجول وهي حامل في الشهر الأخير على جبال الغابة البوهيمية. كتبت إلى ستاشا قائلة: «إنني أتدحرج هنا فوق الجبال مع هونزا، ألهث صعودا، وأتدحرج نزولا، وهونزا يحتج ويدب في بطني كالعنكبوت»، بعدها بوقت قصير ظهرت آلام شديدة في القدم اليمني، وساءت بشدة، لدرجة أنها نُقِلت إلى المستشفى في براغ وحرارتها مرتفعة. هناك عدة تفسيرات لسبب هذا المرض. وفقا لأحدها، فإن المسبح

الموجود في بحيرة جبلية كان باردًا، مما تسبب في تخثر الدم بالركبة. احتمال آخر يفترض أنها أصيبت من زوجها يارومير بمرض تناسلي.

أيا كان السبب، فقد أصبحت حالتها خطيرة، لدرجة أن الأطباء خافوا على حياتها. بدت ميلينا أنها لم تدرك سوى القليل عن ميلاد طفلها، الذي جاء إلى العالم في 14 أغسطس 1928 بعملية قيصرية. لقد كانت فتاة وسُميت يانا، ولكن اسم الصبي الذي كان مقررًا سلفًا ظل ملتصا بها. فطيلة حياة يانا كان الكل يناديها بهونزا. وكما الحال سابقًا أثناء إجهاض ميلينا، كان يان يسنسكي دائمًا بجانب ابنته، يرعاها ويتأكد أن يعتني بها أفضل الأطباء. لكن حتى هؤلاء لم يستطيعوا أن يحولوا دون أن تصبح قدم ميلينا متصلبة. فالتجارب المتعددة، لثني ركبتها بقوة باستخدام أحد الأجهزة، كانت مؤلمة جدًا، لدرجة أنها لم تكن تتحمل هذا العذاب دون أن تأخذ جرعة المورفين. اضطرت للرقود على ظهرها لأسابيع طويلة بلا حراك. وقد رفضت وهي ثائرة عرض والدها أن يعتني بهونزا. فكانت تفضل تخلصها من الطفلة بيديها، بدلًا من أن تأتمنه عليها، كان ينبغي عليها قول هذا. ظلت هونزا معها في المستشفى، وكانت بين الحين والآخر تبقى مع ياروميرووالدته.

لم يحدث أيَّ تحسن مع نهاية السنة. وقد كانت حزينة للغاية «كمن غرق في مياه قاتمة»، كتبت ميلينا لأدولف هوفمايستر. «أعيش فقط على حقن المورفين، التي بالكاد يعلم أحد عنها وعن عددها، والذي حصلت عليه من أجل هذا العذاب، لم يعد كافيا بالنسبة لي، الطفلة وإدراك أن ياروميرلن يصمد دوني. فالأمر مجهد لكليهما، الرقود لشهور دون إمكانية الحركة، لن يسعدها شيء سوى أن تسترد صحتها من جديد. أنا في حالة تشوش

مستمر، وعندما أعود لنفسي، أشعر فقط بالخوف والألم ونفاد الصبر وعدم الثقة الرهيب. أنا وحيدة بشكل مخيف، بينما أنتم أصحاء تمامًا».. لم تكن الآلام الجسدية فقط هي التي تعذبها كل يوم. فلقد آذاها بعمق صدور طبعة عيد الميلاد من صحيفة نارودني ليستي، حيث قُدِّمَ جميع موظفي الصحيفة، دون ذكر أيِّ كلمة عنها. أيضًا لم يقم بزيارتها أحد من زملائها في المستشفي، أو تهنئتها بميلاد طفلتها. «من فضلك، كن لطيفًا وأخبرني؛ ماذا فعلت؟»، هكذا كتبت ميلينا متوسلة أيَّ أحد المحررين. ولم تحصل على أيِّ إجابة. خشيت أن تكون قد نُسيَت أو هُمِشَت. فكل ما قد بنته مهنيًا، صار مهددًا بالضياع.

في ربيع 1929 ذهبت إلى بيشتاني للمزيد من العلاج، مكان للاستجمام جنوب شرق براغ يبعد عنها ما يزيد عن ثلاثمائة كيلو مترًا. وفي النهاية سمح لها بمغادرة الفراش، مستندة على عكاز، تذهب في جولات صغيرة. كان يارومير نادرا ما يذهب إلى بيشتاني البعيدة جدًا عن براغ. وعندما كانا يجلسان مقابل بعضهما بعضا في شمس الربيع المشرقة في شرفة المصحة، كانا يكتئبان أكثر. فكما هو الحال دائمًا، كان الأمر يتعلق بالمال، وكيف ينبغي عليهما دفع ثمن العلاج باهظ التكاليف. كان ياروميريتساءل في بعض اللحظات، هل ما زالت هي نفس المرأة التي تزوجها. أصبحت ميلينا مدمنة مورفين، وكانت تتصرف في أحيان كثيرة كما لو كانت خلف ستار. فهي لم تعد تلك المرأة الرشيقة الرياضية الحيوية كما كانت من قبل. وقد أفهمها الأطباء بحرص، أن ركبتها سوف تظل متصلبة وأنها سوف تعرج طيلة حياتها.

تساءلت ميلينا من جانبها، عما إذا كان ياروميرا، الذي يحب تجمع

النساء حوله، ما يزال يحبها، بعد أن رآها في هذا الوضع البائس، مع هذه الساق المتورمة ذات اللون الداكن. لم ترد ميلينا بأي حال أن تُثقل على زوجها ولا على أو والدها. فحاولت وهي في بيشتاني، أن تتبع حياتها القديمة. فكتبت مقالات إلى نارودني ليستي، والتي قبلتها بريبة بشكل متزايد. خاصة عندما كتبت ميلينا مجددًا عن موضوعها المفضل، العلاقة بين الرجل والمرأة. وردت رسائل ساخطة من القراء إلى إدارة التحرير بعد مقالة، هاجمت فيها النساء، اللاتي تطالبن بالمساواة، ولكن بعدما يتزوجن رجلًا، يلزمونه أن يعولهن ويحميهن. ردت ميلينا على نقدها هذا باعتراف شخصي جدًا: «عندما يكف رجلٌ ما، عن حبي، ويتركني، فلا يهمني هذا. سوف أصير مجروحة أكثر، عندما يكف عن حبي ويظل بجانبي. فانا لا أخشى من أن يتركني؛ وإن كان عليَّ الخوف من شيء، فحينئذ أخاف من اعتباري ضعيفة، غير قادرة على البقاء بمفردي».. كانت تلك الآراء بمثابة إساءة قوية لجمهور قراء صحيفة نارودني ليستي المحافظ. فأنهت الجريدة التعاون مع ميلينا. ولحسن الحظ كان لديها شفيعًا كالصحفي المحترم جدًا فرديناند بروتكا، الذي دافع عن موهبتها كثيرًا ودعاها، لأن تكتب في جريدة ليدوفي نوفيني الليبرالية.

غادرت ميلينا المستشفى وذهبت للمنزل في نهاية صيف 1929. وقد عمل الأطباء بالفعل كي لا تكون قدمها المريضة متصلبة بالكامل، فاستطاعت في البداية أن تتحرك داخل الشقة لكن بعناء شديد. ولم تكن لتنجز العمل اليومي من دون مساعدة جليسة الأطفال. أصبحت هونزا تبلغ عامًا واحدًا، وكان عليها أن تعتاد على وجود والدتها منذ الآن ودائمًا. كانت مشاعر ميلينا تجاه هونزا متناقضة بالتأكيد. أن يكون لديها طفلًا، كان دائمًا

حُلم حياتها. غير أن ميلاد هونزا ظل مرتبطًا بذكرى المرض والألم، مع الانتكاسات المهنية والإعاقة الجسدية، التي وجب عليها التعايش معها.



ميلينا مع يانا التي كانت تدعوها هونزا

مصدر الصورة: Verlag Neue Kritik

للمرة الأولى تصبح ميلينا مُكبَّلة في الشقة. لم تستطع أن تسعى خارج المنزل من أجل مقالاتها. انفرج الضيق قليلًا وكتبت لصحيفة ليدوفي نوفيني عن حياتها الأسرية اليومية، كيف كانت هونزا تحتار كثيرًا بين والدتها ويايا، جليسة الأطفال المحبوبة. كيف كانت هونزا تحظى بأوقات نادرة، عندما يكون والدها موجودًا ويلعب معها. كيف كانت العلاقة بين

الأب والأم، وهو الأمر الذي لم يُضِف للقراء شيئًا من مقالاتها. لقد كانت المقالات شخصية جدًا. لكن يستطيع هذه المرة بطريقة غير مباشرة أن يستخلص استنتاجات من تأملات ميلينا العامة عن العلاقة التشاركية، وماذا كانت تفعل ميلينا على المستوى الشخصي. وهي تُقارن علاقتها مع «الزجاج الهش»، الذي يحمي بعناية من الاضطرابات الخارجية. فإن تسلل شيء ما إلى التعايش، ويصيب أطراف العلاقة بالخرس، فعندها قد فقدت المصداقية والموثوقية. فهل كانت توجد تلك النقاط السوداء في زواج ميلينا؟

كانت الصعوبات المالية الدائمة التي تواجهها العائلة هي بالتأكيد نقطة سوداء، والتي زادت سوءًا خلال الكساد الكبير عام 1929. وقد استنزف علاج ميلينا كمية كبيرة من المال، كما قلت الصفقات التي كان يحصل عليها يارومير. كانت نتائج الأزمة ملحوظة جدًا في تشيكوسلوفاكيا بأكملها. فقد أضرب عمال المناجم في شمال البلاد، وتكونت جماعات شيوعية في براغ، نظمت عطلات لأطفال العمال المضربين. لم تعد ميلينا تحتمل الإقامة في الشقة. ولم تستطع قدمها العرجاء منعها من المشاركة في هذا العمل، فذهبت لاستقبال الأطفال في المحطة، واستضافت أحدهم لديها. لم يكفيها أن تكتب مقالة فقط. أرادت فعل شيء ما. وقبل كل شيء أرادت أن تفهم، كيف يتوقف إضراب عمال المناجم، ومصائر عائلاتهم في ظل تلك القرارات السياسية.

تابعت ميلينا باهتمام، ما يحدث على الجانب الآخر من الحدود في ألمانيا. فقد قادت الأزمة الاقتصادية هناك إلى أن يُقبل الناس بالجملة على أدولف هتلر، قائد الحركة الفاشية. وقد أصبح حزب هتلر النازي أقوى

ثاني حزب في انتخابات البرلمان الألماني عام 1930. تبع هذا التطور اضطراب متزايد في جمهورية تشيكوسلوفاكيا الناشئة. كان هناك الكثير ضمن الأقلية الألمانية، متعاطفون مع النازيين. وقد دعت الجماعات اليسارية قبل كل شيء إلى معارضة الفاشية الصاعدة، وشاركت ميلينا أيضًا في جلساتهم ومظاهراتهم.

نقطة سوداء أخرى في حياتها، وهي إدمانها المورفين. كان ينبغي عليها التخلص منه، لهذا حضرت إلى عيادة متخصصة لمدة أسبوعين. دون جدوى. فمحاولة معالجة إدمانها نظريا، جلبت عليها المزيد من الصعوبات. ويحتمل أن تكون مقالة عن تعاطي المخدرات، قادتها لأن تفقد وظيفتها في ليدوفي نوفيني أيضًا. حتى بالنسبة للصحف الليبرالية أصبحت مقالاتها متطرفة جدًا. استطاعت أن تُلحق مقالة فقط بمجلة تفوربا الشيوعية عن البند 144. كان هذا البند من مخلفات العصر الإمبراطوري، ويضع الإجهاض تحت عقوبة الحبس بالسجن. وكانت النتيجة، أن السيدات اللاتي من الطبقة المتدنية قد تعذبن من عمليات الولادة والإجهاض المتكررة. وكانت العمليات الجراحية المتخصصة غير القانونية لا يقدر عليها سوى العائلات ميسورة الحال. وفي تلك الأوضاع الميئوس منها كانت تذهب العاملات إلى ما يطلق عليهن المُجهضين، اللواتي كنَّ يدفعنهن للموت، أو مرض مُلازم مدى الحياة، أو صدمات شديدة.

مقارنة بتلك المصائر كانت حياة ميلينا متميزة. ففي خريف عام 1931 انتقلت العائلة إلى شقة جديدة فاخرة، والتي عرضت على يارومير بشروط مناسبة. كانت الشقة تقع في الطابق العلوي لمنزل تعاوني، محاطة بشرفة ولها سقف مسطح، حيث حصلت هونزا على ملعب رملي وحمام خاصين

بها، وكانت للشقة الجديدة إطلالة رائعة على براغ بأكملها. كانت شقة البنتهاوس بها حجرة جلوس ضخمة بنوافذ كبيرة وموقد مفتوح. حصلت ميلينا أيضًا على حجرة خاصة بها، علقت فيها صليب والدتها فوق سريرها. جزء من الشقة كان مرسم ومكتب يارومير، حيث كان ينام على مرتبة هناك.

عرفت ميلينا أن هناك أشخاص في براغ يعيشون حياة مختلفة تمامًا. وعندما تعافت بشكل كافي واستردت بعضًا من قدرتها على الحركة، ذهبت إلى تلك الأماكن، حيث كانت عائلات كاملة تسكن في ثكنات عسكرية خشبية متعفنة وأقبية رطبة. كان الكثيرون من أهالي براغ يتبرعون بالمال لأولئك الأشخاص من ضحايا الأزمة الاقتصادية. تلك الأعمال الخيرية كان مقصدها جيدا، لكن في تلك الأثناء كانت ترى ميلينا أنها غير كافية. فتلك لم تكن سوى مجرد مساهمات فردية، غافلة عن مصدر سوء تلك الأحوال، ألا وهو الوضع السياسي الذي يمكن زواله فقط عبر التغيرات السياسية. وقد شعرت ميلينا عندما صورت إحدى الجرائد كيف تسلمت سيدة من المنطقة العشوائية منحة مالية من متبرع كريم أن هذا غريبًا وقاسيًا. لقد كان هذا، كما قالت، طريقًا رخيصًا للانسحاب من المسئولية. وسيكلف أكثر من التنازل عن مظاهر الاستعداد لمساعدة الآخرين وتغيير أسباب الفقر. كتبت ميلينا: «العمل الخيري كزهرة بيضاء، تنمو في حوض ممتلئ بروث نتن».

وبالمثل عندما دُعيت الصحف الليبرالية الموجودة في براغ إلى مواجهة الخطر الفاشي المهدد من خلال توحيد القوى الديمقراطية. فهم يتغاضون عن حقيقة أن هتلر قد وصل إلى السلطة في ديمقراطية فايمار من خلال الوسائل المشروعة. ومن مهدوا الطريق له هم: «رأس المال، والقومية،

والشرطة، وكذلك أيضًا الديمقراطية الرأسمالية، التي كانت بمثابة بوابة إلى فضاء الفاشية».

كانت الشيوعية بالنسبة لكثير من الفنانين والمفكرين في أوروبا بأكملها هي البديل الواقعي الوحيد عن هتلر. وكان القائد السوفيتي جوزيف ستالين بالنسبة لهم هو القطب المعاكس لهتلر. فلم يستعن ستالين بوسائل استبدادية أقل من النازيين، كي يحمي بها سلطته، ويبعد عدوه بأساليب وحشية، لا يعلم الأغلبية عنها شيئًا أو ربما حُجِبَت عنهم. فقد عدوا مملكة ستالين كجنة للعمال، يشهد فيها التقدم الآلي والفني ازدهارًا جديدًا. لم يكن لدى ميلينا ويارومير أيَّ تحفظات. فقد أداروا في أذهانهم أمر الهجرة إلى الاتحاد السوفيتي. وعند اتخاذهم القرار، انتصر حب ميلينا لبراغ، فبقيت فيها. بينما كان يارومير على العكس منها مقتنعا أنه يمكن أن تتحقق أفكاره عن الهندسة المعمارية الحديثة والعملية في الاتحاد السوفيتي بشكل أفضل. كان عليه بناء دار نقاهة للعمال والموظفين في القوقاز، فترك براغ في بداية العام 1934، وبقيت ميلينا بها مع هونزا. فالزجاج الهش في زواجها نشأت به فجوات عميقة منذ وقت طويل عبر اضطرابات كثيرة. وهذا جعل القرار أسهل بالنسبة لكليهما.

قبلها بعام، في 30 يناير 1933، عُينَ هتلر مستشارًا للرايخ من قبل رئيس الرايخ باول فون هيندنبورج. فكانت تلك هي نهاية الديمقراطية الفايمرية وبداية البطش الفاشي، وتداعياته التي لحقت سريعا بالدول المجاورة.

«الأم ميلينا» والنظارة العجيبة

«كل من يريد التفكير باستقلالية، سوف يُقضى عليه في الحال»

سماها فرانتس كافكا «الأم ميلينا»، لأنه هو أيضًا قد استهلك من «قوتها المانحة للحياة» في الأوقات السيئة. أما ابنتها يانا، التي كانوا يدعونها جميعًا هونزا، فإلى جانب عينيها الزرقاوين وشعرها المجعد لم تمتلك شيئًا مميزًا من حيوية أمها. كان ينجذب إلى ميلينا كل الناس، الذين لا يستطيعون تدبر أمر مشاكلهم بمفردهم، ويبحثون عن شخص ما يفهمهم، ويمكنهم الارتكاز عليه. وقد كانت ميلينا مستعدة دائمًا، لتحمل أعباء الغرباء، أو على الأقل مساندتهم. وفي الوقت نفسه كانت تترقب بحذر مستمر وتخشى قليلًا من الأشخاص المحتاجين إلى المساعدة الذين كانوا يتشبثون بها، لأنها كانت تعرف أنه لا يمكن أبدًا تلبية توقعاتهم تمامًا. ولا حتى هي، «الأم ميلينا» يمكنها فعل ذلك. لا أحد يمكنه ذلك، ويتجاوز كل القوى البشرية.

أحد هؤلاء الأشخاص المحتاجين للمساعدة كان ايفجن كلينجر ـ أو كما يدعونه بالألمانية أويجن كلينجر ـ وهو شاب يهودي مجري يؤمن بتلك الأفكار الفوضويَّة، لدرجة أنه طُرِدَ من الحزب الشيوعي السلوفاكي. ولبث لفترة طويلة معتقلًا في سجن ميروف، حيث كان يعاني من الدرن في

الزنازين الباردة الرطبة. بعد إطلاق سراحه عاش في قبو ضيق مظلم وخانق في براغ قبل أن تتولاه ميلينا برعايتها. فقد التمس رئيس تحرير سفيت براتساي، وهي جريدة شيوعية، من ميلينا التي كانت تعمل في الجريدة، أن تعتني بالرفيق المريض. فآوته ميلينا لديها، ورعته حتى استرد صحته. ولكن ما لم تضعه ميلينا في الحسبان أن الشاب الذي يصغرها بعشرة أعوام قد وقع في حبها. فبعد رحيل يارومير لم تكن لديها رغبة في الإقدام على مغامرة غرامية جديدة، خاصة أنها كانت ما زالت متزوجة وغير مستبعد عودة زوجها إلى براغ مرة ثانية. ومن ناحية أخرى، أعربت عن امتنانها لوجود شريك يقف بجانبها في تلك الأوقات العصيبة. بقي ايفجن معها، وهو فتى نشيط ذو عقل لطيف. وقد صار صديقا مُفيدًا، وأبًا بديلًا ليانا.

بعد المرض الشديد وعواقبه، وبعد فقدان عملها والانفصال عن يارومير كانت ميلينا في حالة يائسة. وفي أحيان كثيرة لم تكد تعرف ما يجب عليها فعله. وكانت تتوقع أيضًا أن الصحف الليبرالية ربما لن تعد تنشر لها المزيد من مقالاتها. كانت آرائها غير متوافقة تمامًا مع توجهات رؤساء التحرير. بالنسبة إلى ميلينا، لم تعد وسائل الإعلام البرجوازية مثل الصحافة والسينما قادرة على فهم مشاكل الحاضر، ناهيك عن إيجاد الحلول. وكانت تلقي دائمًا باللوم على سوء الإدارة. أُلهي العاطلون عن العمل من خلال الوسائل الترفيهية، وعرض أنصاف الحقائق وتصديرها للأغبياء، بدلاً من توضيح الأسباب الحقيقية لوضعهم، ودعوتهم لكي يستنكروها. على النقيض من ذلك فقد بدا لها أن الشيوعيين يفهمون اهتمامات واحتياجات «المهمشين» بشكل أفضل، لأنهم رأوا أن العديد من المشاكل الخاصة للأفراد تعود لأسباب سياسية. فضلا عن أن ميلينا

قد أُصيبت بخيبة أمل من قبل الكثيرين من زملائها السابقين، الذين تخلوا عنها أثناء مرضها. حتى كلمة «الرفيق» حملت لها وعدًا بأن هناك تضامنًا أقوى وأجمل بين الشيوعيين. لقد كانت تأمل هي والمتعاطفين من ذوي الفكر المشابه في أن يكونوا قادرين على استرداد شغفهم الكبير «للقيام بشيء مفيد للعالم».

كل هذا ربما ساهم في تحول ميلينا لتصير مؤمنة وملتزمة بمبادئ الشيوعية. وعلى كل حال فقد بذلت جهدًا كبيرًا لتصبح واحدة منهم. وقد أدركت أن كثيرًا من آراءها السابقة كانت تنتمي إلى ما يُطلق عليه «البرجوازية الصغيرة». واستسلمت بصبر لما يدعى «الانضباط الثوري»، الذي يتطلب، ألا تتكلم، أو تكتب، أو تفعل إلا ما يمليه النظام الرسمي في موسكو. وكان الامتثال لتلك التوجيهات، مسألة بقاء لميلينا. لأن الصحف الشيوعية كانت هي الوحيدة التي ما تزال تنشر مقالاتها. والمقابل الذي كانت تحصل عليه نظير مقالاتها، يكفي بالكاد لتغطية نفقاتها. لم تعد تتوقع كذلك أيَّ مساعدة إضافية من والدها. عندما عرف في أيِّ الأوساط تتردد ميلينا الآن عليها ومع من تعيش، لم يعد يرغب في فعل أيِّ شيء لها، ومنعها من دخول منزله. كان إرنست بولاك يهوديًا، ثم الكونت شافجوتش، ويارومير كريتسار شيوعيين. وأخيرًا ايفجن كلينجر. لم يكن هناك أسوأ من ذلك بالنسبة ليان يسينيسكي.

ازدادت الأمور تعقيدًا لميلينا. فقد اخبرها يارومير بأنه أحب امرأة في الاتحاد السوفيتي ويريد أن يتزوجها. وافقت ميلينا على طلبه للطلاق. ولأن الشريكان كانا بعيدان جدًا عن بعضهما، فقد تم الطلاق في خريف عام 1934 بطريقة غريبة للغاية. قد رتب محام مكالمة تليفونية بين موسكو

وبراغ، حيث تم فيها تسوية كل شيء. كان زواجها بيارومير قد استمر نفس مدة زواجها بإرنست بولاك، سبع سنوات كاملة. قالت ميلينا في وقت لاحق، إن مصيرها كان دائمًا مرتبط برجال ضعفاء. لم يحتمل هؤلاء الرجال وجود امرأة مستقلة بجانبهم لفترة طويلة. فسرعان ما يبحثون عن امرأة أخرى، حيث يمكنهم احتواءها والسيطرة عليها. بالنسبة لهذه «الدُمية الهَشَّة العابسة»، التي تُثير إعجاب الرجال، فيمنّوا أنفسهم بممارسة أشياء معها، لم يقدروا على فعلها من قبل، تُعاود البحث عن مأوى، وعمل، وسبيلًا لكسب العيش.

كان على ميلينا أن تعيد الكرَّة مرة أخرى. فهي ما زالت قاطنة في الشقة التي كانت تسكنها مع يارومير، ولم تعد قادرة على تحمل نفقاتها. فانتقلت هي ويانا وايفجن إلى شقة أستوديو في شارع هورني سترومكي. كانت تستقل الترام كل صباح للذهاب إلى مكتب تحرير الجريدة التي تعمل بها. في أغلب الأوقات كانت تمكث حتى وقت متأخر جدًا، «باكية من الإعياء». فكانت تخلع حذائها عند آخر محطة للترام، لأن قدمها العرجاء المتورمة كانت تؤلمها بشدَّة، وتعود إلى المنزل حافية القدمين. مع كل خطوة تتذكر، كم كانت معروفة سابقًا بمشيتها الرشيقة؛ وقد صارت الآن امرأة ذات إعاقة؛ وتحن لتلك الأوقات السعيدة مع يارومير، والتي انتهت بشكلٍ غير متوقع بالمرة بسبب مرضها. فمنذ ذلك الحين صارت تعاني من العَرَج والإدمان.

بالنسبة ليانا كان الإبريق الأصفر الصغير الموجود في خزانة المطبخ جزءًا طبيعيًا من الحياة اليومية. لم يكن يحتوي على السكر أو الطحين، بل ديكوديت، دواء للسعال، والذي يحتوي على مادة الكودين من مشتقات

المورفين. وعندما كان يفرغ محتوى الدواء الموجود في الإبريق الصغير، كانت تُضطر يانا أو ايفجن أن يمشّطا صيدليات براغ بحثًا، كي يحصلا على الدواء الذي لا يُصرف إلا بأمر من الطبيب.

لم يكن العيش في شقة أستوديو مثقلا بإدمان ميلينا فحسب. فكثيرًا ما كانت ميلينا تُرحِب بالرفقاء، الذين تبحث عنهم الشرطة ويلزمهم الاختفاء عن الأنظار لبضعة أيام. ليس فقط أعضاء الحزب المقتنعين بمبادئه، هم من يجدوا لديها المأوى الآمن. كانت هناك أيضًا مجموعة تلتقي سِرًا في شقتها، مجموعة تأبى أن تنصاع لأوامر قيادة الحزب بشكل أعمى. وقد أصبح هؤلاء الشيوعيون ذوي التفكير الناقد في خطر، عندما شُهِر بهم على أنهم «تروتسكيون» منشقون، وطُرِدوا من الحزب. انضم إلى تلك المجموعة ذات يوم الشاب فريتس بيير. وقد كان فخورا جدًا بقبوله ضمن تلك المجموعة، وكان معجب جدًا بميلينا على وجه الخصوص. فقد كتب عنها في مذكراته: «لقد كانت دائمًا سريعة التأثر، ولكن لم يكن لديها تحفظ في حبها أو صداقتها حتى تكاد تُمزق نفسها بحسن نيَّة».

أراد بيير حقًا كسب ودَّ ميلينا، وإثارة إعجابها. كان يعلم، أنَّ جاسوسا من الحزب قد تسلل إلى المجموعة، وأخبر ميلينا بقصة مختلقة، أنه قد شَجَّبَ على هذا الشخص لدى قيادة الحزب كعضو في المعارضة. وكان تلويث سُمعة الخصم جزءًا من الحرفية السياسة. وقد توقع بيير الإشادة بفعلته. لكنه كان مُخطئًا، على الأقل فيما يخص ميلينا. فقد شعرت بالهلع. وأطاحت ببيير، عندما أوضحت له بصوت هادئ، أنه لا ينبغي محاربة «القذارة الموجودة في الحزب» بتلك الطرق الوضيعة. لقد أحبَّته، لكنها أنهت علاقتها معه على الفور.

نادرًا ما كانت تحظر ميلينا على أحد صداقتها. فقد ظلَّت مرتبطة بشكل ودِّي بزوجها السابق إرنست بولاك، والذي عاد ليعيش في فيينا مجددا. لقد كان أحد القلائل الذين زاروها في المستشفى. وأيضًا تقبَّلت الوضع بشكل ودِّي مع يارومير، والذي عاد إلى براغ مع زوجته الشابة في أبريل عام 1935. لكن لم يبقَ شيئًا من إيمانه السابق بعالم أفضل في ظِلّ المجتمع الشيوعي. وعلى النقيض فقد أصبح مُعارِضًا قويًّا للشيوعية. فلم يتحقق أيَّ مشروع من المشاريع الموعودة. وانتشرت الحرية والتقدم كواجهة، تُخفي ورائها سوء الإدارة، والفساد، والإرهاب المجرد. وقد تحدث عن عبادة شخص ستالين الغريبة، وعن حقيقة قتل وإخفاء الأشخاص الذين كانوا يتمتعون بشعبية، ولم يجرؤ أحدٌ على مجرد السؤال عنهم. كانت ريفا يهودية من لاتفيا، مترجمته الفورية في الاتحاد السوفيتي. وبفضلها تمكن من مغادرة البلاد وهو لا يزال على قيد الحياة.

ساعد يارومير ميلينا، على إيجاد شقة أكبر، تبعد شارعين فقط، كوريمسكا رقم 6. ولم يفعل هذا بتجرد من المصلحة الشخصية. فقد كُلِّفَ بتصميم الجناح التشيكوسلوفاكي للمعرض العالمي في باريس. وقد كانت هذه هي فرصة رائعة لعودته إلى عمله مرة أخرى. وبسبب انشغاله لم يكن لديه الكثير من الوقت لزوجته ريفا، التي كانت غريبة في براغ، وكان يأمل أن تعتني بها ميلينا. كانت ريفا امرأة صغيرة، لطيفة. سكنت بشكل مؤقت في شقة ميلينا الجديدة، مما أثار استياء يانا، التي لم تستطع تحمل زوجة والدها الجديدة. ومن الواضح أن الجميع قد عانى من طِباع ريفا وعدم استقلاليتها. وبالنسبة ليانا كانت ريفا نموذجا نسائيًا مختلفا تمامًا عن والدتها. وقد أدركت فيما بعد أنه كان مفيدًا أن تتعرَّف على مثل هذا

النموذج «الأنثوي»، وأنها لا تُريد أن يكون لها أي علاقة بِمثل تلك النوعية من النساء في المستقبل.

شَهِدَت تلك الشقة الموجودة في شارع كوريمسكا زيارات عديدة مِن ضيوف كثيرين. ومع بداية عام 1936 كانت تقف فجأة أمام الباب صديقة ميلينا القديمة، أليس جرستل. فقد اضطرت إلى ترك ألمانيا ككثير من المضطهدين الآخرين للنظام الاشتراكي القومي. كان زوجها أوتو رولي في المنفي بالفعل في المكسيك وأرادت اللِحاق بِه. وحالما غادرت أليس جرستل براغ في يوليو، انتقل زوجان ألمانيان صديقان لها للإقامة عند ميلينا. هاينتس ياكوبي كان قد ألقي به في السجن من قبل النازيين. وأصبحت حياته معرضة للخطر منذ أن أُفرِج عنه، فهرب هو وزوجته من ألمانيا. وقد وجدا أول مأوى لهما عند ميلينا. وطبقا لمذكرات هاينتس ياكوبي كانت ميلينا في هذا الوقت قد قطعت بالفعل علاقتها مع الحزب الشيوعي لكنها كانت تُخفي ذلك. وجاء الانفصال العلنيَّ، عندما أعلنت في براغ لائحة تضم أسماء الجواسيس النازيين من أعضاء الحزب غير الموالين له، ومن بينهم العديد من اللاجئين الألمان. وعندما شككت ميلينا في ذلك، حيث إنَّ بعض الأشخاص المدرجين على هذه اللائحة، كانت تعرفهم شخصيًا، ومُحال عليهم أن يكونوا خونة، طُرِدَت من الحزب في اليوم التالي.

كانت ميلينا تشعر بالارتياح حيال طردها بدلاً من خيبة الأمل. كما ظلت متمسكة بتوقها إلى «القيام بشيءٍ مفيد»، لكنها لم تستطع، ولم ترغب في مواصلة العيش في ظِل أشخاص يفرضون عليها ما يجب أن تفكر فيه. وقد أصبحت لا تحتمل الأمر برمَتِه، أن يتم إيضاح شيء ما على أنه خطأ، وقد

كان يتم اعتباره صحيحًا في السابق. كتبت ميلينا في إحدى رسائلها: «كل من يريد التفكير باستقلالية، سوف يُقضى عليه في الحال».

أُتهمَ أيضًا ايفجن كلينجر بأنه «تروتسكي» مُنشَق. فعندما طلب رئيس تحرير جريدة سفيت براتساي من ميلينا أن تنفصل عن ايفجن لهذا السبب، غضبت جدًا من هذا الطلب، لدرجة أنها صفعت الرجل على وجهه، واستقالت ثم صفقت باب المكتب خلفها بقوة. فيما بعد أكدت يانا، التي عاشت تلك المشاهد مع والدتها مرارا، أن ميلينا كانت «رائعة» في صفق الأبواب.

ومع الخروج المثير من سفيت براتساي كانت قد انجلت عن ميلينا «غشاوة الأوهام الرومانسية» بلا رجعة، كما وُصِفَت وقتها في الحزب الشيوعي. رغم أنها بذلك قد فقدت آخر وظيفة لها وأصبحت عاطلة منذ بداية أغسطس 1936. لم يعد أحد من زملائها يُلقي عليها التحية في الشوارع أو المقاهي. وقد ازداد وضعها سوءًا من أسبوع لآخر. فلم تعد تستطيع دفع الإيجار، وقد قطع عنها التيار الكهربائي في الشتاء القارس. وكانت ميلينا وايفجن يترجمان كُتبًا مجرية إلى اللغة التشيكية لصالح إحدى دور النشر على ضوء الشموع، رغم أنهما لم يكونا متأكدين من حصولهما على مال مقابل هذا، أو حتى متى سيحصلان عليه. كانت يانا تزور جدها كل يوم أحد وتتغذى معه. كان يان يسنسكي لا يزال رافضًا رؤية ابنته، لكنه لم يستطع صَدَّ حفيدته الوحيدة. لم تُخبر يانا جدها بشيء عن تلك الضائقة الموجودة بالمنزل، كي لا تزعجه. لكن يسنسكي كانت لديه مصادر أخرى، يعرف منها حال ابنته. وعند الوداع وضع في يد يانا عُملة معدنية ومظروفًا. كانت العُملة المعدنية من أجل يانا والمظروف من أجل ميلينا.

كان الأب العنيد أكثر فائدة من العديد من أفضل أصدقائها، فهو ما زال على الأقل مستعدًا لتقديم المساعدة. بينما أنكر أصدقائها وجودهم عندما كانت تتصل بهم ميلينا، وعندما كانت تزورهم بشكلٍ شخصي، كانوا يتصرفون بطريقة غريبة جدًا، لدرجة أن ميلينا لم تكن تعرف، إن كان ينبغي عليها الضحك أم البكاء. وفي بعض الأيام كانت تبيت وهي جائعة جدًا وحائرة، لدرجة أنها كانت تكتب رسائل تَسوُّل مُفجِعَة لبعض الأشخاص، الذين كانت تجمعها بهم مُجَرَّد معرفة سطحية. كان هذا مهينا جدًا لها. إن هذا بالتأكيد «وقاحة»، أن تطلب المساعدة بهذا الشكل. كتبت إلى الممثلة أولجا شاينبفلوج، أنَّها لم تعد تملك مالاً كافياً حتى لشراء العشاء؛ «أنا فقط أساعد نفسي، من خلال طلب المساعدة من الناس، ماذا يُمكنني أن أفعل سوى هذا؟ [...] والآن آتي إليكِ، يا أولجا، لأنني أعلم أنك تنفقين عن سعة، ومن الممكن أن تتفهَّمي حالتي، وكيف أصارع نفسي وأقاوم. [...] وإنني متأكدة من حتميَّة نهوضي من كل ذلك مرَّة أخرى، يا أولجا. لقد مَررت في حياتي بالعديد من الأمور الصعبة، لدرجة أن جزءًا منها فقط به مادة تكفي لإنتاج خمسة أفلام بائسة. وما زلت هنا ولا زلت أشعر بقدرتي على مواصلة الحياة والعمل».

ولكي تنهض ميلينا مرة أخرى، لم يتحتم عليه العثور على عمل فحسب، بل أن تتخلَّص أيضًا من إدمانها. فأرادت أن تفعل هذا بمجهودها الخاص وحبست نفسها داخل غرفة في شقتها. لم تصمد كثيرًا. فقد كانت عواقب الحرمان لا تُحتمل، لدرجة أنها أمرت يانا عبر ثقب المفتاح، بأن تجلب لها الديكوديت بأقصى سرعة. يانا البالغة من العمر تسعة أعوام، والتي أصبحت مستقلة جدًا وواثقة من نفسها في وقت مبكر، أقنعت سائق

سيارة أجرة أن يأخذها إلى صيدلية نائية، حيث التقت بايفجن، الذي عمل حساب لانهيار ميلينا واحضر معه الدواء المطلوب. عاد الإبريق الأصفر الصغير الموجود في خزانة المطبخ ممتلئًا ثانيةً. وفي بداية فبراير من العام 1937 قررت ميلينا، أن تتقبل المساعدة الغريبة. أُرشدت إلى عيادة في براغ. وعندما زارتها يانا هناك، حكت لها ميلينا، أنها محبوسة في قفص مع العديد من النساء، الموحولات في فضلاتهن ويندبن بأصواتهن الحيوانية ليلًا ونهارًا. أرادت ميلينا أن تصمد هذه المرة بأيِّ ثمن، وبالفعل بعد عشرة أيام تمكَّنت من الخروج بعد أن اكتمل علاجها.

تحررت ميلينا من إدمان مزدوج. إدمان جسدي، واستحواذ عقلي من قِبَل الإيديولوجية، كان الأمر أشبه بالعودة لشخصيتها الحقيقية، عندما تواصل معها فرديناند بروتكا وعرض عليها أن تعمل كسكرتيرة في إدارة التحرير في صحيفة بريتومنوست. كانت ميلينا تعرف الشاب بروتكا البالغ من العمر نفسه الذي تبلغه تقريبًا منذ بداياتها كصحفيَّة. كان بروتكا يساعدها دائمًا، رغم وجود بعض الاختلافات السياسية بينهما، حتى في ذلك الحين، عندما أرادت العودة للعمل بعد العملية التي أجرتها في ساقها أراد أن تعود لوظيفتها مرة أخرى. قال بروتكا عنها؛ «لا يُمكن لأحد العيش مع ميلينا تحت سقفٍ واحد، ولكن يُمكنه العمل معها بشكل جيد. فهي إنسانة مخلصة تمامًا، سواء شاركتها معتقداتها أمْ لا».

كان بروتكا صديقًا مقربًا لماساريك، أول رئيس للبلاد. الذي تنحى في نهاية عام 1935. وخلفه وزير الخارجية السابق ادفارد بينيز. وقد أطلق بروتكا مع ماساريك مبادرة في صحيفة بريتومنوست، لدعم قوى الديمقراطية في البلاد. فكان يكتب بها أشهر الأدباء والصحفيين الموهوبين. والآن يتعيَّن

على ميلينا أن تصبح واحدة منهم. شعرت بأنه عليها أن تتعلم الكتابة من جديد، بعدما تعودت على ترديد الشعارات والعبارات المماثلة دائمًا في عملها بالصحافة الشيوعية. هل كانت غير معجبة بفرانتس كافكا، لأنه لم يفر أبداً، حتى لغوياً، إلى ما يطلق عليه «الجوء وقائي» لإبقاء الواقع في مكانه؟ ولأنه ككثير من الأشخاص، لم يضع أبدًا «نظارة عجيبة»، تكشف أمامه العالم بشكل أفضل أو أيديولوجية تجعل الحياة أسهل، لكنها في الواقع أصبحت أكثر فقرًا، وغير إنسانية في معظم الأحوال. وقد شهد لها كافكا، أنها لا تمتلك فقط الشجاعة لتسديد «نظرة مخترقة»، بل أيضًا لديها «نظرة مساندة». والآن أثبتت ميلينا أنها لم تفقد القدرة على النظر والمساعدة.

سافرت إلى المناطق الحدودية في خريف 1937، كي تقدم تقريرًا عن مصير اللاجئين. ومن بين جيران ألمانيا كانت تشيكوسلوفاكيا هي البلد الأكثر سخاءً، والتي استقبلت المضطهدين من النظام النازي. كان من بينهم مشاهير مثل توماس مان، الذي حصل على الجنسية التشيكوسلوفاكية وأُعطي حق السكن في البلدة الصغيرة بوريتش. ولكن ميلينا لم تهتم بتلك الحالات البارزة، بل بالمهاجرين الكثيرين غير المعروفين، الذين لم يمنحهم أحدٌ الاهتمام أو الرعاية كالكتاب العالميين. جاءت الموجة الأولى عام 1933، بعد وصول هتلر للحكم، فجنح إلى هناك المطاردين سياسيًا. ولاحقًا، بعد إقرار قوانين نورمبرج العنصرية، جاءت موجة ثانية من اللاجئين اليهود. جاء أغلبهم إلى الحدود سيرا على الأقدام، من دون أوراق إثبات شخصية أو أموال. فقد تحتَّم عليهم أن يفروا هاربين وكانوا بحاجة للمساعدة من قبل السكان. تشكلت ما يسمي بدور الرعاية،

وجمعيات المواطنين، الذين كانوا يعتنون باللاجئين. كان منهم من يمنح الطعام، أو يعرض الإقامة، أو يعطي حتى زوجًا من الأحذية، التي لم يعد يستعملها. وعندما أصبح تيار اللاجئين يفيض بشكل أكبر دائمًا، استلزم الأمر إقامة مساكن للحشود، في مباني المصانع الشاغرة، أو في المباني الزراعية نصف المتداعية، وكانت الهيئات تشرف عليها وتنظمها.

زارت ميلينا مناطق مثل كلادنو، وموست، وبرنو وتحدثت مع اللاجئين. لم ترد أن تقدم تقريرًا مُثيرًا عن حالهم كمن يقتات على الجثث مثل «الضباع»، بل كواحدة تهتم بهم، وتريد المساعدة من خلال الكلمة المطبوعة. روت ميلينا قصة فتاة شابة ذات شعر جميل وضحكة عذبة، ضُرِبَت في الجستابو، سجن الشرطة السرية الألمانية في العهد النازي، وأُخِذَ طفلها بعيدًا عنها. روت ميلينا أيضًا قصة شاب عامل وعضو في حركة المقاومة الألمانية، اضطُّر للهرب والتخفي بعد زواجه بأسابيع قليلة، ولم تكشف زوجته الحامل مكان وجوده حتى عندما سُجِنَت. وبعد ثلاث سنوات تمكَّنا من رؤية بعضهما مرة أخرى، واستطاعا الفرار تحت جنح الظلام إلى تشيكوسلوفاكيا حاملان الطفل بين أيديهما.

دعت ميلينا أبناءَ بلدها، لاحتضان هؤلاء الأشخاص الذين أصبحوا بلا وطن، والترحيب بهم «بأفضل طرق ممكنة لإظهار التعاطف والدعم»، وحَثَّت السياسيين لبذل كل جهد ممكن، لدمج هؤلاء اللاجئين، كي لا يصبحوا جسما غريبًا في المجتمع ويستثيروا مشاعر الحقد والمخاوف. كما ينبغي أيضًا إتاحة فرص عمل أمامهم كلما كان ذلك ممكنًا. لأنه أسوأ من جوع هؤلاء الأشخاص، عدم السماح لهم بالعمل، وعدم وجود مستقبل. وقد ظلَّت ميلينا تعتقد أن مستقبل بلادها يعتمد بشكلٍ رئيس على مصير

اللاجئين ورؤية وإدراك المخاطر التي قد تهدد حريتهم واستقلالهم: «إنهم غرباء، يتكلمون لغة أجنبية، وجاءوا من بلد غريبة. ولكن لدينا جميعًا شيء واحد مشترك؛ حيثُ تنقبض قلوبنا بالمشاعر نفسها عند ذكر كلمة الصليب المعقوف. وهذه الحفنة الصغير من اللاجئين يمكن أن تُخبرنا المزيد عن ذلك الصليب المعقوف، فهم شهادات حيَّة على جور كبير وافتراء عظيم».

بالطبع لم يكن الجميع يشعرون بالانقباض نفسه عند ذكر كلمة الصليب المعقوف. ففي إقليم السوديت، تلك المناطق الحدوديَّة التي يسكنها غالبية من الألمان، كان هناك الكثيرين ممن تعاطفوا مع هتلر، وخصوصًا في المناطق الصناعية، التي لم تجتز الأزمة الاقتصادية وأصبح هناك الكثير من الألمان العاطلين عن العمل، فكانوا يتطلعون بإعجاب وغيرة عبر الحدود نحو «الرايخ»، حيث، كما اعتقدوا أنَّ كلَّ شيء هناك كان أفضل. وفي أغسطس 1933 أسس موظف البنك ومدرس الألعاب الرياضية كونراد هنلاين الجبهة الداخلية السوديتية الألمانية، وبعدها بسنتين اُستبدِل الاسم إلى الحزب السوديتي الألماني، واستطاع أن يحصد نجاحاً كبيرا في الانتخابات. ورغم أن هنلاين قد أفصح منذ البداية عن عقيدته المسيحية وولائه للدولة، إلا أنه أصبح مع الوقت ذراع هتلر الممتدة، والذي كان قد قرر منذ وقت طويل، ضم النمسا وتشيكوسلوفاكيا إلى الرايخ الألماني. كان يُعيد استخدام نفس تكتيكه دائمًا. فكان يثور من الاضطهاد المزعوم للأقلية الألمانية في بلد معينة، ويتعلل بالحضور العسكري لمساعدة أبناء الوطن المتألمين لكي يحتل البلاد.

ظهر هذا التكتيك ضد النمسا. فقد ضغط هتلر بشدة على المستشار الاتحادي النمساوي شوشنيج، لدرجة أنه تخلى عن الحكم لقائد

الاشتراكيين القوميين في النمسا. وبمجرد تحقق هذا، تلقى هتلر استغاثة مزعومة من الحكومة الجديدة في 11 مارس 1938 وعبرت القوات الألمانية المتأهبة الحدود. حيث أُستقبِلوا بحماسٍ من قِبَل جزء كبير من الشعب حاملين الأزهار وأعلام الصليب المعقوف. أما الآخرون، ممن صُرِح ضدهم بأنهم «أعداء الشعب»، فقد وجب عليهم منذ تلك اللحظة الخوف على حياتهم.

استهان إرنست بولاك بشأن هذا الخطر الوشيك. فقط في أبريل، عندما استقر الكثير من اليهود والمعارضين بالفعل في غرف تعذيب الجستابو أو انتحروا من شِدَّة اليأس، هرب إرنست من فيينا عبر الحدود المغلقة إلى براغ. فقد أصبح رجلًا مُسِنًا يُعاني من حالة صحيَّة مُعتلَّة. كان قد نجى بالفعل من أزمتين قلبيتين سلفا. وطبقا لرأي أصدقائه فقد كان هذا ثمنًا لحياة مليئة بالجنس، والنيكوتين، والكحول. تلقى زيارة وهو في براغ من يانا ابنة ميلينا، التي كانت فضولية نحو هذا الرجل، الذي سمعت عنه قصصًا كثيرة مليئة بالمغامرات. ومع ذلك لم تستطع بالطبع أن تربط بين تلك الصورة وذلك السيِّد الوسيم الذي شاب فؤاده، واصطحبها مع كلبه الداشهند الألماني إلى محطة الترام.

كانت براغ تَعُجُّ بالفنانين، والأدباء، والصحفيين الذين هربوا من فيينا. لكنها أيضًا كانت بالنسبة إلى كثيرين مجرد «مصيدة فئران»، يريدون سريعا الهرب منها مجددًا، خوفًا من أن تصبح تشيكوسلوفاكيا هي الضَحيَّة التالية لهتلر. لم تستطع ميلينا تَخيُّل، أن بلدها سوف تعاني من مصير النمسا نفسه. صحيح أنها كانت تحت حماية قوى العظمي كفرنسا وانجلترا، والتي كانت متأكدة، من حَتميَّة تدخّلها، إن أقدَم هتلر على المزيد من النزاعات

الإقليمية. تعرفت ميلينا على زوجين شابين في مقهى بللفيو، كانا قد هربا من فيينا وعزما على الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وهما؛ الكاتب الصحفي فيليام إس شلام وزوجته شتفاني. لم يُجبَر شلام على ترك بلده فحسب، بل أيضًا صار مشردًا سياسيًا. مثل ميلينا، فقد كان يكتب للصحف الشيوعية ثمَّ انقلب على أفكارها. وواجه كراهية متناهية من رفاقه السابقين، بسبب كتابه، الذي حاسب فيه نظام ستالين في الاتحاد السوفيتي على «ديكتاتورية الافتراء». وقد اصدر شلام في براغ مجلة أسبوعية، شَنَّ من خلالها حربًا مزدوجة ضد الفاشية والشيوعية. كما كتب أيضًا مقالات لبريتومنوست، والتي كانت تترجمها ميلينا بدورها إلى اللغة التشيكية.

أصبح الزوجان شلام أصدقاء لميلينا. وساعدتهم في الحصول على الأوراق اللازمة للسفر. وعندما حان وقت الرحيل وتحتَّم عليهم الوداع، كان هذا فراقًا مؤلمًا لميلينا. فقد كان «ويلي» شلام، بالنسبة إلى ميلينا، واحدًا من الأشخاص القلائل في حياتها، الذين استطاعت الارتياح لهم بالكامل، ولم تُضمر لهم سوى خالص محبتها. حيث أخبرت فريتس بيير قائلة: «لا استطيع تحمُّل العلاقات الفاترة». وقد عرف ويلي شلام فيما بعد أن ميلينا قد أحبَّته، عندما تلقى منها رسائل وهو في رحلة عبر أوروبا. وقد تم الحفاظ على تلك الرسائل، والتي أعطت انطباعا، بأن رسائل ميلينا إلى فرانتس كافكا كانت؛ «صادقة بشكلٍ رهيب»، ودافئة، وداعمة، وصريحة، ومسيطرة على الرغم من كل ذلك.

ويتضح من ملاحظات ميلينا، أن «ويلي»، كما كانت تُسميه، قد حمّلَه هذا النوع من الحب أكثر من طاقته، أو على الأقل لم يستطع أن يتعامل معه. فكان يقوم بردة فعل ضعيفة وعاجزة حيالها، أو بإيماءات رجلٍ وقور،

غير قادرٍ سوى على الإجابة المهذَّبة. ومقارنة بـ»انفتاحها المعروف»، وقوة مشاعرها التي ليس لها رادع؛ بدت لها تلك الإجابات واهنة تمامًا، وضيقة الأفق. حاولت ميلينا أن تُفهمه، أنها لا تتوقع منه حبًا في المقابل، بل مجرد صداقة عميقة فقط. ولكن ما آذى عزة نفسها، كانت تلك «الصداقة الطيّبة، الوديَّة، الفاترة»، والتي يضمرها شلام للكثير من الأشخاص الآخرين بالكلمات نفسها. فكتبت إليه تقول: «هذه ليست سعادة يا ويلي، أن أقف ضِمن قطيع أصدقائك».

قبل رحيلهما بقليل من براغ قضت ميلينا مع الزوجين شلام بضعة أيام أخرى في البلدة، وجرت محادثة صعبة بينها وبين ويلي. وبناءً عليه كتبت له رسالة توضيحية؛ «لا أعلم تمامًا، كيف؟ لكنني أدرك فقط، أنني أحبك كثيرًا. لكن التوقُّع الأساسي من هذا كان يقيني بأنك لا تحبني. وهذا ما لا تعلمه. إن كنت اعتقدت أنك أيضًا يُمكن أن تُحبني، لكنت قد وليت مسرعة إلى نهاية العالم. كيف تريد توضيح ذلك، هذا لا يهم، لكنَّه صحيح، إنني كنت فقط احتاج إلى صداقتك. أو شيء أكثر بقليل من الصداقة. عندها فقط كان يمكنني أن آتي إليك بهدوء، وأشعر معك بالسعادة الأبدية. فصداقتك كانت هي الأرض الآمنة تمامًا، والعالم الساحر العجيب الذي استمر لبضعة ساعات، اعتبرتها بكل تأكيد هي الأجمل في حياتي كلها. والحقيقة بالضبط، أنك لا تحبني، وإن لديك قلبًا طيبًا، أنت طيِّب معي، ولديك وجه، أحبه جدًا بشكل لا يوصف».

الحب والسياسة

«يجب كتابة المقالات السياسة كرسائل حب»

كان هناك خبر سريع صغير في جريدة عن حادثة وقعت منذ أربع سنوات، لكنَّها لم تفارق مخيلة ميلينا. فقد نُشِر تقرير عن رجال فرقة الإطفاء هناك، الذين تسلحوا في حَيٍّ فلوريدسدورف بفيينا في فبراير عام 1934، كي يدافعوا عن محطة الإطفاء الرئيسة ضد الفاشيين النمساويين. كانت الفرقة تحت قيادة المهندس جيورج فايسل، وهو اشتراكي مناهض للفاشية. في نهاية الأمر اُقتحمَت محطة الإطفاء واُعتقِل جميع الرجال. تحمَّل جيورج فايسل المصاب المسؤولية الكامل عن هذا العمل. وقد سُحِبَ من فراش مرضه، وأُعدم على منصة المشنقة. طُرِحَ السؤال على أحد عشر من رفقائه، إذا ما كانوا مستعدين، لإتباع قائدهم الجديد بالولاء نفسه، الذي كانوا يدافعون به عن مثلهم الأعلى السابق؟ وقد أذعنوا، وتعهدوا بذلك.

ما حرك ميلينا في هذه القضية، هو أن جيورج فايسل هذا، كان مواطنًا عاديًا، وشريفًا وغير معروف لوقت طويل. واستطاع أن يعبر عن معتقداته بطريقة آمنة، ولم يؤثر ذلك على حياته العائلية ولا تقدمه المهني. لكن قد تغير الزمن الآن. لم تعد الآراء الشخصية مسألة خاصة بعد. فقد أصبح مجرد الدفاع عن المبادئ أو التعبير عن الرأي، يعني الاستعداد للتضحية،

أو التعرض للمخاطر، أو حتى المجازفة بالحياة. لم يأمر أحد رب الأسرة جيورج فايسل أو حتى يجبره على التصرف على هذا النحو. وقد فعلها فقط دون نَدَم. فمن يواجه مصيرًا مثل مصير جيورج فايسل، لا يستطيع الهرب من سؤال ميلينا، كيف سيتصرف هو نفسه في موقف مشابه.

وبعد «ضم» النمسا، كان لدى ميلينا هذا السؤال، والذي وجب على كل شخص في بلدها توجيهه لنفسه. القول بأن مستقبل البلاد بين أيادي السياسيين، كان أمرًا سهلًا للغاية بالنسبة لهم، لكن ستكون عواقبه وخيمة في نهاية المطاف. كان الأمر الفاصل، هو كيف سيتصرف كل فرد في حالات الطوارئ. كتبت ميلينا: «نحن بحاجة لمعرفة ما الذي سوف نفعله بالضبط على تلك الأرض، التي نحيا فوقها، وفي المكان، الذي نعمل فيه».. لم تتوقع، أن يتصرف الجميع مثل جيورج فايسل. فهي لم ترفعه إلى مرتبة البطل أو الشهيد، وكذلك لم تحكم على رفقائه. لكنها تشككت، في مدى صحة التكيُّف بسهولة والتحول الواضح لمجرد إرادة البقاء. كانت مسألة كيفية الاستمرار في العيش تحمل القدر نفسه من أهمية البقاء على قيد الحياة. ومن يريد الاستمرار في حياة تُحترم فيها قيم مثل الحرية والمساواة، يجب أن يكون مستعدًا للدفاع عن نفسه. وما تبدو عليه هذه المقاومة يمكن أن يكون متباينًا بشدَّة. فالتحفظ لا يعني الجبن، والعمل يمكن أن يكون سخيفًا ولا طائل منه. كتبت مقالة في بريتومنوست: «يواجه كل منا اليوم مهمة صعبة متمثلة في العثور على الحد الفاصل بين الحكمة والجبن، وبين الشجاعة والتهور. هذا لا يسري فقط على زعمائنا السياسيين، ولكن ينطبق أيضًا على الناس العاديين والبسطاء».

كان همَّ ميلينا الشاغل هو السؤال عن كيفية تصرف الأفراد في المواقف، التي تتعلق بالحرب والسلام، بالحياة والموت. لم تستطع الإجابة على هذا السؤال من على طاولة المكتب. لذا فقد سافرت في ربيع 1938 إلى السوديت، حيث جرت هناك الانتخابات المحلية في مايو. لم ترد أن تكتب مجرد تقريرًا جافة إلى بريتومنوست، بل نصوصًا تبعث الناس من رقادهم. وكان رأي ميلينا عموما، أنه يجب كتابة المقالات السياسية «كرسائل حب، لها الألفة الصادقة عينها، وتحمل القدر من الجدية، والقلق المحموم ذاته. وإن لم تُكتب هكذا، فلن تصبح مقالات سياسية، بل مجرد ورق، لا يتناول شيئًا بداخله».

أصبح الوضع متأججًا بعد ضم النمسا خصوصا في أطراف البلدة المتاخمة للحدود. فقد أعتقد أنصار هنلاين أنهم سوف «يتحررون» قريبا من قِبَل جيش هتلر. فمن كان ليس ألمانيًا أو له اتجاهًا سياسيًا آخر، كان يتعرض لضغط هائل. حتى الأطفال كانوا يشتمون بعض بكلمات مثل؛ «خنزير تشيكي» أو «خنزير ماركسي». وكم كانت الفجوات عميقة بين جماعات السكان والأحزاب السياسية، وقد أصبحت تشعر بها أيضًا ميلينا ثنائية اللغة. فعندما كانت تتحدث الألمانية، كانت تُعامل بطريقة مهذبة في الفنادق والمقاهي. وعندما كانت تتحدث التشيكية، كانت تُترك واقفة أغلب الأوقات. واستطاعت دائمًا أن تتجاذب أطراف الحديث عبر فراستها وطبيعتها المتفتحة، حتى مع أشخاص غير اجتماعيين أيضًا. وطبقا لابنتها يانا فقد كانت ميلينا تُجيد «فن التعامل مع الناس»، سواء كانوا عمالًا، أو لاجئين، أو خصومًا سياسيين. وقد زارت إجمالًا سبع وعشرون بلدية وتحدثت مع أشخاص لا حصر لهم. وحازت على

انطباع من كل هذا، أن الدعاية السياسية يمكنها التسبب بعدم المساواة، والإرهاب الفكري.

في المدن الصغيرة، حيث يعرف الجميع بعضهم بعضا، لم يكن من الممكن، النجاة من الضغط الاجتماعي والسياسي. حتى خارجيًا كانت النزعة تسيطر على كل شيء. وكان أتباع هنلاين يرتدون معظم الوقت ملابس تقليلدية، جوارب طويلة بيضاء وأحذية تنزه ضخمة. وعند المظاهرات في أول مايو كان هذا هو «الزي الرسمي» الخاص بشباب هنلاين. وكان هؤلاء الأطفال والصبيان هم دعامة الحركة. وكان يتم تدريبهم عسكريا وتزويدهم بالنظرة الصحيحة للحياة في قاعات الجمباز الألمانية. وقد تعلموا أن التشيكيين، واليهود والألمان الذين لا يفكرون كالألمان هم أعداء الشعب وأن هناك قائدًا عظيمًا، سوف يضم إقليم السوديت إلى الرايخ.

قد نشأ الأطفال في المدارس على هذا الفكر. فقد كان كثير من المعلمين ينتمون إلى الحزب السوديتي الألماني، وكانوا يُدَرِّبون الأطفال على كيفية رفع اليد اليمني بالتحية النازيَّة، ويُلقِّنوهم أغنياتهم الشهيرة. وقد حُثَ الأطفال أيضًا على أن يحكوا في المدرسة ما قد سمعوه في بيوتهم. فكلما كانوا يحكون بطيب خاطر وبتفصيل أكثر ما يتلقونه على مائدة العائلة، كلما كانوا يُمدحون أكثر وتتم مكافأتهم. كتبت ميلينا تقول: «إن رجل المخابرات الأكثر ذكاءً لا يستطيع أن يستخرج المعلومات من شخص بقدر ما يفلح الأمر مع تلك المخلوقات الصغيرة الفقيرة الضعيفة. حيث تنتشر بوضوح أسرار كل أسرة أمام المعلم، ولم يعد الوالدان يخافا فقط من أرباب عملهم، أو جيرانهم، أو أقاربهم، بل حتى من أطفالهم».

كانت المراقبة تامة أيضًا خارج نطاق العائلات. وكانت ميلينا تلاحظ أعضاء صغارًا من شباب هنلاين في حوالي الرابعة عشر من عمرهم، يقفون لساعات طويلة أمام المحلات اليهودية والتشيكية ويسجلون أو يصورون كل من يشتري من تلك الأماكن. فكل من يرتكب خطأ في المجتمع القومي، أو لا يُشارك في أحد المسيرات، أو من كان اشتراكيًا، أو يرفض المشاركة لأسباب دينية، يأتي اسمه في قائمة سوداء وعليه أن يُقدِّر العواقب. في أسوأ الاحتمالات يفقد عمله. تعرفت ميلينا على عمال، والذين بسبب موقفهم السياسي ظلوا عاطلين عن العمل لعدة سنوات. وكانوا يحصلون على بعض الكرونات كتعويض بطالة، بالإضافة إلى حساء يومي، الذي كانوا يتركونه يبرد، كي يستخدموا طبقة الدهون الرمادية كمادة يدهنون بها الخبز من أجل عائلاتهم الجائعة، عامل آخر، لم يرغب في تغيير طاقم زملائه، فقد عمله، وفي اليوم التالي عُثِر عليه مشنوقًا.

كان من السهل الإساءة إلى سمعة أيِّ شخصٍ، فكان يكفي، مجرد نشر شائعة بسيطة، حتى وإن كانت سخيفة جدًا فهي تأتي بتأثيرها. أو كان يكفي التلميح فقط عبر جريدة «دير كاميراد» الهنلاينية، أن ابنة مواطن ما قد شُوهِدَت مع شخص يهودي. وبصرف النظر عما إذا كان هذا صحيحا أم لا فمجرد أن تكون هناك علاقة تربط بينها وبين يهودي، فإن هذا حكم بالموت اجتماعيًا. كانت ميلينا تسمي اليهود «زنوج أوروبا»، لأنهم كالملونين في الولايات المتحدة الأمريكية لا يُميَزون بسبب مواقفهم السياسية، بل ببساطة لأجل أنهم موجودون، وهم على حالهم. قالت ميلينا: «لا يحتاج الأمر إلى بشرة ملونة، كي تصبح زنجيًا». تحدث

ميلينا في بلدة صغيرة مع طبيب يهودي شاب، والذي اضطر إلى إغلاق عيادته. لم يرد أحد التعامل معه، أو حتى الترحيب به، وذلك بسبب انتشار شائعة، بأنه لديه بداخل شقته «مخزن أسلحة شيوعية». هذا النوع من الإساءة إلى السمعة كان بالنسبة لميلينا أسوأ من أي هجوم قاتل. «لأن الميت»، كما كتبت هي، «يُنقَل إلى المقبرة، حيث يجد راحته. لكن الإنسان، الذي يُجنى عليه بالإساءة إلى سمعته، ينبغي عليه أن يظل حيًّا بينما لا يُمكنه العيش».

جرت الانتخابات المحلية كما كان متوقعا لها. فقد فاز الحزب السوديتي الألماني بأغلبية ساحقة. بسبب أن الأحزاب التشيكية والاشتراكيين قد أصبحوا منقسمين بشكلٍ فوضوي. فإن كانوا قد شكلوا معًا كُتلة ديمقراطية واحدة، كما كان في اعتقاد ميلينا، ربَّما كانوا قد شكَّلوا منافسًا قويًا لحزب هنلاين يؤخذ على محمل الجد. وعموما فقد عدته الخطأ الأضخم للحكومة، أنه لم تُدعَم القوى الديمقراطية في المناطق الحدودية، وخاصة بين التشيك والألمان، الذين لم يكونوا نازيين، ولم توجد دعاية سياسية مضادة، تصمد في مواجهة «دعاية التخويف» الخاصة بالحزب السوديتي الألماني.

وجدت ميلينا أن هذا على الأقل بمثابة تنبيه هام لحكومة براغ، فقد أرسلوا بعد الانتخابات قوات إلى إقليم السوديت، للتواجد بكثافة عددية، وقمع الثورات وحوادث الشغب المتكررة هناك بشكل دائم. لم تصدق ميلينا عينيها، من كلِّ تلك التغيرات التي قد تمت بين عشيَّة وضحاها. فالناس، الذين كانوا يصيحون في الأمس بصوت هادر «هتاف النصر!»، أصبحوا يرددون الآن بصوت لطيف تحية؛ «نهارك سعيد». كما اختفت

السترات والجوارب الطويلة البيضاء من الشوارع. كتبت في تحقيقها الصحفي: «يبدو أن هذا النوع من البشر، والذي يضم أيضًا الألمان التابعين لهنلاين، يُظهر فقط الجسارة، عندما يتمكَّنون من السير بانتظام في جماعات والصياح بصوت هادر. إلا أنهم بمجرد أن يصبحوا مجبرين، على التصرف كأفراد، تذهب عنهم الشجاعة. ولكن دعونا لا ننسَ، أنه لم يرغب أحدٌ منهم في الحرب أو يريدها، بل أرادوا الضَمّ. ضَمٌّ صامت، هادئ، غير دموي، ويقصدون بكلمة غير دموي ألا تسيل دماؤهم هم».

ظهرت تقارير ميلينا من السوديت في بريتومنوست، بفقرات خالية. فقد تدخلت الرقابة هناك واستبعدت سطورًا كثيرة. وبالطبع لم تُحذَف الأجزاء المتعلِّقة بمعتقدات ميلينا الراسخة، بأنه لن يكون هناك ضمًا. فقد كان هذا رأي الحكومة أيضًا أو على الأقل رجائها. فقد عادت وتفاوضت مع هنلاين على حل وسط. كانت محاولة عبثية، ذلك لأن هنلاين كان قد اتفق مع هتلر منذ وقت طويل على استراتيجية ما، تحديدًا المطالبة دائمًا بالكثير جدًا، لدرجة أنه لم يستطع أحد إرضاءه وظهر أن تدخل ألمانيا العسكري صار أمرًا لا مفر منه. كانت تشيكوسلوفاكيا عقبة مزعجة في خطط غزو هتلر باتجاه الشرق. لم تكن التشيك بالنسبة لوزير دعاية هتلر يوزف جوبلز دولة حقيقيَّة، والتشيكيون «شعب قذر»، ويجب عليهم أن يفرحوا، عندما يتم ضَمّهم إلى ألمانيا.

كانت الإقامة الطويلة في إقليم السوديت قد أنهكت جسد ميلينا كما أنهكت روحها. فقد ساءت حال قدمها المريضة، واضطرت لتحمُّل جبيرة لعدة أسابيع شاقة. لكن هذا لم يمنعها من إنجاز كومة العمل في إدارة تحرير بريتومنوست، خاصة أنها لا تستطيع تحمل البقاء من دون عمل.

كانت يانا قد فوتت الكثير من الدروس في المدرسة بسبب مرض وانشغال والدتها، واضطرت ميلينا أن تجلب لها معلّمًا ليساعدها في ذلك. فوجدت طالبًا شابًا يدعى لومير تشيفرني، وهو من تولى تلك المهمة.

لم تكن يانا طفلة ساذجة. لقد كانت «فتاة رائعة» حقا، كما قالت ميلينا ذات مرة، ولكنها أيضًا كانت «وحشًا رقيقًا». أخذت عن والدتها «حساسيتها المرضيَّة» وعن والدها «ضعف إرادة مفزع». اعتادت يانا على أن تكون بين الكِبار، فلم تستطع التعامل مع الأطفال الآخرين، أو التعود على الانضباط في المدرسة. كانت في المنزل أكبر من أن تكون مجرد طفلة لميلينا ربما كانت لها بمثابة «رفيقتها». فكانت الاثنتان تذهبان إلى السينما بحماسٍ وتتنزهان بعدها عبر الشوارع المضاءة ليلًا. لم تعرف يانا الحياة العائلية الطبيعية. وعندما كانت تذهب ميلينا إلى العمل، كان عليها أن تجد بمفردها طريقها الخاص، فطيلة الوقت كان يوجد أشخاص في الشقة، يُعانون من مشاكل.

أصبح والدها يأتي كل يوم للأكل. فقد ساء وضع يارومير، وعاد عاطلًا مرة أخرى بعد المعرض العالمي الذي أقيم في باريس. كان مُفلسا دائمًا ويعاني من مرض القلب. وكان يحمل معه في حقيبته زجاجة رخيصة من البراندي، كان يشرب منها مع ميلينا في فنجان الشاي. أقرت ميلينا قائلة: «يجعلني أشعر بالخوف منه». كما كانت قلقة أيضًا على ايفجن. فلقد انتكس وعاد للسهر طيلة الليالي مع أصدقائه القدامى من الحزب الشيوعي.

اشتاقت ميلينا إلى ويلي شلام العاقل الذي يُعتمد عليه، الآن في أغسطس 1938 كان ينتظر مع زوجته في بروكسل السماح لهم باستئناف سفرهم إلى فرنسا. فذهبت ميلينا إلى القنصلية الفرنسية الموجودة في براغ

وظفرت بأن يحصل كلاهما على التأشيرة الفرنسية. فهي لم تفقد الأمل، في رؤية ويلي مرة أخرى. وإن تطلَّب الأمر لرغبت في التجذيف بزورق حتى أمريكا. في الوقت الحالي لم يبقَ لها سوى الرسائل، التي كانت تصف له فيها الوضع في براغ، وتطلب منه المزيد من المقالات لبريتومنوست، وتقر له بمدى الألم الذي تركه وداعه في قلبها؛ «إنه لأمر موجع ومحزن، ولم ينقطع ولو لدقيقة واحدة، ولا يزال على أشده، لا تستطيع أن تفر هاربًا إلى أيّ مكان، وعليك أن تعاني منه في كل ثانية، وإنه لا يزال يؤلم. [...] إذا رأيت شيئًا جميلًا، هل ستعطيني إياه؟ ولكن كيف يمكنني أن أرى شيئًا جميلًا، في غيابك؟ كل شيء مختلف يا ويلي، العالم بأكمله مختلف. لقد أخذتني إلى مكان ما، والآن بعد أن ذهبت، بقيت بمفردي، وحيدة للغاية. لقد أطلعتني على شيء ما، لم يختفِ، إنه هنا، لكن كيف لي أن أجده وأرى المزيد؟ أحيانًا أتذكر كل شيء أخبرتني به، أود لو أن كل شيء يدور في ذهني من البداية إلى النهاية. وما يزعجني أنني لا أعرف، ما قد أطلعتني عليه، بل أشعر به فقط. لكن كل ما اشعر به اليوم، يؤلمني. كيف تضطر للبقاء بمفردك في العالم، عندما يصبح الأشخاص الذين تفهمهم قليلين، وفجأة تبقى وحيدًا هكذا؟!».

كثيرًا ما كانت تشعر ميلينا أن ويلي قد أساء فهمها، وكان عليها أن تشرح له سبب اتصافها أحيانًا بأنها «حادة ولاذعة»، يحدث هذا فقط نتيجة الحساسية المفرطة، وأنها عندما كانت تضحك عليه، كانت تضحك فقط على نفسها. وما قد آلم ميلينا أيضًا، أن ويلي شلام اعتقد، أنها مولعة به قليلا. فكتبت إليه تقول: «ويلي، سوف أقول لك شيئا، لكن لا تزيد من عذابي. لم أحب شخصًا في العالم، كما أحببتك أنت. ولم أجد تلك الصعوبة عند

التخلص من أحد كما حدث معك. [...] الله وحده يعلم، ما هو مهم لك، وما يُعَد قيمة لك، وما يمكن أن يكون الأفضل لك، لكنني أحبك أكثر، أكثر من كل الحب الذي يُمكنك استهلاكه في حياتك. فأنت لا يُمكنك استنفاد واحد في المائة من هذا الحب، أو حتى واحد في الألف».

أخبرت ميلينا ويلي أيضًا، أنه كانت تسود حالة من الطمأنينة في براغ حتى وقت قريب، ولكن في الوقت نفسه كانت هناك حالة «كآبة رهيبة» في المدينة. فالاضطراب المستمر حول مصائرهم الجديدة جعل الناس متعبين وخامدين. ظهر شعاع طفيف من الأمل، عندما أرسلت الحكومة الإنجليزية اللورد والتر رانشيمان إلى تشيكوسلوفاكيا، والذي كان ينبغي عليه أن يكتب تقريرا عن الوضع في البلد. وعندما عاد رانشيمان إلى إنجلترا في 16 سبتمبر 1938، كان قد كون فكرة عن الوضع هناك. وقد ناشد في تقريره إلى رئيس الوزراء الانجليزي تشامبرلين، أن تُسلم المناطق الحدودية الموجود بها غالبية السكان من الألمان «في الحال» إلى ألمانيا.

وانضم رانشيمان، كما نعرف اليوم، إلى رأي تشامبرلين المقرر بالفعل. وقد التقى رئيس الوزراء الإنجليزي هتلر بمقره في بيرشتسجادن، وتأكد من عزمه على احتلال إقليم السوديت ومن ثم ستنشب حربًا، إن لم يوجد حل آخر لهذا. ومن أجل السلام كان تشامبرلين مستعدًا لأن يتنازل عن السوديت لهتلر، لا سيما بعد أن أكد له هتلر بعدم مطالبته بالمزيد من النزاعات الإقليمية الأخرى. انجلترا وفرنسا، اللتان اعتمدتا على حمايتهما تشيكوسلوفاكيا، أجبرتا رئيس الدولة بينش، على قبول هذا الحل «السلمي» والتخلي طواعيةً عن السوديت.

في تلك الأيام، عندما تقرر مصير بلدها، أمضت ميلينا معظم وقتها في

شوارع وساحات براغ، حيث عايشت الأجواء المتقلبة مع مواطنيها. انتشرت الأخبار ببطء، أن الحلفاء قد خانوا بلدها وتركوها الآن وحيدة، وعليه فقد انتشر اليأس، لأن بلدها الصغير قد تمت التضحية به من أجل سلام مشكوك في حدوثه. في 23 من سبتمبر تم استقبال خبر التعبئة العامة كوسيلة خلاص، فقد احتشد الناس، فخورين وسعداء، لعدم استمرارهم كلعبة عاجزة في يد القوى العظمى، ولكن ليستطيعوا الدفاع عن حريتهم الخاصة.

كتبت ميلينا عن انطباعها قائلة: «لم أواجه في أيِّ مكان جمهورًا يتحرك بتلك السلاسة، من دون كلمات ساخرة، أو عبارات فارغة، أو فشل، أو أثر لأيّ ارتباك. كانت المحطات محاصرة، وعلق أفواج من الناس بالقطارات. لم يكن لأحد أن يبعث الشجاعة في غيره. كان الأمر واقعيا جدًا، وكما أُعلِنت حالة التعبئة العامة، فقد نُشِرت القوات. فصار الناس يمشون في الشوارع، ناكسي رؤوسهم. تخنقهم العبرات، أو الزهو، أو العاطفة، أو ربما الارتياح.. لا أعلم. لكن هناك شيئًا واحدًا أعتقده؛ أنَّ الشعب الذي يتصرف هكذا، لا يمكنه القتال في سبيل المجهول».

لم تحدث حربا. فمن خلال مؤتمر للقوى العظمى في 29 سبتمبر في ميونخ، تقرر ضم إقليم السوديت بكامله إلى الرايخ الألماني. لم تدع تشيكوسلوفاكيا للمشاركة في تلك المفاوضات. وفُرضت القرارات على حكومتها. أصيبت آمال الشعب والمقاومة بخيبة أمل وإحباط عام على مستوى البلاد. ابتهج أتباع هنلاين، حيث تقهقر الجنود المحتشدون من المناطق الحدودية إلى داخل البلاد. ثم تبعهم عشرات الآلاف من اللاجئين التشيكيين والألمان، الذين رفضوا هنلاين وأصبحوا الآن يخشون من الانتقام النازي. وفي بداية أكتوبر عبر الجنود الألمان الحدود.

خاب أمل ميلينا بشكل مفرط من تصرف فرنسا. وكتبت خطابًا صريحًا إلى الكاتب الفرنسي جول رومان، الذي كانت تُجلُّه في فترة حداثتها وهو الآن يُبرر اتفاقية ميونخ. لم تكتفِ فرنسا بخيانة بلدها فحسب، بل انتقدته على «خيانة نفسها». لكن ما أدركته في تلك الأيام بالفعل، هو أن السياسة ليست حكرًا فقط على «السياسيين المحنكين»، بل هي لكل من يلتمسها. فالسياسة، وفقًا لميلينا، مهمة لحياة البشر تمامًا كالحب؛ «إنها تتسلل تحت الجلد، تضايق الجسد، كقميص ضيق، وتستقر في القلب، كالمشاعر الداخلية. [...] وطالما أن غير السياسيين يرون أن السياسة ليست هامة كشؤونهم الخاصة، فلن تبالي الجماهير العريضة بتلك الأحداث، ولن تدرك أن هذه الأمور سوف تسري إلى منازلهم، لتستقر في وعاء الحساء، الذي يتناولونه وقت الغداء».

مع احتلال منطقة السوديت فقدت تشيكوسلوفاكيا ثلث صناعتها ونصف مخزونها الاحتياطي من الفحم. وبالنسبة لدويلة صغيرة؛ أصبحت غير قادرة على البقاء، خاصة مع تدفق النازحين واللاجئين، الذي لا يمكن السيطرة عليه. أراد الكثير من اللاجئين الذهاب إلى بلدان أخرى. ولكن أين يذهبون، إن كانت كل الحدود مغلقة؟ أصبحت ميلينا مرتاعة من أن اليهود تم إجلائهم ببساطة إلى المنطقة المحايدة بين الحدود الألمانية والتشيكية، حيث لا يشعر أحد بالمسؤولية عنهم أو تجويعهم أو تجمدهم من البرد. أما في براغ فقد أصبح الوضع كارثيًا. على الرغم من استقبال اللاجئين في كل منزل تقريبًا، إلا أن المدينة صارت تشبه السفينة، التي امتلأت بما يفيض عن حمولتها. خافت ميلينا، من أن يندفع السكان بلا روية أو عقل، وينتقموا من اللاجئين الأبرياء بسبب خيبة أملهم من خيانة

ميونخ. لكنها حذرت من أن ذلك سيكون بمثابة انهيار أخلاقي عميق، ليس لأحد ذنب فيه.

لم تقدم اتفاقية ميونيخ أي ضمان بأن هتلر لن يستولي حتى على بقية تشيكوسلوفاكيا. وفي الواقع، كانت خطط الغزو جاهزة منذ فترة طويلة. كان هتلر ينتظر فقط فرصة مناسبة. سرى خوف بين اليهود والشيوعيين في براغ من الغزو الألماني. أصبح ايفجن وإرنست بولاك معرضين للخطر. لكن تمكنت ميلينا من مساعدة زوجها السابق. فقد وفرت له مستندًا يثبت أنه مراسل لدى بريتومنوست، وبهذا استطاع أن يرحل إلى لندن في منتصف نوفمبر. لم تستطع بالطبع مساعدة بقية أصدقائها الحميمين. الذين اختاروا طرقًا أخرى للفرار. فقد تجرع الصحفي رودولف توماس وزوجته جريته سُمًا، وماتا بعدها بوقت قصير في المستشفى. عقب ذلك كتبت ميلينا إلى ويلي شلام: «لقد رأيت مع جريته توماس؛ أن الأمر خاص جدًا، إحدى الحريات المتبقِّية ـ على الأقل ما زالت متاحة لبعض الناس ـ وإنه من السخف تمامًا، أن نرغب في حماية الناس من هذا القرار».

هذا الطريق محال بالنسبة إلى ميلينا. كذلك أيضًا كان الهروب أمرًا غير وارد الحدوث. فقد تخلت عن أمانيها لرؤية ويلي شلام مرة أخرى، والوصول إلى باريس أو أمريكا. أحيانًا في الليل كانت تدير مذياعها لتستمع إلى تلك الأصوات والموسيقى القادمة من البلاد البعيدة. وعندما ذُكر ذات مرة اسم مدينة بعيدة، فكرت متلهفة، بأنها كانت تود السفر إلى هناك أيضًا. وردًا على سؤال يانا لها، لماذا لا تفعلي ذلك، قالت: «لأنني صرت عجوزًا وعرجاء».

أرادت ميلينا البقاء في براغ، طالما يمكنها فعل الحد الأدنى على

الأقل. وطالما كانت هناك حاجة لها. ففي عيد الميلاد عانى يارومير من أزمة قلبية. جلست ميلينا معه في سيارة الإسعاف، التي استغرقت ساعات للوصول إلى المستشفي. اعتقد الأطباء أن أمام يارومير مدة قصيرة لمفارقة الحياة، لكنه نجا. كان الأمر صعبًا بالنسبة لميلينا، أن ترى الرجل الذي كان رياضيًا ومرحا في السابق مستلقيًا هامدًا هكذا. وبالطبع لم يكن يارومير يمتلك المال ووجب على ميلينا دفع تكاليف العلاج بطريقة ما. فكرت بقلق حول ما يمكن أن يحدث إذا تم إخلاء سبيل يارومير من المستشفى باعتباره شخصًا ذي إعاقته.

كانت والدة يارومير طاعنة في السن لدرجة لا تجعلها قادرة على الاعتناء به. وأيضًا كانت زوجته ريفا واهنة تمامًا، وعاجزة. استقبلتها ميلينا لديها، مما سبب انزعاجا كبيرا لابنتها يانا. فقد كانت ريفا عبئًا إضافيًا على ميلينا، التي كانت أيامها مكتظة بالعمل في إدارة التحرير، والانشغال بالتدبير المنزلي، بالإضافة إلى ما تقدر على تقديمه من مساعدة لأصدقائها المعرضين للخطر. كانت ميلينا، التي أصبحت في تلك الأثناء تبلغ عامها الرابع والأربعين، قد بلغ منها التعب منتهاه. فهي كانت متعبة بالفعل منذ عام قبلها ورغم ذلك كانت دائمًا تتغلب على نفسها. كتبت إلى ويلي شلام «إنه لمن المحبط، أن الرب لم ينجح أبدًا، في أن يهيئ لي، العضد المناسب لمساعدة الضعفاء».

مازالت قوة مقاومة ميلينا معرضة لاختبارات أقسى. فقد تنحى رئيس الدولة بينش في بداية أكتوبر 1938، وذهب للمنفى في الولايات المتحدة الأمريكية. وأصبح خليفته إميل هاشا دُمية في خطط هتلر. فأثناء زيارة هاشا إلى برلين في مارس 1939، توعده هتلر بغارات جوية على براغ،

حتى رضخ هاشا أخيراً ووافق على ما سماه ضمان السلام، بوضع «مصير الشعب التشيكي والبلد بكل ثقة بين يدي زعيم الرايخ الألماني». وكان هذا يعني، أن بقية تشيكوسلوفاكيا قد أعلنت كمحمية ألمانية. وعلى الرغم من أن القيادة والحكومة قد بقيتا في أيدي التشيك، إلا أنه في واقع الأمر كانت البلاد مُحتلة من قبل الألمان.

خلال ليلتي الرابع عشر والخامس عشر من مارس وصل الجنود الألمان إلى براغ. وصفت ميلينا بعدها ببضعة أيام في جريدة بريتومنوست، كيف عاشت تلك الساعات الدرامية: «عندما رَنَّ جرس الهاتف في الرابعة صباحًا من فجر يوم الثلاثاء، اتصل الأصدقاء والمعارف وبدأت الإذاعة التشيكية في البث، بدت المدينة تحت نوافذنا مثل أيَّ ليلة أخرى. أظهرت الأضواء الصور المعتادة نفسها، وكونت التقاطعات أشكال الصليب ذاتها. فقط ابتداءً من الساعة الثالثة فجرًا كانت الأنوار تشتعل بشكل تدريجي. عند الجيران، وفي المقابل، وبالأسفل، والأعلى، وأخيرًا بمحاذاة الشارع بأكمله. وقفنا في النوافذ وقلنا لبعضنا بعضا؛ هم أيضًا يعرفون ذلك. كنا نوقظ الآخرين عبر الهاتف: أتعلمون؟ نعم، عرفنا. شفق خافت فوق الأسطح، قمر شاحب وراء الغيوم، وجوه لم تفق من النوم، فنجانًا من القهوة الساخنة، وتقارير إخبارية منتظمة في الراديو. هكذا تصلنا الأحداث الكبرى، ببساطة ومن دون توقع. [...] وكالعادة تمامًا تدفقت أفواج الأطفال في الطريق إلى المدرسة في تمام الساعة السابعة والنصف، ومضى العمال والموظفون إلى العمل وكالعادة أيضًا كان الترام مكتظًا. فقط الناس هم من كانوا مختلفين. كانوا واقفين هناك صامتين. لم يسبق لي أبدًا أن أنصت لصمت

الجماهير. لم يكن هناك أيَّ حشود في الشوارع. لم تتم مناقشة الأمر. وفي المكاتب لم يرفع أحد رأسه حتى من فوق المكتب. لا أعرف كيف نشأ هذا السلوك الموحد للآلاف، ومن أين أتى الإيقاع المتوافق للعديد من الناس، الذين لا يعرفون بعضهم بعضا. في 15 مارس 1939، في تمام الساعة الثامنة وخمس وثلاثون دقيقة، دخل جيش الرايخ الألماني إلى ناروِدني. تدفق الناس كالمعتاد على الأرصفة. لم ينظر أحد، لم يلتفت أحد. فقط السكان الألمان رحبوا بالجيش الألماني».

كانت رائحة الورق المحترق تُشَم في كل ناحية من المدينة. حيث كان يُحرَق كل شيء يُدين أصحابه داخل الشقق في المواقد والدلاء، كل ما يمكن أن يكون مضرًا. أحرقت ميلينا ويانا المستندات ووشاح يانا السوفيتي في المرحاض. أسرعت ميلينا نحو الهاتف مرارا وتكرارا، كي تتصل بالأصدقاء. كما اتصلت بوالدها أيضًا. نُسيت كل الخصومات والخلافات في تلك الساعة. فقد أصبح لدى يان يسينيكي وابنته ميلينا الآن خصمًا مشتركًا.

مباشرة بعد غزو الفيرماخت ـ الجيش الألماني النازي ـ شرعت قوات الجستابو في إجراء «اعتقال جماعي». ومُشِطَت البلدة بحثا عن المثقفين اليساريين، واللاجئين، واليهود. أُلقي القبض على الآلاف من المعارضين السياسيين الفعليين أو المزعومين. كما أُعتقِل فرديناند بيروتكا لكن أطلق سراحه بعد عشرة أيام. أصبح ايفجن في خطر محدق. كان لا بد من إخفائه وإخراجه من البلاد بأسرع وقت ممكن. «يجب على اليهود الذهاب من هنا»، كتبت ميلينا إلى ويلي شلام، وأضافت: «لكنني لن أرحل بعيدًا عن هنا».

مهارة الصمود

«الوحدة، هي أكبر لعنة في العالم»

في صباح 15 مارس 1939، كان الجو غائمًا وتساقط الثلوج، عندما أراد طالب الطب الشاب الذهاب إلى المخبز، كي يجلب لنفسه خبزًا للإفطار. لم يكن يدرك شيئًا عن الوقائع التي حدثت في الليل. ظل واقفا في الأزقة الموجودة في نهاية ساحة فنتسل، منتبها لدوي الدراجات النارية وهدير الشاحنات الثقيلة. تتبع الطالب صوت الضجيج، ورأى عند التقاطع التالي قوافل لا نهائية من المركبات العسكرية والجنود، يدخلون إلى المدينة، جنود يرتدون الزي العسكري الألماني. كان الطالب نفسه ألماني المولد، ويحمل ملامح آريَّة، طويل القامة، نحيف، أشقر، وأزرق العينين. حتى إنه كان يحمل لقبًا نبيلًا؛ يواخيم فون تسدفيتس. إلا أنه كان أيَّ شيء آخر سوى أن يكون نازيًا. وقد حصل مؤخرا على الجنسية التشيكوسلوفاكية وأسس ناديا ديمقراطيا. كان يكره هتلر وقد أثار مشهد الجنود الألمان في براغ غضبه.

نسي أمر الخبز وركض إلى أصدقائه اليهود، كي يحذرهم، ويؤكد لهم، أنه يريد مساعدتهم. بعدها بيومين وقف شابًا بريطانيا يدعى هارولد ستوفين أمام بابه. أخبره، بأنه يعمل مدرسًا للّغات في معهد إنجليزي في براغ، ولكنه قد انضم الآن مع رجال ونساء آخرين من المعهد، للعمل على

تهريب الأشخاص المعرضين للخطر عبر الحدود إلى بولندا. كان فون تسدفيتس مستعدًا للمشاركة معهم في الحال. ساروا معا إلى شقة صحفية تشيكية، حيث يختبئ الناس، الذين يبحث عنهم النازيون. كانت الصحفية هي ميلينا والمخبأ هو شقتها الموجودة في شارع كوريمسكا.



يواخيم فون تسدفيتس
مصدر الصورة: Verlag Neue Kritik

تمت الإفادة من الطالب النبيل بشكل جيد. أولا بصفته ألمانيًا، وملامحه الآرية، مما جعله غير مشتبه به. وثانيًا كان يمتلك سيارة ايرو

رياضية سريعة، ثنائية الاسطوانة. ومع ذلك كان فون تسدفيتس، أيضًا مثل مدرس اللغة الانجليزية، عديم الخبرة تمامًا في العمل السري. والأمر الأعلى في أولويات عمل المقاومة، هو أن تتصرف تحديدًا بطريقة غير ملفتة قدر الإمكان، لكنه كان عاجزًا عن الالتزام به. ففي كل مكان كان يظهر فيه بسيارته الرياضية الهادرة، وصوته البروسي المميز، كان يلفت الأنظار جدًا بصوته العالي، كما وصفته يانا لاحقًا، «كحشد من القردة المذعورة». ولكن ربما كانت غفلته وسلوكه الملفت للأنظار تمامًا هما أفضل تمويه. وعلى كل حال فهو لم يُضبط أبدًا.

أصبحت شقة ميلينا مأوى للجنود التشيكيين، واليهود، والمطاردين سياسيًا. كان فون تسدفيتس يذهب بالواحد تلو الآخر إلى الحدود البولندية. وفي أثناء ذلك كان كثيرًا ما يتعرض لمواقف خطرة، خاصة عندما كان يُراقَب من قبل الجنود الألمان أو عندما يصاب أحد اللاجئين بحالة من الذعر. في بعض الأحيان لم تكن الرحلة لتبدأ، لأن المرشح للرحلة لا يستطيع التخلي عن ممتلكاته ويريد أن يأخذ معه أكثر مما يحتمله مكان المقعدين الضيق. أيضًا فالتر تشوبيج، ناشر جريدة براغر مُونتاج، قد أُنقِذَ بتلك الطريقة. وعندما اقتربوا من الحدود تعرضوا لحادث مع راكبة دراجة، وقد اعتقد تشوبيج وقتها، أن كل شيء قد انتهى. غير أن فون تسدفيتس نجح مجددا، في التخلص من هذا المأزق. وبعد سنوات، عقب إنهاء الحرب، شكر تشوبيج منقذه في رسالة قائلا: «المسكينة ميلينا يسنسكا! يا لها من شُجاعة عظيمة! لقد تم إخراجي من البلاد عن طريقها. لقد أمضيت آخر ليلة، كما تعلم، لديها في الشقة، حتى

أتيت وأخذتني. لن أنسى أبدًا هذا المعروف. لقد كانت ميلينا متحلية ببسالة منقطعة النظير».

كان الوقت ينفد لدى ايفجن كلينجر. وتنقصه الأوراق اللازمة ليستطيع الفرار عبر بولندا إلى بلد آمن كانجلترا أو الولايات المتحدة الأمريكية. فعلت ميلينا كل شيء للحصول على تلك الأوراق ولجأت أيضًا إلى ويلي شلام الموجود في نيويورك. في هذا الوقت زارت يابنا جدها مجددًا. بعد تناول الغداء معًا، انزوى يسنسكي خلف جريدته كالمعتاد، عندما سأل بشكل عابر عن «السيد كلينجر». تمتم يسنسكي على إجابة يانا بأنه يريد السفر إلى انجلترا، فقال متذمرًا: «سوف ينتظركم هناك، وربما يفكر، أن هناك من سيستقبله عند وصوله، أليس كذلك؟»، ثم نهض، وبحث في درج مكتبه، وأعطى لحفيدته ورقة نقدية أجنبية وعلبة. وقال جدها: «أعطيه هذا، كي يكون لديه شيئًا للبداية. فليس من الضروري أن يجوع». ثم توارى خلف جريدته مرة أخرى. لاحقًا عندما فتحت ميلينا علبة والدها، بكت، كفتاة صغيرة مثل يانا. فلقد كان بداخل العلبة سن ذهبي كبير والساعة الذهبية، التي تلقَّاها يسنسكي عند نيله إجازة الدكتوراه.

في يوم 24 أبريل كان الوقت قد حان. وكان يوجين هو التالي، الذي سوف يوصله فون تسدفيتس إلى الحدود. فعندما هرع بسيارته، كي يحضر ايفجن، دهس كلبًا أمام منزل ميلينا. لم يصب الحيوان، إلا أن أناساً غاضبين قد تجمهروا، وتم إقناعهم بمشقة، بأنه ليس نازيًا. ودع يوجين ميلينا، التي رأته للمرة الأخيرة من النافذة، وهو يختفي عند الناصية. كتبت إلى ويلي تقول: «ما زالت الناصية موجودة. أحيانًا أفكر بأنه ينبغي عليَّ الهرب، فقط عبر الذهاب إلى الناصية، لكن يُخيفني اختفاء ايفجن هناك».

حاول ايفجن حتى آخر لحظة إقناعها بالفرار معه. إلا أن ميلينا كان لديها شعورا بوجوب البقاء، طالما يمكنها أن تفعل شيئًا. والقيام بشيء ما، كان يعني أيضًا، الاستمرار في الكتابة لبريتومنوست. ففي الأيام، التي سُجن فيها مديرها بيروتكا، تسلمت هي إدارة الصحيفة بشكل غير رسمي. وأيضًا بعد عودته ظلت هي صوت المقاومة الأهم في إدارة التحرير. كانت الأوضاع مختلفة بلا شك وقتها. فقد كان المحتلون يحتملون الصحف التشيكية فقط، طالما أنهم لا يجدون بها أصوات معادية لألمانيا. لذلك لا يمكن التعبير عن انتقاد الأسياد الجدد إلا بحذر شديد وبشكل متواري. كانت ميلينا قد سبرت الحدود بالفعل بمقال، اقترحت فيه على الألمان، كيفية التعامل مع التشيكيين. فالكلمات الدالة عند النازيين كالمنطقة، أو الوطن أو الشجاعة تصبح لها معاني مختلف تمامًا في آذان التشيكيين. كتبت ميلينا تقول: «عندما أشاهد في بعض الأحيان صورًا قديمة جدا، لبرلين ـ فيينا ـ روما، حيث يقف الناس مثل الجدران، وترتفع الحواجز بشكل مضبوط، وتنتشر أعداد هائلة من الرايات واللافتات، وطوابير متحركة وكشافات ساطعة، يخطر ببالي دائمًا؛ أن مثل هذا الشيء لن يكون ممكنا عندنا». وصفت ميلينا الناس الموجودين في التشيك بأنهم محبون للسلام، وروح الدعابة، ويُعرضون عن التصرف بغرور، و«ودودون وبسطاء» نوعا ما. وإن أراد الألمان العيش بسلام مع التشيكيين، كما كانت توصية ميلينا، فعليهم إذا أن يحترموا خصوصية هذا الشعب.

كان هذا تطاولا، إن لم يكن جرأة. لم يكن أحدًا ليندهش، إن عوقبت ميلينا بمنع الكتابة بعد الاحتلال بوقت قليل. ورغم مقالاتها المشاكسة

كانت تعلم، أن النقد السافر والمقاومة الصريحة بلا جدوى، بل إنهما سخيفان. فالتضحية بالحياة مع لافتات بطولية من أجل البلد، شيء مرغوب فيه بالنسبة لآخرين، أما بالنسبة لها فكان «هراء خطيرًا». ناشدت أبناء بلدها ترجوهم قائلة: «يجب علينا أن نحيا». كانت تلك دعوة للحفاظ على عزة نفوسهم، وليس للمبالغة في المقاومة، ومواجهة النازيين بسكاكين المطابخ.

ربما أثار البحث عن موقف مُشابه لدى ميلينا، ذكرى ذلك اليوم مجددا، عندما كانت فتاة صغيرة واقفة في النافذة، ورأت والدها بين حشد من المتظاهرين، وعندما أُطلقت الأعيرة النارية، تفرق الجميع بينما ظلَّ هو واقفًا، لمساعدة شخص مصاب. تصف ميلينا هذا التصرف أنه «مهارة الصمود»، أن تحمي أحدا من الفرار تحت التهديد أو افتعال أعمال عبثية: «الأشخاص، الذين يتملكهم هاجس الخوف، وتنتابهم مشاعر؛ الحزن، أو الهلع، أو انعدام الأمن، أو الشعور بالوحدة، فيتحركون بسرعة ويهربون للأمام أو يتقهقرون إلى الخلف. فيندفع بعضهم لأعمال عنف وتخريب جبانة. وبعضهم يتظاهرون كأنهم شهداء، على الرغم من أنه لا يطاردهم أحد. إنها طبيعة الخوف التي لا تسمح لأحد، بالبقاء صامدًا». فالخوف بالنسبة لميلينا يُحبط الناس، فيصبحون وحيدين، وينسون أنهم ليسوا بمفردهم في هذا العالم، بل ينتمون إلى المجتمع. كما كتبت، «ربما تكون الوحدة هي أكبر لعنة في العالم».

كانت ميلينا صامدة بلا شك، والصعوبة تكمن في العثور على الوسط الملائم بين الحذر والالتزام. وغالبًا قررت ميلينا أن تجد كلمات واضحةً، بدلا عن الصمت بسبب الحذر. وهذا حتمًا جعلها في صراع مع السلطات

الألمانية. في المكتب الصحفي ببراغ، جلس لتوه ضابط من وحدات الإس إس ـ قوات الأمن الخاصة ـ فولفرام فون فولمار، الذي كان عليه أن يراقب ما إذا كانت المجلات ودور النشر تلتزم بمواصفات وجهة النظر الاشتراكيَّة القوميَّة. اضطرت ميلينا للاحتكاك به عن قرب وبشكل منتظم ثم تطورت العلاقة بينهما. تعامل فون فولفرام مع هذه الصحفيَّة النبيهة باحترام، حتى لو لم يكن يثق بها. ورغم أن تلك الاستجوابات كانت «تضني الأعصاب بشكل مفزع» بالنسبة لميلينا، لكن ربما اعتقد بعضهم، أن أحاديثها مع الضابط المثقف قد أسعدتها أيضًا. ويشهد لميلينا مرات عدة، أنها تلف الناس حول أصابعها بشيء من الفرح، وتسلب عقولهم بجاذبيتها وفصاحتها، حتى يصدق المرء قصصها المليئة بالمغامرة. وقد ذكرت ابنتها يانا بعض تلك القصص، ومنها أنها ذات مرة كانت تسرق أزهارًا من حديقة في براغ وقبض عليهما حارس الحديقة. وقد أقنعت ميلينا الرجل بأنها أرادت فقط تزيين أحواض الزرع، بأن تستأصل منه الأوراق والبراعم الذابلة. حتى إن الحارس قد شكرها أخيرًا وتأسف لعدم وجود أشخاص يقظين مثلها في براغ.

لم يدع فولفرام فون فولمار ميلينا تضلله بسهولة، خاصة أنه كان يدرك تمامًا أن ميلينا لن تتعاون أبدًا مع الألمان. هل كان هو من أرسل السياسي التشيكي ايمانويل مورافتس إلى ميلينا، لإقناعها بالتعاون مع النازيين؟ وقد وعدها مورافتس بتصعيد مهني كبير في عملها كصحفية وكاتبة. لكن دون جدوى. وقد عين المحتلون مورافتس كوزير للتعليم والتثقيف الجماهيري. بينما بقيت ميلينا على ما كانت عليه، صحفيَّة مزعجة، ومُهدَدة دائمًا بحظر الكتابة والاعتقال. كان فون فولفرام يقرأ مقالاتها بعيون يقظة،

لكن لم يستطع أن يحدد خلالها بالضبط، إذا ما كانت معجبة بالنازيين، أو تكرههم، أو تسخر منهم.



ميلينا المريضة

مصدر الصورة: **Verlag Neue Kritik**

كانت ميلينا على ثقة من أن قارئاتها وقرائها فهموا ما تريد قوله. وأحيانًا أيضًا كانت تتخلى عن كل الدبلوماسية والغموض. ثم ناشدت مواطنيها ألا يفقدوا الاعتزاز بأنفسهم، وألا يقتنعوا بأنهم أقل شأنًا، وأن عليهم الخضوع إلى السلالة المسيطرة. فإدراك هذا التكافؤ، الذي ينكره عليهم الألمان، لا ينبغي لأحد، وفقًا لميلينا، أن يفقده: «هذا ما يجب أن يحدث؛

فليعبر كل منا بصوتٍ عالٍ وبوضوح، احبوا المثابرة العنيدة، قدّروا البسالة والشجاعة، وإذا اشتدت المحنة لا تخافوا من أيِّ شيء، إذ إنه ليس هناك داعٍ؛ فقط قولوا الحقيقة [...]».

هل قرأ يان يسنسكي تلك السطور؟ إن كان قرأها، فسيكون قد أدرك أن ابنته الآن صارت تحب وطنها بقدر ما يفعل. ولكن ظلت هناك اختلافات حاسمة في هذا الصدد بين الأب والابنة. كانت ميلينا وطنية، لكنها لم تكن قوميَّة عنيدة. كانت فخورة بأنها تشيكية، لكن ذلك لم يكن سببًا لها، في كراهيَّة أو قتال من ينتمون لأمة أخرى. فشخصية الإنسان كانت أهم لها من أصله أو دينه. ولم يخطر ببالها، أن تدعو إلى شنّ هجمات على المحتلين الألمان. حتى إنها أبدت تعاطفًا مع الجنود الألمان، الذين كانوا يواسون النساء التشيكيات اللاتي كُنَّ يبكين في ساحة فنتسل. وعندما كتب لها أحد القُراء، أنه يحب قراءة مقالاتها، لأنه يعتقد أنها «تشيكية خالصة»، أجابته: «بالطبع أنا مواطنة تشيكية، لكنني أحاول قبل كل شيء، أن أكون إنسانة سَويَّة».

كانت ميلينا بالنسبة إلى ايفجن تُمثل في المقام الأول «رمزًا للمقاومة». هروبه كان ناجحًا. شَقَّ طريقه إلى لندن، لكن من دون ميلينا شعر بأنه «نصف إنسان». ومثله كان إرنست بولاك، الذي مكث في لندن أيضًا، كما كتب لميلينا، وكان حزينًا ووحيدًا. فواسته ميلينا ووصفت له براغ الفاتنة في فصل الربيع، حيث أزهر البلسان والياسمين في كل مكان، حتى مع إدراكها، أن إرنست كان يعرف ذلك. ما هي الكلمات التي ينبغي عليها أن تُنهي بها الرسالة، لأن كلاهما يعرف، بأنهما لن يلتقيا مرة أخرى؟ كتبت أخيرًا: «إلى اللقاء! لا أدري. لعله الوداع. كم

من الأصدقاء لدى الآن في العالم، آه يا إلهي! لا بأس يا عصفوري. فالعمر ينقضي».

فُرِضت القوانين النازية المعادية لليهود في الدولة الواقعة تحت الحماية. وصُنِّفت الممتلكات اليهودية على أنها «آرية»، بينما اليهود رُحِلوا إلى معسكرات الاعتقال. في اللحظة الأخيرة، تَمكَّن ماكس برود من الفرار من مسقط رأسه، حاملًا معه حقيبة مليئة بمخطوطات صديقه فرانتس كافكا. كانت ميلينا لا تزال بحوزتها رسائل كافكا. وخشيت من وقوعها في يد الجستابو أثناء المداهمات المتكررة لمنزلها. فتوجهت إلى صديقها ويلي هاس، الذي كان يهوديًا ويستعد أيضًا للهروب. وقد أبدى هاس استعداده بأخذ الرسائل معه إلى خارج البلاد، حيث ستكون هناك أكثر أمانًا. لكن عندما غادر هاس براغ، بدا له أن بقاء تلك المجموعة معه سيكون محفوفًا بالمخاطر، لذا فقد فخبأها لدى أقاربه في براغ.

ظلَّت ميلينا تحث أصدقائها على الانتقال إلى بر الأمان. وقد قدَّم لها أحدهم تأشيرة دخول إلى إنجلترا. لكن رفضتها ميلينا. فهي لم تشعر بأنها مُهدَّدة، ولم تستطع فهم، كيف يُمكن للناس مغادرة بلادهم من دون سبب حقيقي ومُلِحّ. وقد ثارت بالفعل على طبيب، أراد الهجرة مع أُسرته، لأنه لم يعد يرى لنفسه مستقبلا مهنيا في براغ، وزلَّ لسانه بأنه يريد حياة «أكثر راحة» في أيّ مكان آخر. وعلى النقيض كان هناك مُزارعًا مثاليًا، تحدثت معه ميلينا في ضواحي براغ. لم يُفكر أبدًا في التخلي عن منزله، وحقوله، وأشجار فاكهته. وردا على سؤال ميلينا، عما إذا كان غير خائفا، أجابها قائلًا: «يموت الإنسان مرة واحدة فقط. وإن مات خوفًا قبل نفاد أجله، فسيكون قد حكم على نفسه بالموت قبل وقت رحيله».

كان هذا النوع من المزاح لميلينا أفضل علاج من المخاوف المبالغ فيها. فينبغي على كل الأشخاص غير المُهددين، البقاء في البلاد والقيام بواجبهم. ورأت أن واجبها هو الاستمرار في الظهور من خلال بريتومنوست لمساعدة المطاردين والاعتناء بهم. لكن إلى متى سيحتمل الألمان الجريدة؟ أجهدت ميلينا طاقة فولفرام فون فولمار حتى نفد صبره بحلول نهاية يونيو عام 1939. فقد ثار فولفرام فون فولمار غضبًا، عندما كتبت ميلينا مقالة، أشادت فيها بمدى قوة الجنود الألمان ومهابة مظهرهم. حيث ورد في مقال ميلينا وصفها الأصوات الصادرة عند مرور الجنود التشيكيين تحت النافذة، لا يُسمع سوى قعقعةً ناعمة. لكن عندما كان يمرُّ جندي ألماني بمفرده أمام أحد المقاهي، كانت ترتج الكؤوس، ويتساقط الطلاء من الأسقف. وعلى ما يبدو، أنها اقتبَست ذلك من أغنية أعجبتها، من إحدى الأغاني التي تمجد الجنود، الذين يعيشون على المدافع، ويصنعون طعامهم من فرم لحوم أصحاب كل عِرق أجنبي. بالطبع كانت تعرف ميلينا، أن هذه الأغنية لم ولن تُغنى أبدًا للجندي الألماني، ذلك لأنها تنتمي تحديدا إلى مقطوعة أوبرا للشيوعي برتولت بريشت وتعرض محاكاة تهكمية لجنون العظمة لدى الجيش الألماني.

ربما شعر الكثير من الألمان بالتملق حيال مقالة ميلينا، ولكن ليس فولفرام فون فولمار، الذي كان يعرف أوبرا البنسات الثلاثة لبريشت والذي كشف أيضًا السخرية الخفيَّة الموجودة في جميع المقالات. لعبت ميلينا دور البريئة الساذجة وأثارت بهذا غضب فون فولمار إلى حدٍ أنه طردها من مكتبه. أجاز لها مقالة أخرى عن العواقب الاقتصادية للاحتلال. وبعدها كانت النهاية.

تلقت ميلينا حظرًا من الكتابة، وفي نهاية أغسطس تمت أيضًا مصادرة بريتومنوست. لم يعد لدى ميلينا الآن أيّ دخل واضطرت إلى تسليم جواز سفرها. كتبت إلى ايفجن تقول: «إن كنت أنت نصف إنسان، فأنا قد صرت خائرة القوى. ارتكبت الكثير من الحماقات والأشياء غير الضرورية في يوليو.[...] نحن نعيش، دون أن ندرك كيف نعيش. وننتظر حدوث شيء، دون أن نعلم ما سيحدث. فهناك شيء ما على وشك الحدوث، لكننا لا نعلم، ما هو». الشيء الذي كان على وشك الحدوث هو الخوف من الحرب. فقد زادت حدة إشارات هتلر المهددة لبولندا بشدَّة. ومطالبته بالمجال الحيوي في الشرق كانت بمثابة تحذيرات واضحة، بأنه لن يكتفي بالغزوات السابقة.

جاءت العطلة الصيفية في براغ. حيث كان الهدوء يغلف كل شيء في المدينة. فرَّ الكثير من السكان إلى الخارج، بينما مضى إلى الريف معظم من بقي منهم. ظنوا أنها ربما تكون فرصتهم الأخيرة للاستمتاع بالصيف حتى وقت طويل لاحق. أرسلت ميلينا ابنتها يانا إلى مخيم صيفي في مدلوف. لكنها أحسَّت بالوحدة في براغ المهجورة. بعد بضعة أيام تبعت ابنتها واصطحبت معها يارومير الذي تعافى لتوه من جديد وريفا. تشاركت معهما ميلينا ويانا في أحد المنازل الخشبية الصغيرة، التي تقع على بحيرة في الغابة. وبشكل تدريجي ازدادت أعداد القادمين من براغ إلى مخيم العطلة، طلاب، وصحفيين، وفنانين. سادت أجواء غريبة، مزيج من انعدام اليقين، وخشية المستقبل، والحماسة. كان بعضهم يتنزه في الغابة، أو يسبح في البحيرة، أو يجلس مساءً بجوار نار المعسكر، حيث تُقام الألعاب وتُعرض المسرحيات، يثملوا، ويضحكوا، ويصغوا أحيانًا

إلى آخر الأخبار التي تُبث عبر المذياع. ووفقًا لمذكرات يانا كانت تقلبات مزاج ميلينا متطرِّفة بشكل خاص. فمرة واحدة تصبح «سعيدة بجنون»، ثم «مستاءة بشدَّة». وفي غسق الليل، عندما لا ترى أحد، كانت تسبح بساقها المتصلبة في البحيرة.

بعد ذلك في الثالث والعشرين من أغسطس، وصل خبر توقيع هتلر وستالين معاهدة عدم الاعتداء إلى المصيفين المستجمين عند بحيرة الغابة. فكان هذا بمثابة صدمة لكل من رأى أن ستالين هو الخصم الوحيد الفعلي المكافئ لهتلر. لكن ميلينا لم تفاجأ. فقد حذرت العمال قبل عام مضى، من الوقوع في فخ «الدعاية التبشيرية» القادمة من موسكو. حين كتبت في أحد مقالاتها السابقة بصحيفة بريتومنوست؛ «لن يأتي أيَّ منقذ، من أيِّ مكان». فلقد تم استغلال الأفكار القديمة عن الحرية والْحِقَ من قبل النازيين والشيوعيين لخدمة مصالحهم، لكنهم يعتقدون أن تلك الأفكار سوف تظل على قيد الحياة، حتى إن اختفت تلك الإيديولوجيات لزمن طويل.

خدمت المعاهدة بين هتلر وستالين في البداية كلا الجانبين، وذلك بعدم اعتراض طريق سياساتهم التوسعية العدوانية. وقد أمر هتلر في الحادي والثلاثين من أغسطس بالهجوم على بولندا. لكن هذه المرة لم تسكت القوى الغربية. فقد أعلنت فرنسا وإنجلترا الحرب على ألمانيا. علمت ميلينا بهجوم الألمان على بولندا وهي في ميدوف. وقد أصبح واضحا الآن أنه حتى لو رغبت في ذلك، فإن الفرار قد صار مستحيلا. عادت إلى براغ مع يانا بالقطار. وعندما أصبحتا في شقتهما مجددا؛ قالت: «قد مضى زمن الراحة وانتهى الآن بلا رجعة».

يواخيم فون تسدفيتس، «يوتشي» كما كان يُدعى، أصبح جالسا الآن في شقة ميلينا عاطلا عن العمل. فلم تعد هناك مهام أخرى مطلوبة منه. وقد انتهى وقت رحلات التهريب إلى الحدود. حيث أُغلِقَ طريق الهروب إلى بولندا. لا يزال الأشخاص المضطهدون يلتمسون الأمان عند ميلينا. يجلس الجميع في شقتها مساءً، يشدون الأغاني، ويقرؤون الكتب، ويتقاسمون بعض الأطعمة القليلة، التي ما زالت ميلينا تستطيع تدبرها. أصبح طعام العشاء «غريبًا» شيئًا فشيئًا، قالتها ميلينا بدعابة تحمل الكثير من المرارة. كل ما استطاعت فعله لضيوفها المختبئين، هو مساعدتهم في الحصول على الأوراق اللازمة، التي يحتاجونها للابتعاد عن «مصيدة الفئران» في براغ. كانت ميلينا تسمع يوميًا عن أصدقاء ومعارف، معتقلين. في الثالث من سبتمبر أُعتقِلَ فرديناند بيروتكا مجددًا. حمَّل هذا الموقف زوجة بيروتكا أكثر من وسعها فأصبحت مرتبكة وعاجزة تمامًا، حينها تولت ميلينا مهمة إحضار صندوق ملابسه إلى قصر بِتشِك، حيث كان مقرًا للجستابو. لم تستطع ميلينا فعل المزيد لرئيسها. هذه المرة لم يسمح النازيون لبيروتكا بالذهاب. ونُقِلَ إلى معسكر اعتقال داخاو.

كانت ميلينا مراقبة باستمرار من رجال الجستابو. وإن كان صحيحًا ما يدعيه مختلف شهود العيان وأصدقاء ميلينا، أنها قد علقت نجمة اليهود الصفراء على ياقة معطفها احتجاجا على قوانين النازيين العنصرية، وبما يشبه المعجزة تقريبًا، أنها استطاعت العودة للتجول بحرية في براغ. وعلى الرغم من الخطر الشديد، لم تفكر ميلينا في أن تزداد حذرًا أو حتى تتخلى تمامًا عن أنشطتها المتمرّدة. كانت على اتصال مع مجموعات مقاومة مختلفة، وواحدة منها، التي كوَّنها الجندي السابق يوزف

شكالدا، كانت تصدر جريدة تحت عنوان فبوي، وهو ما يعني غالبًا: «في قلب المعركة». كتبت مقالات لتلك الصحيفة السرّيّة، تفضح من خلالها أكاذيب الدعاية الألمانية وتدعو للمقاومة. فضلا عن أنها شاركت في توزيع تلك الصحيفة.

أصبح خريف عام 1939 وقتًا محفوفًا بالمخاطر مع تلك الأفعال غير القانونية. كان العيد الوطني في الثامن والعشرين من أكتوبر على الأبواب، ذكرى تأسيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا بعد الحرب العالمية الأولى. وبالطبع المظاهرات متوقعة بشدَّة، والمحتلون الألمان في حالة من التأهب الدائم. وفي يوم الثامن والعشرين من أكتوبر، الذي وافق يوم السبت، خرج كثير من الناس إلى شوارع براغ. كانوا يرتدون أوشحة العلم الوطني، واعتمر الطلاب ما يسمى بقلنسوات ماساريك. لكم لم تبقَ المسيرات سلمية. مُزِقَت اللافتات ثنائية اللغة من الترام، وحدثت اشتباكات بين الألمان والتشيك، حتى تدخلت الشرطة الألمانية، وأُطلقت أعيرة ناريَّة، فلقي عامل شاب حتفه في الشارع، بينما أصيب طالب الطب يان أوبلتال بجروح خطيرة، ثم مات بعدها بأسبوعين. وكان موته مقدمة الاحتجاجات، التي تلقفتها وحدات إس إس (قوات الأمن الخاصة) وقوات إس آه (كتيبة العاصفة) وتعاملوا معها بصرامة وحشية.

لم يكن الوضع المتوتر سببًا كافيًا لميلينا لكي تكون أكثر حرصًا. قد نجت من الاعتقال حتى الآن، وكانت ترى أنه لا يُمكن أن يحدث شيء لها. لكن ألم يكن ذلك ساذجًا؟ ألم يكن غير مسئولا، إقحام يانا في أنشطتها غير القانونية؟ على كل حال كان من الطبيعي أن تشارك يانا في كل ما قامت به والدتها. وكانت يانا البالغة من العمر أحد عشر عامًا مساعدة

متآمرة وممثلة موهوبة. فقد تعلمت كيفية التصرف في المواقف الصعبة بالظهور كفتاة بريئة، غير مدركة تمامًا ولا يخطر ببالها أبدًا، فعل أيِّ شيء آثم. ولذلك أُستخدِمَت مرارًا في تنفيذ المهمات.

في الثاني عشر من نوفمبر عام 1939، الموافق يوم الأحد، جلست ميلينا مع يانا ومعلّمها لومير تشيفرني، الذي صار بالفعل ينتمي للعائلة، في شقتها بشارع كوريمسكا. أرادات ميلينا إرسال ابنتها إلى يوزف شكالدا، كي تحضر لها أحدث إصدار من فبوي. وعندما أرادت أخباره بشأن زيارة يانا عبر الهاتف، أجابها من الطرف الآخر صوتًا غريبًا، ادعى أن السيد قد غادر الشقة منذ قليل. أزعج هذا ميلينا، ولكن لأن الغريب كان يتحدث التشيكية، شغل تفكيرها وبدد بعض مخاوفها. ففي حالة ما إذا كان هناك فخًّا، فسوف تدَّعي يانا ببساطة، أنها كانت تريد أن تحضر كتبًا. لم تعلم ميلينا، أنه قبلها ببضعة أيام أُعتقِلَ يوزف شكالدا وبعضًا من الموظفين الرئيسيين في صحيفة فبوي بأحد الفنادق في براغ، حيث تُطبَع الجريدة. وكانت شقة يوزف شكالدا تحت المراقبة الآن.

كان العديد من الأشخاص في انتظار يانا، جاسوس تشيكي ورجال الجستابو. لعبت يانا دور الفتاة البريئة، التي تود فقط إحضار كتبًا. لكن رجال الجستابو ارتابوا للغاية، لدرجة أنهم توجَّهوا مع يانا إلى شارع كوريمسكا، حيث فُتِشت الشقة. لم يجدوا شيئا، باستثناء بعض الخطابات من يواخيم فون تسدفيتس، والتي لم يولوها اهتمامًا كبيرًا في البداية. مجموعة من المجلات المحظورة، كانت مخبأة خلف خزانة ما، بقيت غير مكتشفة. وعلى الرغم من عدم وجود أدلة إدانة، أُعتقِلَت ميلينا ولومير. هتفت ميلينا ليانا، أنه ينبغي عليها الذهاب إلى الزوجين الصديقين، حتى

تعود. ظلَّت يانا بمفردها في الشقة لفترة، حتى أحرقت كومة الصحف الممنوعة في دلو، وحزمت بعض أغراضها، ووضعت قطتها في حقيبة تسوق، ثم استقلَت الترام حتى وصلت إلى فردي ويوزي ماير، اللذان كانا يعتنيان بها مرارا.

اقتيدت ميلينا إلى سجن بانكراتس في جنوب المدينة. وهناك تم حُبِسَت كسجينة سياسية في زنزانة مع نساء أخريات. وكانت تُنقَل، كل يوم تقريبًا، إلى قصر بِتشِك، المقر الرئيس للجستابو، حيث تُستجوب لساعات. وقد انتشرت شائعات في براغ، مفادها أن ميلينا تتعرض للتعذيب، كي تخبرهم بمكان «المطبعة السرية» وأسماء الآخرين. لم يعرف أحد حقيقة ما جرى، على كل حال كانت دائمًا تعود من الاستجوابات منهكة تمامًا وأحيانا تنزف. لكنها ظلَّت على الرواية نفسها للأحداث، لم تعترف باسم أيِّ شخص، وأنكرت عملها لدى فبوي في أي وقت سبق.

لاحقًا؛ أُطلِقَ سراح لومير تشيفرني، بينما ظلت ميلينا رهن الاعتقال. وتقرر تقديمها إلى المحاكمة في دريسدن بتهمة «الاشتباه بالخيانة العظمى». وقبل نقلها إلى دريسدن، تمكنت من كتابة رسالة إلى يانا على قطعة قماش متسخة وتهريبها إلى الخارج: «غاليتي هونزيتسكو، أريد فقط إخبارك أن تطمئني وترتاحي، فأنا بصحة جيدة وأتطلَّع كثيرًا إلى رؤيتك. والآن سوف أنتقل بعيدًا مرة أخرى، لكن نرجو ألا يستمر الأمر طويلًا. [...] سوف تسعدينني بشكل هائل، إذا سمعت أنك ما زلتِ مُطيعة، يا هونزيتسكو، أطلب منك هذا بجديَّة بالغة. لتتخيلي يا فتاتي، أننا سنعود لغرفة تضمنا مجددًا، إن لم تكن غرفتنا القديمة، لا تبكي، إن كانت غرفة أخرى، فسوف نجد دائمًا غرفة جميلة مناسبة لنا، سوف نستلقي ونتسامر

سويًّا، وسأحكي للكِ الكثير جدًا، وأنتِ ستحكين لي كل شيء عنك، أليس كذلك؟ بكل صدق، أكثر من أقرب صديقاتك. [...] لقد كتبتي لي ذات مرة، بأنك سوف تحبينني إن أصبحت مُسنَّة، أتتذكري؟ لقد أصبحت كذلك بالفعل، يا حبيبتي. أمٌ عجوز، ليس لديها شيء سواك، لكن هذا قدر هائل بالفعل، فأنا غنية للغاية يا هونزو، وسعيدة أنّي قد أنجبتك. لكن تذكري هذا يا فتاتي، ولا تجعلينني أنتظر، أسعديني برضا جدك عنك. أُقبلُّكِ، وأتوق لرؤيتكِ بشكل يفوق الوصف، وأرنو إلى اليوم الذي أستطيع فيه المجيء إليكِ، يا أعزَّ رفيقاتي. والدتك».



جحيم النساء

«أعتقد، إن عُدت حرة من جديد، فلن أحتمل كل تلك السعادة مطلقًا»

أطلَّت نافذة الزنزانة على حديقة، حيث تنتصب هناك ثمان أشجار، تجلس طيور الشحرور على الفروع أو تنبش بمناقيرها في العشب. ربما يظن بعضهم أنهم في دير هادئ، لكن الزنزانة لم تكن موجودة بداخل دير، بل في معتقل بشارع جيورج بير في دريسدن. سُمِح لميلينا بالتمشية يوميًا في الحديقة لمدة نصف ساعة. ثمَّ تُعاد إلى زنزانتها. مضت أيام وأسابيع، ولم يستطع أحد إخبارها بموعد بدء محاكمتها. فالأعمال التي كانت تُكلف بها المعتقلات، كانت تتغير على أيّ حال. وجب على ميلينا حياكة الأزرار. وبعد شهر كانت قد أنجزت الآلاف منها. توقفت رتابة الأيام، عندما وصل طرد من براغ، به طعام، وكتاب، ورسالة طال انتظارها من يانا. لكن ما بداخلها كان مخيبًا للآمال. فقد أرادت ميلينا أن تعرف بالضبط، حال ابنتها في الذهاب إلى المدرسة، وحال جدّها، وعما إذا كان يارومير بصحة جيدة ويعمل.

ظلت ميلينا متفائلة في رسائلها. حتى لا يزداد القلق عليها في المنزل. اقتصرت على إخبار والدها فقط، أنها فقدت أكثر من عشرين كيلو جرامًا، وأن معصميها قد أصبحا متصلبين بالكامل في الزنزانة الباردة الرطبة.

تمنّت لو أنَّ والدها هنا بجوارها، ويحكي لها قصة خرافية، كما كان يفعل سابقًا، عندما كانت طفلة ومريضة. سُمِح لها أيضًا بقراءة الصحف، الممتلئة بأخبار انتصارات الجيش الألماني، الذي غزا بلجيكا المحايدة، ويتجه الآن نحو باريس. لم تُصدّق ميلينا، أنه بعد تجارب الحرب الأخيرة، يمكن أن تحدث كارثة مثل هذه مجددًا. كتبت إلى والدها تقول: «اثنا عشر مليون قتيلًا في الحرب العالميّة، وكل هذا عبث! كم سيكون عددهم هذه المرة؟ ومن سيصعد منهم بعد الحرب مباشرة إلى الفردوس، فهل سيُعرف في النهاية تقدير الجنس البشري؟».

وصل خبر اعتقال ميلينا إلى ايفجن كلينجر في لندن. ورغم أنه لم يكن يعرف ما الذي حدث لميلينا وإلى أين وصلت، لكنه واصل وضع الخطط مجددًا، لنقلها ويانا إلى الخارج. كانت لديه فرصة الحصول على تأشيرة لهما إلى بوليفيا، وبدأ يجمع المال لتذاكر الباخرة. لم تنجح محاولاته، للتواصل مع ميلينا. فاعتمد على الشائعات القادمة من براغ، والتي كانت متضاربة للغاية. قيل ذات مرة أنها مريضة، ثم مرة أخرى، أن كل شيء يسير على ما يرام وأن ميلينا أصبحت حرة.

أخيرًا، في بداية يونيو عام 1940، مثلت ميلينا أمام القاضي في دريسدن. والذي ثبت أنه «رجل رائع»، لأنه يحكم بشكل مستقل ولم يسمح للنازيين بالسيطرة عليه. فحكم ببراءة ميلينا لعدم كفاية الأدلة، وأمر بإطلاق سراحها من السجن. وقد ابتدع النازيون قانونًا لمثل تلك الأحكام، التي لم تكن على هواهم، يسمح القانون لهم باحتجاز الأشخاص غير المرغوب في إخراجهم، بغض النظر عن الأحكام التي أصدرها القضاء. وُضعت ميلينا في «الحبس الاحتياطي» وأُعيدت ثانية إلى براغ.

Zusendung von Tabak und Lebensmitteln ist verboten. Geld zur Beschaffung von Nahrungs- und Genußmitteln durch die Anstalt kann in der Anstaltskasse eingezahlt werden. Einzahlungen nur dienstags und freitags von 9 bis 13 Uhr. Keine Briefmarken senden.

Untersuchungsgefängnis Dresden (Hauptanstalt).

رسالة من الحبس الاحتياطي في درسدن

مصدر الصورة: Security Services Archiv bezpečnostních složek, Prag

في سجن بانكراتس وُضعت في زنزانة مع اثنتي عشرة امرأة أخرى. كانت تشعر بتدهور صحتها. فقد فقدت وزنها بشدة وكانت مفاصلها تؤلمها. ورغم أن النساء كنَّ يعضدنَّ بعضهن بعضا، ويُشجِّعن أنفسهنَّ، فقد عانين جميعهن من الضيق، والقذارة، والآفات الموجودة في الزنزانة. لكن على الأقل قد سُمح لهن بالزيارة. ولهذا تم نقلهن إلى قصر بِتشِك. في مطلع أكتوبر كان ينتظر ميلينا هناك والدها ويانا. وعندما دنت من الممر الطويل للمبنى، لم يتعرفا عليها في البداية، فقد كانت هزيلة بشدة. فقط

عيناها الزرقاوين ومشيتها العرجاء كشفتا أنها ميلينا. وعندما جلسوا على طاولة، ظل يان يسنسكي صامتًا، فقط يانا تحدثت وأخبرت أمها أنها تخرب حصص اللغة الألمانية في المدرسة، فضحكت ميلينا ووصفت ابنتها بأنها «حمقاء صغيرة»، لأن الألمانية لا تزال لغة جميلة. فجأة أمسكت يانا بيد ميلينا وطبعت قبلة على معصمها المتورم. اندهش الجد، وضحكت ميلينا، فهي كانت دائمًا ما ترفض «دعابات القرود» تلك من يانا.

كانت مدة الزيارة قصيرة. وعندما عادت ميلينا إلى زنزانتها مرة أخرى، تكدر صفوها. وقد صدت كلمات المواساة من رفيقاتها في الحبس. فهل شعرت أنها رأت ابنتها ووالدها لآخر مرة؟ على ما يبدو كانت تعرف، أن «الحبس الاحتياطي» يعني نقلها عاجلا أم آجلا إلى معسكر اعتقال. بدى قنوطها جليًا من خلال رسالة مطولة تمكنت من تهريبها إلى والدها. لا يُلمح بها أثر من شجاعتها، فقط أطلقت العنان لانكسارها وتمكن اليأس منها عبر جمل متقطعة:

«[...] تمامًا مثل القفص... لا يُمكنك إغلاق نافذة، أو الجلوس هناك، أو حتى النظر إلى الخارج.. إن هذا مُقبضٌ بشكل رهيب لكن فقط... يا إلهي، ما الذي أمر به... من زنزانة لأخرى... من كيس قش لآخر... يتوجب عليَّ قضاء حاجتي أمام اثنتي عشرة امرأة... ملابس نتنة، حشرات، أوساخ، لا يوجد ماء... طعام قليل، ووحدة مرعبة... حيث أشهد كل ذلك... رعب الماضي وإحباط الحاضر... وحنين، حنين جنوني إلى هونزا... سنة كاملة من أجل ساعة مع هونزا، فترة عصيبة... أيام طويلة بلا نهاية أو زوال... تبلدت نفسي، ولم أعد استطع البكاء [...]».

طلبت ميلينا من والدها أمرًا، بدا لها هي نفسها مثيرًا للسخرية. رجته أن يأخذ الساعة الرجالي المعلقة فوق سريرها معه، ويحرص ألا تتوقف. كتبت له قائلة: «كلما توقفت، حدث أمرًا سيئًا، لقد أمضيت معها سنوات، وعندما تعود للعمل مرة أخرى، يتغير كل شيء للأفضل».

سافر القطار الذي يقل السجينات إلى برلين، وتحرك من هناك نحو الشمال، إلى أن توقف في محطة بلدة فورستنبرج الصغيرة، وعندما انفتحت أبواب العربات، استقبل النساء نباح كلاب الحراسة، وسيدات بأحذية سوداء وزي رسمي يصرخن: «ترجلوا! واصطفوا خمسات!». سيقت النساء المعتقلات إلى خلف المحطة بالضرب بالعصي، حيث تم شحنهن في سيارة نقل كانت تنتظرهن.

دارت القافلة حول بحيرة شفيتسي الشاعريَّة. كان هذا في نهاية أكتوبر 1940 وكانت أشجار البتولا الموجودة على الهضاب الهادئة قد غيَّر الخريف لونها. حول هذا المنظر الطبيعي الجميل كان يقضي العديد من سكان البلدة عطلاتهم. أما الآن فقد أُغلِقَت منطقة الشاطئ الشرقي للبحيرة وحظر دخولها على المدنيين. وقبل عامين قُطّعت الأشجار وأُنشأت ثكنات للسجناء ومنازل للحراس على التربة الرملية. وحتى ذلك الحين كان معسكر رافنسبروك هو أكبر معسكر اعتقال خُصص للنساء في ألمانيا النازية. لقد كانت مزحة مُروِّعة، أن الشارع الضيق المؤدي إلى المعسكر كان يدعى «طريق بوابة السماء». لكن بالنسبة لكثيرات، من اللواتي أحضرن إليه، كان هذا المكان «جحيم النساء».

كان على الوافدات المستجدات اجتياز طقوس الاستقبال المعتادة. أولا يسجلونهن، ثم يُجبروهن على تسليم أغراضهن الشخصية

كالصور والحلي، ويتجردن تمامًا من جميع ملابسهن. وإن اكتشف في شعر إحداهن قملا أو براغيث، يُحلق تمامًا لكي تصبح صلعاء. بعد الاستحمام كان على النساء العاريات الاصطفاف في الفضاء البارد من أجل الفحص الطبي. يمكن أن يستمر الأمر طويلا، حتى يظهر طبيب وحدة الإس إس دكتور فالتر زونتاج ومساعديه، ليتحققوا من الوضع الصحي لكل امرأة ومعرفة «نقاط ضعفها»، لتحديد مدى ملائمتها لأيِّ عمل. وفي أثناء ذلك كان عليهن تحمل التعليقات والدعابات الفظة التي توجه لهن من الرجال.

بعد الحلق، والاغتسال، والضرب، وارتداء ملابس كبير جدًا في معظم الأحيان، كان يتم نقل «المستجدات» إلى عنبر رقم (16)، في ثكنة الوصول. وهناك كنَّ يحصلن على أطباق الأكل، وتخصيص مضجعا خشبيا لكل منهن واطلاعهن على كيفية صنع مراتب من القش لهن طبقًا للائحة. ومعرفة ذلك كانت ضرورية، لأنه عند أدنى خطأ كُنَّ يُعاقبن عليه، بالضرب، أو الحرمان من الطعام، أو حتى بالحبس الانفرادي في القبو. وعندما تطلق الصفارة في الصيف في الرابعة والنصف صباحًا، كان أمام النساء وقت قليل لترتيب الأسرَّة، والاغتسال، وارتداء الملابس، كي تأخذن قائمة الغياب في الوقت المناسب أمام الثكنة. كان هذا النداء يستمر طويلا في الصباح والمساء. وأحيانًا يتوجب على النساء أن يقفن صفوفا بلا حراك لساعات طويلة في البرد أو تحت المطر، قبل أن يُسمح لهن مجددا بالانصراف.

صُنفت ميلينا بتهمة «سياسية»، وعُلِّق مثلث أحمر على كُمّها. بعد فترة نُقلت إلى عنبر رقم (1)، مع نساء أخريات، كن معتقلات لأسباب

سياسية أيضًا. ساد بين «السجينات السياسيات» ترابطًا قويًا، وكان لديهن اتصالات في المعسكر، واستطعن الحصول على بعض الميزات. كان من الأسهل لميلينا الانزواء تحت كنف هذه المجموعة، لكن يتطلب منها ذلك مشاركتهن «انتمائهن». فمعظم هؤلاء النساء التشيكيات كُنَّ مؤمنات بالشيوعية، ومنها يستقين كامل حيويتهن، على أمل أن ينتصر ستالين على هتلر في الحرب ثم يُحررهن. أعتقدت ميلينا أن هذا الأمل وهمًا. فتحررهن عن طريق الجيش الأحمر، كان مصدر قلق لها أكبر من النازية. وتساءلت: «كيف سيمكننا الهروب من الروس؟». سؤال لم يكن مُحتمل للشيوعيّات. فصارت ميلينا مكروهة تقريبًا، حتى تعرَّفت على الألمانية مارجريته بوبر.

تزوجت مارجريته بوبر زواجًا ثانيًا من هاينز نويمان، الشيوعي الألماني البارز. بعد وصول هتلر إلى السلطة اضطر الزوجان للفرار، ووصلا بعد رحلة طويلة إلى موسكو. لكن المكان الذي من المفترض أنه ملاذًا آمنًا أصبح فخًا مُميتًا. فقد تم الإبلاغ عن هاينز نويمان واعتقاله أثناء عملية التطهير الكبرى ضد المشتبه بهم من أعداء ستالين المزعومين، وفي يونيو 1937 أُعدم رميًا بالرصاص. حُكم على زوجته مارجريته بالسجن خمس سنوات في معسكرات العمل بسيبيريا. بعد عامين سُلمت إلى النازيين، الذين اعتبروها من ناحية أخرى جاسوسة سوفيتية وأودعوها في معسكر اعتقال رافنسبروك. ما روته مارجريته بوبر في رافنسبروك عما لاقته في الاتحاد السوفيتي، لم يتوافق تمامًا مع الصورة الطوباويَّة لِجنّة العمال والفلاحين، التي ترعاها الدولة الشيوعية، واُتهمت بأنها «تروتسكيَّة» كاذبة. لكن ميلينا صدَّقتها. فقد عززت روايات مارجريته بوبر تجربتها

الخاصة مع الحزب الشيوعي، وأكَّدت كل ما قاله ياروميير عن فترة إقامته في الاتحاد السوفيتي.

لاحقًا، كتبت مارجريته بوبر كتابًا عن ميلينا، وأوقاتهما التي قضوها معًا في معسكر اعتقال رافنسبروك. وقد عابوا عليها، مبالغتها في تصوير شخصية ميلينا. وبلا شك أن حماس بوبر لميلينا أوقعها في بعض المبالغات. لكن هذا الحماس كان نتيجة لتأثير ميلينا على الناس، وبغض النظر عن ذلك فقد أمضت مارجريته بوبر سنوات في أسوأ المعسكرات، حيث عاشرت أشخاصًا في أكثر الظروف تطرفًا. ألا يتعيَّن علينا الإقرار بأنها لديها معرفة إنسانيّة كافية، تُمكنها من إبداء الرأي في شخص مثل ميلينا، خاصة إن كانت حكمها يتطابق مع شهادات أخرى؟ كانت ميلينا بالنسبة لمارجريته «استثناءً مُذهلًا» في المعسكر، لأنها على الرغم من كل العنف والإذلال كانت تتصرف كشخص حر، يحتفظ بكرامته. كانت محترمة أيضًا حتى من قِبل أولئك، اللواتي كُنَّ يكرهنها. سعت كثيرات للتقرب منها وطلب صداقتها. حتى في المعسكر ظلَّت هي «الأم ميلينا» المحبوبة.

كانت ميلينا محظوظة. فلم يتم توزيعها في فرق العمل الخارجية، التي تُضطر للعمل تحت جميع الأحوال الجويَّة، حيث تُجرِّف الأرض، أو تحمل الطوب، أو تسحب اسطوانات حديدية ضخمة. حصلت ميلينا على مهمة عمل في مكتب القسم الطبي. فكانت تجلس في مكان جاف ويُسمح لها بالتحرك بحريَّة أكثر من باقي السجينات. استغلت ميلينا هذه الحرية، للقاء مارجريته بوبر بقدر الإمكان، والتي كانت تذوب خوفًا، عندما تخبرها ميلينا، أنها سوف تزورها ليلًا في زنزانتها، وكان هذا محظورًا

بشدة. فكانت ترتبك، عندما تعبر ميلينا إلى داخل الباب غير مبالية أبدًا، وتطلق صافرةً مرحة.

كان ينهك ميلينا القلق فقط، عندما تُفكر في يانا. سُمح لها بكتابة رسالة لأسرتها مرة واحدة فقط في الشهر. أخبرها والدها أنه استقبل يانا لتُقيم معه، فكانت ميلينا ممتنَّة له بلا حدود. وعلمت أيضًا، أن يانا قد قررت التردد على معهد الموسيقى للدراسة به. لم تثق ميلينا في صحة خطط ابنتها، ولم تستطع تخيل أنها الآن تتمرن كل يوم باجتهاد على البيانو. طلبت من والدها، أن يهتم بيانا جيدًا، حتى إن كانت أيضًا عنيدة في كثير من الأوقات. وكتبت إلى يانا تقول: «فتاتي الحبيبة، كتب لي جدك أنك شجاعة جدًا. لقد منحتني سعادة بالغة، أشكرك عليها. تذكّري حين يعتصر فؤادك، أنك تقفين في انتظاري على محطة، وإنني سأصل قريبًا. أفكر بك دومًا، في كل دقيقة، فأنا لا أحب أحدًا مثلك في العالم. كوني شجاعة، أتوسل إليكِ. أمك».

في كل رسائلها التالية، تراعي ميلينا إخبارهم أنها بحالة جيدة ولا داعي للقلق بشأنها. بالطبع لم يكن هذا صحيحًا. فالروماتيزم لم يدعها وشأنها، بالإضافة للألم الكُلوي الذي زاد من معاناتها. كان العمل في القسم الطبي له ميزة جيدة، وهو حصول ميلينا على الأدوية بطريقة أسهل. لكن له عيب أيضًا، فقد كانت خاضعة دائمًا إلى مزاج الممرضات والطبيب. وأشد خشيتها كانت من طبيب الإس إس دكتور زونتاج. فقد عرفت عنه، أنه يحقن المريضات؛ اللواتي يُعانين من أمراض مزمنة، وذوات الإعاقة من غير القادرات على العمل، بدواء قاتل. كما اعتاد دكتور زونتاج على حمل عصا، يُسيء بها معاملة السجينات أثناء الفحص. ذات مرة عندما تحدث

مع ميلينا وغمز أسفل ذقنها بعصاه، دفعت العصا جانبا مع نظرة احتقار. تفاجأ الطبيب وعجز عن الكلام، لكنه لم يعاقبها. إلا أنها منذ هذا اليوم أصبحت تخافه أكثر وتخشى من «حقنته المميتة».

تلك الأعمال الصغيرة من المقاومة أفقدت ميلينا ضبط نفسها بصورة متكررة. أو بشكل أصح، كانت هناك مواقف، تبعث فيها بكل الأسباب نحو الجحيم، لكنها تفعل ما يتوجب عليها فعله. إلا أن تلك التصرفات الطائشة في معسكر الاعتقال يُمكن أن تؤدي إلى عواقب وخيمة. تتوتر الأعصاب في العنبر، حيث يتم الضرب بقسوة، أو الحبس لعدة أسابيع في قبو مظلم، لم تكن ميلينا لتنجو من كل هذا بصحتها المعتلة. من ناحية أخرى ذكرت مارجريته بوبر مواقف تصرفت فيها ميلينا بشجاعة حالت بينها وبين المشرفة الهمجية، من مُضايقتها أو حتى ضربها. هل كان هذا التأثير يذهب إلى حد أن إحدى المشرفات بسبب مخالفة ما أرادت صفعها وعند النظر في عينيها أنزلت ذراعها، قد يُصدّق بعضهم هذا وربما لا. على كل حال يبدو محتملا أن ميلينا قد حافظت على عزة نفسها. لكن لم يكن ذلك ليساعدها إن تم اكتشاف حيلها في القسم الطبي.

كانت مهمة ميلينا، إدارة السجلات الطبية الخاصة بالنساء المصابات بأمراض تناسلية. وبقدر ما تستطيع، قامت بتزوير عينات الدم لتحول دون استغلال النساء ذوات الاختبارات الايجابية في التجارب الطبية، أو كما حدث لاحقًا، من إرسالهن إلى غرف الغاز. اكتسبت ميلينا بهذه الطريقة صداقة العديد من النساء، اللواتي كُنَّ في أسفل تدرج الرتب، الموصومات بأنهن «خارجات عن المجتمع»، أو يهوديّات، أو مومسات، أو مجرمات. كلمة واحدة أو لفتة صغيرة يُمكن أن تصنع معجزة في أغلب الأوقات.

ذكرت امرأة تشيكية شابة، أنها أُحضرت إلى المعسكر بعد ميلينا بعام واحد، وكيف هونت ميلينا الأمر عليها مع صدمتها الأولى. كانت مشدوهة ومُحتقَرة من خلال انطباعاتها الأولى المروعة بعد وصولها المعسكر، تترقب العذابات التالية وهي مملوءة خوفًا ورعبًا، في تلك اللحظة خرجت ميلينا فجأة من الباب، تبتسم للمستجدات وهي تصيح قائلة: «مرحبًا بكم، يا فتيات!»، جاء هذا صادقًا من القلب، كأنها أرادت دعوة كل واحدة منهن إلى منزلها، «لن أنسى هذا الانطباع أبدًا. لقد كان أول انطباع إنساني حقيقي في وسط كل تلك الوحشية».

تزايدت الوحشية من شهر لآخر. فكلما اعتدى جيش هتلر على بلدان أكثر، كلما أُحضرت المزيد من النساء وأيضًا الأطفال إلى رافنسبروك. المعسكر الذي كان في البداية نموذجيًا، انفجر الآن بكل الأعراق. فالثكنات الجديدة، التي أُقيمت، سرعان ما اكتظت أيضًا. في بعض العنابر اضطرت كل ثلاث سيدات التناوب على فراش واحد. تدهورت الأوضاع الصحية وشحّت إمدادات التعيين. حتى إن الإدارة سمحت للسجينات بتلقي طرود بها مواد غذائية وملابس من ذويهم. طلبت ميلينا من والدها سترة من الصوف. وعندما فتحت الطرد المنشود، كان بداخله سترة بافاريَّة تقليدية. والتي لم تكن تُدفئ أو تُناسب معسكر الاعتقال.

هل انتبه يان يسنسكي من أن ساعة ميلينا مازالت معطلة؟ لقد تجنب هو ويارومير كريتسار في رسائلهما إلى رافنسبروك ذكر أشياء، يُمكن أن تزعج ميلينا. فقط من بين السطور يُمكن استنباط وجود بعض الصعوبات مع يانا، وأنها لم تعد تقيم مع جدها. ناشدت ميلينا يارومير، ألا يتركها أبدًا على غفلتها، وأن يُخبرها دائمًا بالحقيقة كاملة. فالقلق هو أسوأ ما يحدث

لها. كتبت إلى والدها تقول: «بالكاد استطيع أن أصف لك، كم يُعذبني هذا الأمر، إنه أسوأ من السجن بأكمله، قلقي على صغيرتي، وعدم قدرتي على معرفة أيّ شيء عنها».

لم تفهم ميلينا سبب عدم حصولها على أيّ رسائل حقيقية من يانا. فالأمهات الأخريات تلقين رسائل جميلة، وطويلة من أطفالهن. بينما رسائل يانا مختصرة وعديمة الصلة. خاب أمل ميلنا في ابنتها. لم تستطع معرفة، أن والدها يراقب حفيدته ولا يسمح لها بذكر شيء في رسائلها، من شأنه أن يشغل بال «ماما». لذلك لم تصرح يانا لوالدتها، أنها تبكي أحيانًا، وأنها لا يمكنها التعامل مع المعلمة في المدرسة، وأنها بالفعل قد نَهَدَ ثدياها، لكن لا يُعقل مطلقًا، أن تطلب من جدها، شراء حمالات صدر لها. عمومًا فهي لم تُعجب بجدها. كان بالكاد يتحدث معها ويجلس خلف جريدته في أغلب الأوقات. كان يغضب، عندما تتأخر يانا على العشاء. وظلَّت شقيقة يان يسنسكي تشكو، من أن ميلينا لم يكن ينبغي عليها الاهتمام بالسياسة، بل بابنتها.

طالما أرق هاجس ميلينا تلك الأسئلة. هل أخفقت كوالدة؟ هل كان عليها الهرب مسبقًا مع يانا؟ هل جازفت باستهتار في عملها بالمقاومة، فتنشأ طفلتها دون والدة؟ من ناحية أخرى، لم تتخيل التصرف بشكل مختلف إن كان لديها خيار آخر. فات الأوان على كل تلك التحفظات والمحاذير. كانت يانا في براغ. وميلينا في معسكر الاعتقال. على الأقل أرادت أن تؤكد لها عن بعد، أنها تفكر بها دومًا، وأنهما سوف يجتمع شملهما مرة أخرى قريبًا. « حبيبتي هونزا، أنا معك وبجوارك، لا يهم ما تفعليه عند جدك يا هونزا، لماذا لا تُخبريني بذلك! فما دُمت حَيَّة،

ومهما تفعلي في حياتك، فأنا دائمًا.. دائمًا معك، ولن أغضب أبدًا! من فضلك أكتبي لي بالتفصيل وبكل صراحة، كيف تعيشين، وفيما تفكرين، وسوف أجيبك، نعم. أقبلكم جميعا، [...] حبيبتك ميلينا. أنا بخير».

كانت هناك دائمًا شائعات في المعسكر. قيل ذات مرة، أن الحرب سوف تستمر لمدة بضعة أشهر فقط، وقيل مرة أخرى، أن هتلر قد مات. أحضروا للمعسكر الكثير من النساء البولنديات والروسيات، بعضهن حوامل أو معهن أطفال صغار. أُجبِرَت النساء على العمل في المصانع الحربية، التابعة للمعسكر. شهدت الطوابير المزيد من الوفيات التي كانت تُنقل من مبيت المعسكر. ويتم إحصائهن أيضًا كل أسبوع. فعندما تُغادر سيارة نقل المرضى المعسكر، وتعود في وقت لاحق شاحنة مُحمَّلة بالملابس فقط، كان الجميع يعلمون بما حدث. وكُنَّ يرتعدن جميعهن، عند سماعهن صوت طلقات النار قادمة من الغابة القريبة. أصبحت النساء هياكل هزيلة، من الجوع والمرض. تشكَّلت طوابير طويلة أمام القسم الطبي، ومن كانت مريضة بشكل يُعجزها عن العمل، تُرسل فورًا إلى «حُجرة الموت الصغيرة»، حيث يتم إعطاؤها «الحقنة المميتة».

في مطلع عام 1942 كانت هناك تغييرات في القسم الطبي. تم نقل دكتور زونتاج إلى الجبهة الشرقية كطبيب ميداني. خَلَفه في رافنسبروك طبيب أمراض النساء بوحدات الإس إس دكتور رولف روزنتال. وسرعان ما انتشرت شائعات، أن دكتور روزنتال على علاقة بالممرضة جِردا كفرنهايم، وأنهما يقومان بتصرفات غامضة في القسم

الطبي ليلًا. سمعت ميلينا ذات مرة ما يُشبه نشيج الأطفال، ثم سكت فجأة. وهذا ما لم يتيقن منه أحد، لكن اشتبه بعضهم أن دكتور روزنتال ومساعدته ينفذان أوامر الجستابو في إجهاض وقتل «ثمرة العار العرقية» عند النساء، اللاتي حملن من مخالطة «الأجانب». دونت ميلنا خفية في يومياتها كل شيء رأته وسمعته. وقد أرادت تأليف كتاب عن ذلك فيما بعد، كي تكشف للعالم الخارجي حقيقة ما حدث في معسكر الاعتقال.

في أبريل عام 1943 حُبِسَت صديقتها مارجريته بوبر في سجن المعسكر، وهو «قبو» كئيب. حيث اتهمت بتبديد تقارير وإتلاف أوامر جنائية. لم تعد مارجريته تذكر عدد الأسابيع التي قضتها في هذا المكان الموحش وهي تتضور جوعًا وتتجمد بردًا. بعد بضعة أيام فقط فقدت كل إحساسها بالوقت ولم تستطع التميز بين الليل والنهار. وعندما بدأت تهلوس بسبب الجوع، كانت بعض السجَّانات تدسسن لها قطع خبز، كُنَّ يحصلن عليها من ميلينا. وعندما أصبحت «جريته»، كما كانت تُسمى في المعسكر، مهددة بفقدان آخر قواها، فُتِحَ باب زنزانتها على حين غرة في يوم أحد، وصارت حُرَّة ونُقِلَت إلى عنبر المرضى، حيث استغرق الأمر وقتًا طويلًا، حتى استطاعت العودة إلى حياة المعسكر.

كيف حدثت معجزة نجاتها، أدركت ذلك جريته بوبر لاحقًا. خافت ميلينا على حياة جريته وأقدمت على خطوة جريئة. فقد جاءت إلى رجل الجستابو لودفيج رامدور واقترحت عليه، أن تفشي له عن أنشطة إجرامية في القسم الطبي، إن تحررت جريته من القبو. كانت ميلينا تعلم،

أن دكتور روزنتال ومحبوبته يستوليان لأنفسهما على الأشياء الثمينة الخاصة بالمتوفيات، وكان الإثراء الشخصي يُعَد جريمة في الأوساط النازيَّة. رغم هذا كان على ميلينا توقع، أن رامدور ربما لن يسمح بعقد صفقة مع سجينة، ويُمكن أن ينتهي بها المطاف في القبو أيضًا. إلا أن التستر على الطبيب كان مخاطرة كبيرة بالنسبة له. وبالفعل أُلقيّ القبض على دكتور روزنتال وجِردا كفرنهايم.

في العاشر من أغسطس عام 1943 أكملت ميلينا عامها السابع والأربعين. رتبت لها صديقاتها سِرًا حفلة عيد ميلاد متواضعة. وقد وضعن هداياهن على منضدة؛ منديل مطرز عليه رقمها في السجن، وقلب صغير مصنوع من القماش عليه اسمها، وفيل منحوت من فرشاة الأسنان. تلقت ميلينا طردًا من والدها، بداخله بطاقات بريدية مصورة عليها بعض لوحات للرسام فينسنس مورشتات من براغ. «الكلمات الرقيقة» الموجودة في رسائل والدها كانت تعني لها الكثير. كانت تحبه، أقرّت جريته بوبر بهذا، حتى وإن كان طاغية. أرادت بعض الأدوية من المنزل. فقد أدى الروماتزم إلى التهاب بالمثانة وصارت آلام الكُلى لا تُحتَمل. لم تعد رسائلها متفائلة. كتبت إلى والدها، وهي يُسَاوِرُها الشك الآن، حول ما إذا كانت سترى براغ مرة أخرى. «أعتقد، إن عُدت حرة من جديد، فلن أحتمل كل تلك السعادة مطلقًا. بالطبع، يجب علينا جميعًا أن نحسب حساب الأسوأ»، وتقول في رسالة موجهة لوالدها أو يارومير: «لا أحد يعلم، ماذا سيحدث له غدًا. على كل حال، تذكر دائمًا من فضلك؛ أنّي أحبك أنت والطفلة بشكل يجل عن الوصف، أشكركما على كل كلمة طيبة وكل طرد

صغير، وإن مَسَّني ضرٌ، تأكد إنني كنت معكما حتى آخر لحظة، وإنني لا أسمح لنفسي مطلقًا بلحظات الضعف، ذلك لأنني في الواقع أفكر فيكما طوال الوقت».

نجا فقط في المعسكر من كان قادرًا على العمل، غير أن ذلك قد أصبح أصعب على ميلينا. كانت الطرود، التي تحصل عليها من براغ ضرورية للحياة، خاصة إذا احتوت على ملابس تُدفئها في الشتاء، كتبت إلى أسرتها تقول: «أحتاج إلى الدفء، الدفء، الدفء، فأنا أشعر بالبرد، البرد، البرد، أنا أتجمد مثل كلب صغير»، وبجانب البرد فقد أنهكها الجوع باستمرار. وقد شعرت بالخجل حين انحصر تفكيرها فقط في قطعة لحم مثل «شخص همجي بدائي للغاية»، ولم تجرؤ على التفكير في ما لذ وطاب من الأطباق الرائعة، التي كانت تتناولها في براغ؛ «أتدري، لا يُمكنك ببساطة قياس ما تعنيه تلك الطرود، إنه ليس فقط مجرد طعام، لكنه اهتمام، وشفقة، ولطف، يصدح عبر كل طرد، وهذا أمر يعدل ثروة كاملة. هل سيأتي وقت يمكنني فيه الحصول على الكفتة؟ أخشى أن يكون هذا سابقًا لأوانه الآن. ألا تطبخون أبدًا موزة مشوية أو برجر؟ أتخلى عن حياتي مقابل قطعة لحم. أتذكر الطريقة التي ترسل لي بها دائمًا الملفوف في أكياس ورقية رائعة، أتستطيع أن ترسل لي لحما مع أرز مطبوخ أو معكرونة أو أي شيء من هذا القبيل؟».

كان شتاء 1943/ 1944 هو أسوأ وقت في معسكر الاعتقال. فقد اكتظ المعسكر بشكل ميؤوس منه، مع وجود ما يزيد عن خمسة عشر ألف سجينة، وكل يوم تحضر قوافل أخرى مُحَمَّلة بنساء إلى محطة رافنسبروك.

كما ارتفع عدد الوفيات عن حده لدرجة أنه لم يعد بالإمكان نقلهن من مكان إلى آخر. فبنت إدارة المعسكر محرقة، لحرق الجثث في مكانها. ثم يُنثَر الرماد في بحيرة شفيتسي.

جاء إلى المعسكر طبيب جديد، عوضًا عن دكتور روزنتال المقبوض عليه. كان سلفه دكتور برسيفال ترايته شخص أكثر مسئولية. وادعاء مارجريته بوبر، بأنه كان يعرف والد ميلينا، هو أمر معقول بلا شك. فقد عمل ترايته لبعض الوقت في مستشفى عسكري في براغ، ولعله قد واتته الفرصة للتعرف على البروفيسور الشهير يسنسكي، أو على الأقل سمع عنه. ويوضح هذا، سبب اهتمامه بميلينا خاصة. أكد لها أن التهاب الكلى لديها، والذي كان يهدد حياتها للغاية، يمكن إزالته فقط من خلال عملية جراحية. وثقت ميلينا في الطبيب الشاب، ونجحت العملية. حتى إن ميلينا استطاعت خلال بعض أيام أن تنهض مرة أخرى. وذهبت ذات مرة إلى مكان عملها ونظرت إلى الخارج نحو بوابة المعسكر الكبيرة. كانت هناك دومًا روزنامة معلقة على الحائط عليها صورة نافذة مفتوحة على مصراعيها، والتي كانت تطل على منظر طبيعي جبلي.



مصدر الصورة: **Verlag Neue Kritik**

بعد بضعة أشهر حدثت انتكاسة. فقد التهبت الكُلى الأخرى. ولم يعد هناك أمل الآن. أعطت ميلينا مذكراتها لصديقتها آنّا كفابيلوفا، وطلبت منها إخفاءها ونقلها إلى براغ. عرضت على المريضات الأخريات في عنبر المرضى البطاقات البريدية القادمة من براغ وأوضحت لهن المعالم؛ القلعة التي على ضفاف نهر فلتافا، وجسر كارل، وساحة فنتسل، كنيسة تاين، مبنى البلدية بالمدينة العتيقة. كانت ميلينا تعرف كل زقاق، وكل دَرَج. أبلغها والدها على ظهر إحدى البطاقات البريدية، أن يانا قد اجتازت اختبارات القبول في معهد الموسيقى. لقد كانت تلك كذبة بيضاء لإسعاد الابنة المريضة. بدا أن ميلينا أحست بهذا، فابتسمت فقط.

جاءها طرد جديد، لم تستطع جلبه بنفسها. فأحضرته لها جريته بوبر. لم يكن من والدها، بل من يواخيم فون تسدفيتس. كان قد أُعتقل وحُكم عليه بالسجن بسبب الرسائل التي وجدت لدى ميلينا. وقد تظاهر بنوبات الصرع في سجن موابيت وبسبب ذلك أُطلق سراحه. وقد حاول بعدها اخراج ميلينا من معسكر الاعتقال بالحيلة نفسها. حتى إنه قد حصل من يان يسنسكي على التقرير الطبي من مستشفى الأمراض العقلية في براغ، حيث كانت ميلينا محتجزة هناك في سن المراهقة. لكن كل تلك الجهود كانت بلا جدوى، فقد فات الأوان.

في يوم السبت، الموافق الثالث عشر من مايو عام 1944 فقدت ميلينا وعيها لأول مرة. وعندما فاقت في يوم الأحد وجدت أنَّ جريته بوبر قد أحضرت لها باقة من أزهار البنفسج. تحدثتا عن «هونزا» وأرادت ميلينا أن تكتب لها رسالة طويلة. لكنها كانت ضعيفة للغاية على فعل هذا. «ليس لديَ سوى أفكار سعيدة»، قالتها فجأة، ثم أغمي عليها مرة أخرى. بعدها بثلاثة أيام، يوم الأربعاء الموافق السابع عشر من مايو، في نحو الساعة الثالثة والنصف فجرًا، توفيت ميلينا.

وُضع جثمانها في صندوق خشبي وتم حمله مع بقية جثث المتوفيات في شاحنة مسطحة ذاهبة إلى المحرقة خارج المعسكر. توسلت مارجريته بوبر، السماح لها بمرافقة الموكب الجنائزي، فتمت الموافقة على ذلك. كان يومًا ربيعيًا، وأمطرت السماء بلطف. لم تُحرق جثة ميلينا على الفور، بل وُضعت فترة في حجرة الانتظار بالمحرقة. تمَّ ذلك بناءً على أوامر من الدكتور ترايته. فقد أبلغ يان يسنسكي تلغرافيا بوفاة ابنته، وأعطاه الإذن بالمجيء إلى رافنسبروك، ونقل جثمان ميلينا إلى براغ. انهار يان يسنسكي

عند تلقيه الخبر، ولم يذهب إلى رافنسبروك، ليُعيد ابنته إلى المنزل. سواء كان ضعيفًا، أو مريضًا، فإن قلبه لم يُطاوعه على فعل هذا. في رسالة أرسلتها مارجريته بوبر إلى يان يسنسكي بعدها بأسبوعين، قالت فيها: «إن هذا أفضل. بالتأكيد لم ترد ميلينا ذلك»، ربما حُرِق جثمان ميلينا لاحقًا وتناثر رمادها في بحيرة شفيتسي.

في نهاية أبريل عام 1945 وصلت القوات السوفيتية إلى معسكر اعتقال رافنسبروك. لم يجدوا فيه سوى السجينات اللواتي أعجزهن المرض. كانت وحدات الإس إس قد رحَّلت الأخريات قبلها بثلاثة أيام في مسيرة جبرية تُشبه الموكب الجنائزي، مات فيها أغلبهن. وفي فوضى تلك الأيام فُقدت مذكرات ميلينا.

خاتمة: «مبدأ ميلينا»

بعد حوالي عام من انتهاء الحرب، تلقت يانا رسالة من مارجريته بوبر أخبرتها فيها عن مصير ميلينا. بعد ذلك بوقت قصير، حضرت مارجريته بوبر بنفسها إلى براغ لزيارة يانا وجلبت معها هدية غريبة؛ أحد أسنان ميلينا. كان هذا كل ما تبقى منها. لم تكن يانا متأكدة مما يجب عليها فعله مع هذا «الأثر» المُروِّع، وكانت سعيدة عندما فقدت السن يومًا ولم تجده مرة أخرى.

بمهنة كعازفة بيانو لن تُصبح شيئًا. التحقت يانا بالمدرسة الثانوية ودرست الرسم وعادت مرة أخرى للإقامة مع جدها. لم يتعافَ يان يسنسكي من أثر الصدمة التي تركها خبر وفاة ابنته. في البداية؛ أراد الانتحار، لكن تمَّ منعه. فواصل حياته بقلب مُنكسر. لم يكن يدعو حفيدته يانا سوى باسم «ميليكا»، وهو لقب ميلينا. توفي يان يسنسكي بعد ثلاث سنوات من وفاة ابنته، في عام 1947، عن عمر يناهز السابعة والسبعين عامًا. لقد كان الموت رحيمًا به، فقد نجا يان يسنسكي من تجربة فقد وطنه الحبيب استقلاله مرة أخرى. في عام 1948، وصل الشيوعيون إلى السلطة وقاموا بتشكيل حكومة خضعت بالكامل لسياسات ستالين.

تحققت مخاوف ميلينا. العديد من أصدقائها، الذين تعرضوا للاضطهاد على يد النازيين، تحتم عليهم الآن الفرار من الشيوعيين. لم

ينجُ بعضهم، فسُجنوا أو قُتلوا. فَرَّ يارومير كريتسار، زوج ميلينا الثاني ووالد يانا، إلى باريس مع زوجته ريفا في الوقت المناسب. عاش لفترة قصيرة في لندن، حيث حصل على وظيفة أستاذ في العمارة قبل وفاته بأزمة قلبية في أكتوبر 1949.

وقع مصير مشابه لإرنست بولاك، الذي ساعدته ميلينا بالفعل على الهروب إلى إنجلترا في عام 1938. لم يستقر أبدًا في بلد أجنبي، وعمل أحيانًا كمحاضر مستقل. بعد أن تم تدمير شقته في لندن بسبب قنبلة أثناء الحرب، ذهب إلى اسكتلندا، وأكسفورد، حيث عاد إلى الدراسات الفلسفية. وهناك التقى أيضًا بالطيارة السابقة دوروثي رينولدز، التي تزوجها عام 1944. توفي بولاك، الذي أصيب بأزمة قلبية مثل كريتسار، في الحادي والعشرين من سبتمبر 1947 ودُفن في لندن.

قبل وقت قصير من وفاته، زار بولاك ويلي هاس، الذي طلب منه المشورة بشأن كيفية التعامل مع رسائل كافكا إلى ميلينا. كانت الرسائل محفوظة في براغ خلال سنوات الحرب ثم عادت إلى هاس. أَيَّد بولاك هاس في فكرة عدم إعطاء المجموعة لماكس برود كما طلب، ولكن نشرها بنفسه. فعل هاس ذلك في عام 1952، لكنه استبعد العديد من المقاطع التي اعتبرها «فانتازيَّة وغريبة».

على عكس بولاك، عاد إيفين كلينجر إلى تشيكوسلوفاكيا. ولأنه كان يُشتبه في أنه «تروتسكي» فقد أمضى عدة سنوات في السجن هناك، لكن أصبح بعد ذلك على ما يرام في الحكومة الجديدة. أصبح مسؤولًا بوزارة الثقافة. كانت علاقته السابقة بميلينا عائقًا أمامه. فذكر أن ميلينا لم تكن أكثر من «خليلته»، وأنه كان يعيش معها فقط.

كل شيء كان مختلفًا من حولها، فوجب تكيف يانا على طرق عيش مختلفة. ورثت عن جدها يان يسنسكي تركة قدرها مليون كرونه، لكنها استمتعت بتبديدها في وقت قصير على الحفلات وأسلوب حياتها المفرط. بعد أن استولى الشيوعيون على السلطة، سارت حياتها كشخص مُهمش. من دون عمل، عاشت مُشردة في فقر مدقع، وعملت مساعدة مطبخ، وقاطعة تذاكر ترام، وعاملة نظافة. انضمت إلى مجال الأعمال الإبداعية البديلة في براغ، وأطلقت على نفسها مؤقتًا اسم «سارة سيلبرشتاين»، احتجاجًا على معاداة الشيوعيين للسامية. تزوجت أربع مرات، وأنجبت خمسة أطفال، كان عليها تركهم في الملاجئ. وعندما استعادت أطفالها إليها، كانت غارقة في اليأس. وبسبب إهمال واجبها في الرعاية، حُرمت من الحضانة وسُجنت لمدة عام. لم تكن محاولتها لطرح اسمها ككاتبة ناجحة تمامًا مثل والدتها. فكتبت أكثر من مجموعة قصصية ورواية صغيرة لكن لم يخرج شيء منها للنور. لاحقًا، عملت في الفخار والخزف، وقامت بتوصيل منتجاتها. كانت يانا تِشرنا، التي أطلقت على نفسها اسم زوجها الثاني، ميلوس تِشرني، تبلغ من العمر اثنين وخمسين عامًا فقط، عندما توفيت نتيجة لحادث سيارة في الخامس من يناير عام 1981.

لم تستفد يانا أيَّ ميزة من كونها ابنة ميلينا يسنسكا. فقط في السنوات الأولى بعد الحرب، كان اسم ميلينا لا يزال يتمتع بسمعة طيبة. بقيت ذكراها حيَّة، وأشادت زميلاتها المعتقلات السابقات في رافنسبروك بسلوكها الشجاع الواضح في معسكر الاعتقال. لكن تغير ذلك عندما وصل الشيوعيون إلى السلطة في ربيع عام 1948. فصارت ميلينا توصم من وقتها كخائنة. واتُهمت أنها بسبب آرائها قد أضعفت مقاومة الشيوعيات

في معسكر الاعتقال. ثم هدأت الضجة المثارة حولها، وفي النهاية نُسي أمرها برمته. لم يُغيِّر من هذا أيَّ شيء؛ سوى ظهور رسائل كافكا إلى ميلينا في ألمانيا عام 1952. بينما أصبح كافكا كاتبًا مشهورًا عالميًا، كان لا يزال في نطاق السلطة الشيوعية يُعد مؤلفًا مُنحلًا. لم يُشَر إلى الحدث الأدبي، نشر رسائله إلى ميلينا، في تشيكوسلوفاكيا، أو براغ، مسقط رأس كافكا وميلينا، ولم يتم بيع نسخة واحدة من هذا الكتاب هناك. فرانتس كافكا وميلينا يسنسكا، اللذان لم يتزوجا خلال فترة حياتهما، اجتمعا تحت نبذ الحزب الشيوعي بوصفهما «الزوجين البرجوازيين المنحلَّين».

ظل الوضع هكذا حتى عام 1966، عندما أصبح الوضع السياسي في تشيكوسلوفاكيا أكثر ليبرالية، أعاد الباحث الأدبي إدوارد جولدشتوكر، اسم ميلينا إلى الساحة مرة أخرى. أراد أن يحررها من وصمة الخيانة، وفي الوقت نفسه، يوقف النظر إليها كمجرد ملهمة كافكا، «شهيدة المحبة».

كانت محاولة فاشلة في البداية. فرسائل كافكا أصبحت نعمة ونقمة على ميلينا. صار اسمها مشهورًا عالميًا، لكن بقيت شخصيتها مقيدة بأغلال مع كافكا، لذا عُدَت شخصية مصطنعة في رواية مراسلات. ظلَّ خفيًّا عن معظم قراء رسائل إلى ميلينا حقيقة أن هناك حياة حقيقية وراء اسم ميلينا، حيث توجد «امرأة مذهلة، وصِحافِيَّة أكثر إثارة للدهشة». كما هو الحال مع العديد من النساء اللائي لعبن دورًا في حياة رجال مشهورين وكدن يختفين بظلِّهم، كانت ميلينا مُنسحقة تقريبًا بسبب شهرة كافكا. أوائل ثمانينيات القرن الماضي بدأت في جمع وثائق عن حياة ميلينا، عندما كان لا يزال يعيش شهود العيان، الذين تمت مقابلتهم، وتُرجِمَت مقالاتهم ورسائلهم إلى لغات أخرى، وبالتدريج ظهرت

أمامي شخصيتها كلها. قامت المخرجة الفرنسيَّة فيرا بِلمونت بصنع فيلم مثير للجدل حول ميلينا يسنسكا. كذلك ساهمت الرسائل التي عُثر عليها قبل بضع سنوات مصادفةً بأرشيف براغ في فهم شخصيتها. تلك الرسائل التي كتبتها ميلينا من معسكر اعتقال رافنسبروك إلى والدها وإلى زوجها الثاني يارومير كريتسار.

على الرغم من أن قصة حب ميلينا مع فرانتس كافكا لا تُمثل سوى حلقة قصيرة في حياتها، إلا أن هذا اللقاء كان ذا أهمية بالغة بالنسبة لها ولكافكا أيضًا. فعلى إثره عبرت مسارها نحو شخصية مختلفة ومستقلة للغاية. في سعادة وتعاسة هذا الحب المستحيل، كُشِفَ عن حدود وإمكانيات شكلين أساسيين للحياة، والتي كانت في النهاية غير متوافقة. كتب مُدوِّن سيرة كافكا راينر شتاخ: «بدأ [كافكا] بتصميم شكل حياته، والتي يُمكن لميلينا أن تنضم لها، وهو ما يمكن تصوره؛ أن تتبعه في عالمه، ولكن لا، لم يحدث هذا. لقد أدركت ذلك وبررته أيضًا».

كانت ميلينا تُمثل لكافكا إلزامًا كبيرًا، ولكن لتحقيق ذلك كان يفتقر القوة للتغلب على خوفه في اللحظات الحاسمة. هذا الخوف في النهاية هو ما دفعه للفرار من ميلينا والتراجع نحو «جحره» الآمن. لقد احتاج إلى تلك المسافة التي سمحت له بقدر كبير من الوضوح واليقظة الأخلاقية، لكنها عزلته عن الناس. هرب من تلك الحياة التي أوشكت ميلينا على إيقاعه فيها. عرفت ميلينا خوف كافكا قبل أن تعرفه، لكن هذا الخوف لم يمنعها من تعريض نفسها لحياته. كان من المستحيل عليها إتباع كافكا في عالمه، لأنها كانت قريبة جدًا من أرض الواقع، ومختلطة بعالم البشر، والكثير من النساء، والعشاق، والضحايا. عاشت بحماس وإسراف،

لكن كانت دائمًا على استعداد لتحمل تبعات الجوع في حياتها. «أنا مَن يدفع الثمن»، هكذا وصفت المبدأ الذي أمضت عليه حياتها. وفقًا لهذا المبدأ، المرجعية الذاتية، والمليئة بالفضائح، أصبحت امرأة على دراية بمسؤوليتها الاجتماعية، وكانت مستعدة لوضعها في معسكر اعتقال. ربما بجانب «عالم كافكا» ينبغي دائمًا اعتبار «مبدأ ميلينا». فبجانب حياة مليئة بالخوف لكن تظل مع ذلك خاضعة ليقظة أخلاقية، وتوجس من السقوط في الحياة، والعمل، والعطاء، والمحبة.

في عام 1995، مُنحت ميلينا يسنسكا ويواخيم فون تسدفيتس لقب «الصالحين بين الأمم». تُكرِّم هذه الجائزة الأشخاص غير اليهود، الذين خاطروا بحياتهم في العهد النازي لإنقاذ اليهود. تم نقش اسم ميلينا وفون تسدفيتس على قائمة في نصب ياد فاشيم التذكاري للهولوكوست بالقدس. كان تسدفيتس لا يزال قادراً على حضور الاحتفال كرجل عجوز. لكنه شعر «كأنه ديناصور»، ينتقل إلى زمن كان فيه لا يزال طالبًا ساذجًا. قال: «كنت صغيرًا وأحمقًا في ذلك الوقت، لكن على الأقل أدركت حينها أن ميلينا كانت شخصًا عظيمًا للغاية».

بعد نهاية الحرب، تلقى تسدفيتس رسائل شكر من أشخاص أنقذهم مع ميلينا من النازيين. طلب منه الصحفي فالتر تشوبيك، وهو أيضًا ممن أنقذهم، أن يبعث برسالة إلى يانا ابنة ميلينا: «أخبرها بما لا يمكن وصفه بكلمات، أن ميلينا يسنسكا ستظل في ذاكرتي كأرحم وأعظم شخص التقيت به في أي وقت مضى. نُكران ذاتها، وشجاعتها، وعزمها، وجرأتها، كم كان عليها أن تبذل لتكون شخصًا غير عادي! لا يوجد تعبير يناسب لذلك».

الجدول الزمني للأحداث

التاريخ	الأحداث
1896	ولدت ميلينا في العاشر من أغسطس في براغ، كأول طفلة للزوجين يان يسنسكي وزوجته ميلينا هيزلاروفا
1899	ولد شقيقها يان (ينيتشك)، لكنه مات بالفعل وهو رضيع.
1902 ـ 1907	ميلينا تجتاز الشهادة الابتدائية. تنتقل الأسرة إلى شقة كبيرة بزقاق أوبست في براغ. يان يسنسكي يفتح عيادة أسنان ويُدرِّس كأستاذ في الجامعة.
منذ عام 1907	طالبة بمدرسة مينرفا للبنات، بجانب رعايتها للأم المريضة.
1913	وفاة الأم.
1915 ـ 1917	امتحانات الشهادة الثانوية في ربيع عام 1915. ترك كلية الطب بعد بضعة فصول دراسية فقط. تستدين، وتتعاطى المخدرات، وترتكب أعمال السرقة، وتتنقل بين مقاهي براغ حيث تلتقي بموظف البنك إرنست بولاك. من أجل وضع حد لعلاقتها مع بولاك يحجزها والدها في مستشفى للأمراض العقليّة.

بعد خروجها، تزوجت ميلينا من إرنست بولاك وانتقل الاثنان إلى فيينا. بينما أصبح بولاك مركز المشهد الثقافي بالمقهى، تحاول ميلينا كسب قوتها من حمل الحقائب والتدريس. تعيش في فقر مُدقع يدفعها للسرقة. تكتب مقالات لمجلة تريبونا عن فيينا. التقت بفرانتس كافكا أثناء زيارة إلى براغ، ورغبت في ترجمة قصته الوقاد إلى اللغة التشيكية.	1918 ـ 1919
تبادل الرسائل مع فرانتس كافكا، الذي زارها في فيينا بحلول يونيو 1920. يفترق الاثنان عن بعض بعد لقاء آخر في جموند. ومع ذلك، يعهد لها كافكا بمذكراته. ربما زارت ميلينا كافكا المريض قبل وفاته بفترة وجيزة في الثالث من يونيو 1924 في كيرلينج بالقرب من فيينا.	1920 ـ 1923
تنفصل ميلينا عن بولاك الذي عُرف بعدم إخلاصه، وتترك فيينا مع الكونت شافجوتش. يقضون سنة في بوخهولتس بالقرب من درسدن مع الزوجين رولي وجيرستل، قبل أن تعود ميلينا إلى براغ وتنجح في العمل كصحفية.	1924 ـ 1925
تسافر في رحلة عمل إلى ضواحي براغ، حيث تلتقي بالمهندس المعماري ياروميير كريتسار. يتزوج الاثنان في أبريل 1927. أثناء فترة الحمل، يحدث التهاب مفصلي حاد. تحتاج لعملية جراحية. في 14 أغسطس 1928، ولدت الابنة يانا (تدعوها: هونزا). تتصلب ساق ميلينا اليمنى. أصبحت تعتمد على المسكنات التي كان عليها تناولها من أجل الألم.	1925 ـ 1928

1929 ـ 1936	صعوبة العودة للعمل. تقاطعها الصحف الليبرالية. تكتب في الصحف اليسارية وتعتنق الأفكار الشيوعية عن اقتناع، لكن بعد حين يخيب ظنها فتترك الحزب الشيوعي. زوجها يارومير كريتسار يسافر للعمل كمهندس معماري في الاتحاد السوفيتي. ينتهي زواجها. تنتقل ميلينا إلى شقة صغيرة مع يانا وتلتقي بالشيوعي المضطربة ايفجن كلينجر.
1937 ـ 1938	بعد اعادة التأهيل الناجحة تبدأ ميلينا الكتابة لصحيفة بريتومنوست المرموقة. كتبت العديد من المقالات حول اللاجئين في المناطق الحدودية التشيكية، وحول الوضع السياسي في منطقة السوديت. تؤيد تحالف القوى الديمقراطية ضد زحف الفاشيين.
1939	بعد احتلال القوات الألمانية لبراغ، تصبح شقة ميلينا مخبأً للمضطهدين. تعمل مع النبيل تسدفيتس على مساعدة المستضعفين للفرار عبر الحدود إلى بولندا. لا تزال تكتب في بريتومنوست لتعزيز إرادة المقاومة للشعب. بعد حظر بريتومنوست تنضم إلى مجموعة مقاومة وتكتب لصحيفة فبوي غير القانونية. في 11 نوفمبر، قُبِضَ عليها واقتيادها إلى سجن بانكراتس في براغ.
1940	على الرغم من تبرأتها في جلسة محكمة بدرسدن، إلا أنها وضعت تحت الحبس الاحتياطي من قبل الجستابو. في أكتوبر 1940، رأت ابنتها يانا ووالدها في سجن بانكراتس لآخر مرة. بعد ذلك بفترة وجيزة، تم إحضارها إلى معسكر اعتقال النساء رافنسبروك.

1940 ـ 1944	تعمل في القسم الطبي بمعسكر الاعتقال، وتُنقذ المريضات من موت محقق عبر تزييف التشخيصات. تتعرف على مارجريته بوبر ـ نويمان، التي كانت سابقًا سجينة في معسكرات سوفيتية، وتتعارض مع الشيوعيات في المعسكر، اللواتي يأملن بتحرير القوات الروسية لهن. تكشف عن الانتهاكات في القسم الطبي ومن ثم تحرر صديقتها بوبر ـ نيومان من القبو. المراسلات مع الأب وابنتها يانا. في 17 مايو، ماتت ميلينا يسنسكا من جراحة بالكلى. أحرقَ جسدها في محرقة المخيم، ويُنثر الرماد في البحيرة المجاوَرة.
1952	تُنشر رسائل كافكا إلى ميلينا، التي حرّرها ويلي هاس.
1995	أُدرِج اسم ميلينا يسنسكا في قائمة «الصالحين بين الأمم» في النصب التذكاري للهلوكوست من قِبل مؤسسة ياد فاشيم.

شكر

إلى محرري: فرانك جريسهايمر، الذي قدَّم مساعدات، واستشارات، وانتقادات لا غنى عنها طوال رحلتي مع ميلينا.

كما أشكر بياته شيفر وزابينه ساد على المساعدة في الترجمة.

أيضًا أتوجه بالشكر للسيدة المونسنيور سفيتلانا بتاتشنيكوفا، مديرة أرشيف خدمات الأمن في براغ، على منحها الإذن باستخدام خطابات ميلينا من معسكر اعتقال رافنسبروك في هذا الكتاب.

أخيرًا، أود أيضًا أن أشكر جميع الأصدقاء الذين قدموا لي، من دون معرفتي، إسهامًا قيمًا من خلال العديد من النقاشات.

المراجع

أولاً: مقالات ورسائل ميلينا يسنسكا

- Milena Jesenská: «Ich hätte zu antworten tage - und nächtelang». Die Briefe von Milena, hrsg. von Alena Wagnerová, Frankfurt/M.: Fischer 2005.
- Milena Jesenská: Alles ist Leben. Feuilletons und Reportagen 1919 - 1939, Frankfurt/M.: Verlag Neue Kritik 2008.
- Milena Jesenská: Cesta K Jednoduchosti (Wege zur Einfachheit), Eggenfelden: Edice Archa 1982.
- The Journalism of Milena Jesenská. A Critical Voice in Interwar Europe. Edited and translated from the Czech, and with an Introduction by Kathleen Hayes, New York, Oxford: Berghahn Books 2003 (enthält Artikel Milena Jesenskás aus Tribuna, Národny listy und Lidové noviny, die Übersetzungen ins Deutsche stammen vom Autor Alois Prinz).
- Weitere, nicht in diesen Ausgaben enthaltene Artikel Milena Jesenskás sind in ver - schiedenen Übersetzungen in anderen Publikationen veröffentlicht, die an ent - sprechender Stelle genannt werden.

- Die Briefe Milena Jesenskás aus dem KZ Ravensbrück und aus dem Untersu - chungsgefängnis in Dresden sowie weitere Dokumente zu ihrem Leben befinden sich im Archiv bezpečnostních složek, Signatur Fond kontrarozvědného rozpraco - vání, a. č. KR - 579271 MV (abgekürzt als «Archiv Prag»). Sie sind teilweise abge - druckt in: A. Wagnerová, Sie war ein lebendiges Feuer. Milena Jesenskás Briefe aus dem Gefängnis, in: Neue Rundschau 2/2015 (abgekürzt als «NR»), S. 7 - 37.

ثانيًا: سير ومقالات عن ميلينا يسنسكا

- Buber - Neumann, Margarete: Milena Jesenská, «Sterben allein ist zu wenig», Mün - chen: Ullstein 2001 (Rebellische Frauen).
- Buber - Neumann, Margarete: Milena, Kafkas Freundin, Frankfurt/M.: Fischer 1989 (Ullstein 1992).
- Capovilla, Andrea: Entwürfe weiblicher Identität in der Moderne, Milena Jesens - ká, Vicki Baum, Gina Kaus, Alice Rühle - Gerstel; Studien zu Leben und Werk, Oldenburg: Igel-Verlag 2004 (Reihe Literatur - und Medienwissenschaft, 94).
- Cerná, Jana: Milena Jesenská. Aus dem Tschechischen von Reinhard Fischer; Frankfurt/M.: Verlag Neue Kritik 1985.
- Chiu, Charles: Frauen im Schatten. Mileva Einstein - Maric, Milena Jesenská, Liese Meitner, Margarete Schütte - Lihotzky, Margarete Jeanne Trakl; Wien: Jugend und Volk 1994.

- Duda, Sybille: Du, mein blaues Mädchen. Milena Jesenská (1896 - 1944) und Mar - garete Buber - Neumann (1901 - 1989), in: Horsley, Joey/Pusch, Luise (Hrsg.), Be - rühmte Frauenpaare, Frankfurt/M.: Suhrkamp 2005.
- Duda, Sybille: Milena Jesenská, 1896 - 1944, in: Duda, Sybille/Pusch, Luise F.: Wahnsinnsfrauen, Zweiter Band, Frankfurt/M.: Suhrkamp 1996 (darin: Milena Jesenská, S. 255 - 282).
- Endres, Ria: Milena antwortet. Ein Brief, Frankfurt/M. 1996.
- Gottschalk, Maren: Der geschärfte Blick. Sieben Journalistinnen und ihre Lebens - geschichte, Weinheim und Basel: Beltz Verlag 2001.
- Hockaday, Mary: Kafka, Love and Courage. The Life of Milena Jesenská, London: André Deutsch 1995.
- Jirásková, Marie: Kurzer Bericht über drei Entscheidungen. Die Gestapo - Akte Mi - lena Jesenská, Frankfurt/M.: Verlag Neue Kritik 1996.
- Klauber, Olga: Nicht nur Kafkas Freundin, Uppsala: Uppsala Univ., Dep. of slavic languages 1992.
- Kraiczi, Florian: Der Einfluss der Frauen auf Kafkas Werk, Bamberg: Univ. of Bamberg Press 2008.
- Kratzer, Hertha: Die unschicklichen Töchter. Frauenporträts der Wiener Moder - ne, Wien: Überreuter 2003 (darin: Die imaginierte Geliebte: Milena Jesenská; S. 183 - 220).

- Maase, Mira: Milena Jesenská. Ein Frauenleben gegen die Norm; ein akustisches Porträt live aus dem Kulturzentrum der Aktion Lebensqualität, München: Verlag der Zeitgenossen 1996.
- Marková - Kotyková, Marta: Mýtus Milena, Prag: Primus 1992.
- Marková, Marta: Unglück auf fast allen Seiten. Milena-Staša - Jarmila; Kafkas Elternrevolte und weibliche Rebellion, Innsbruck, Wien 2011.
- Marková - Pelinka, Marta: Die Publizistin Milena Jesenská, in: Kurt Krolop und Hans Dieter Zimmermann (Hrsg.): Kafka und Prag; Berlin, New York 1994, S 199 - 207.
- Milena Jesenská: Die Fähigkeit, stehen zu bleiben; Prag: Ministerium für Auswär - tige Angelegenheiten der Tschechischen Republik 1998.
- Mohn, Volker: Milena Jesenská in den Jahren 1937 bis 1944, München: GRIN Verlag 2010.
- Murray, Nicholas: Kafka und die Frauen, hrsg. von Angelika Beck, Düsseldorf: Artemis & Winkler 2007.
- Steenfatt, Margret: Milena Jesenská, Hamburg: Europäische Verlags - Anstalt 2002.
- Timm, Regina: Milena Jesenská - Das Leben als Wagnis, in: Kaminski, Katharina, Wege der Emanzipation. Bedeutende Frauen im 20. Jahrhundert. Zehn biografi - sche Essays, Würzburg: Königshausen & Neumann 2009, S. 55 - 73.

- Vondráčková, Jaroslava: Kolem Mileny Jesenské, Praha: Torst u. a. 1991 Wagnerová, Alena K.: Milena Jesenská, Frankfurt/M.: Fischer 2002.
- Wagnerová, Alena K.: Milena Jesenská. «Alle meine Artikel sind Liebesbriefe», Mannheim: Bollmann 1994.

ثالثًا: شهادات وردت في كتابات أخرى

- Alt, Peter - André: Der ewige Sohn, München: Beck 2005.
- Beer, Fritz: Hast du auf Deutsche geschossen, Grandpa? Fragmente einer Lebens - geschichte, Berlin u. a.: Aufbau 1992.
- Binder, Hartmut: Ernst Polak - Literat ohne Werk, in: Jahrbuch der Deutschen Schillergesellschaft (Stuttgart), Jg. 23, 1979, S. 366 - 415.
- Brod, Max: Franz Kafka, Frankfurt/M.: Fischer 1952 Brod, Max: Streitbares Leben, München: Kindler 1960.
- Haas, Willy, Die literarische Welt, München: Paul List Verlag 1960.
- Jacoby, Henry: Davongekommen. 10 Jahre Exil 1936 - 1946. Erlebnisse und Begeg - nungen. Prag, Paris, Montauban, New York, Washington: Sendler 1988.
- Kafka, Franz: Briefe 1918 - 1920, hrsg. von Hans - Gerd Koch, in: Kafka, Franz, Schriften, Tagebücher, Briefe. Kritische Ausgabe, Band 4, hrsg. von Gerhard Neu - mann u. a., Frankfurt/M.: Fischer 2013.

- Kafka, Franz: Briefe an Milena. Erweiterte und neu geordnete Ausgabe, hrsg. von Jürgen Born und Michael Müller, Frankfurt/M.: Fischer 2004.
- Kafka, Franz: Tagebücher, 1914 - 1923, Gesammelte Werke in zwölf Bänden, Band 3, nach der kritischen Ausgabe hrsg. von Hans - Gerd Koch, Frankfurt/M.: Fischer 2004.
- Kaus, Gina: Und was für ein Leben ... mit Liebe und Literatur, Theater und Film; Hamburg: Albrecht Knaus 1982.
- Kleinwort, Malte: Kafkas Verfahren. Literatur. Individuum und Gesellschaft im Umkreis von Kafkas Briefen an Milena, Würzburg: Königshausen & Neumann 2004.
- Marková, Marta: Auf ins Wunderland! Das Leben der Alice Rühle - Gerstel, Inns - bruck: Studienverlag 2007.
- Prinz, Alois: Auf der Schwelle zum Glück. Die Lebensgeschichte des Franz Kafka, Weinheim, Basel: Beltz & Gelberg 2005 (Gulliver 2013).
- Stach, Reiner: Kafka. Die Jahre der Erkenntnis. Frankfurt/M.: Fischer 2008 Sulzer, Dieter: Der Nachlass von Ernst Polak im Deutschen Literaturarchiv, in: Jahrbuch der deutschen Schillergesellschaft (Stuttgart), Jg. 23, 1979, S. 514 - 548.
- Szittya, Emil: Das Kuriositäten - Kabinett, Konstanz: See - Verlag 1923.
- Urzidil, Johannes: Prager Triptychon, München: Albert Langen/Georg Müller 1960.

رابعًا: مقالات في مجلات

- Kazmirowski, Bertram: Erinnerungen an Milena, in: Vorschau und Rückblick, Monatsheft für Radebeul und Umgebung Heft 8, 2015.
- Schmidt, Birgit: Das tiefe Schweigen. Die Widerstandskämpferin Milena Jesenská, in: Jungle World. Die linke Wochenzeitung, Nr. 31/2014; http://jungle - world.com/ artikel/2014/31/50342.html.
- Fuld, Werner: Unter Spitzeln. Eine unglaublich wahre Geschichte – Kafkas Freun - din Milena Jesenská im Widerstand, in: FOCUS Magazin, Nr. 23 (1996).
- Kämmerlings, Richard, Das erschütternde Ende der Kafka- Geliebten Milena, DIE WELT von 16.6.2015; http://www. welt.de/kultur/literarischewelt/article142502811/ Das - erschuetternde - Ende - der - Kafka - Geliebten - Milena. html.
- Kasten, Ulrich: Milena Jesenská, eine außergewöhnliche Frau und mutige Kämp - ferin; Fürstenberger Förderverein Mahn - und Gedenkstätte Ravensbrück e.V.; http://www. ffmg - ravensbrueck.de/de/archiv/80 - milena - jesenska - eine - ausserge - woehnliche - frau.html?showall=1.
- Darowska, Lucyna: Jenseits von Furcht: Milena Jesenská. Zur widerständigen Pra - xis der Prager Journalistin gegen den Nationalsozialismus, in: http://geb.uni - gies - sen.de/ geb/volltexte/2012/9127/pdf/SdF_2012_2_S56_64.pdf.

- Mena - Bohdal, Helga (1990): Milena Jesenská; Salzburger Nachrichten, 6. August 1990.
- Milena. La Bohémienne, DER SPIEGEL, Nr. 14/1964.
- Misová, Jitka: Milena - nicht nur Kafkas Freundin und Übersetzerin, in: «Wen kümmert's, wer spricht»: Zur Literatur und Kulturgeschichte von Frauen aus Ost und West (1991), S. 131 - 138.
- Moniková, Libuše: Lebendiges Feuer, DIE ZEIT 33/1996.
- Pohl, Ronald: Milena Jesenská: Den Menschen helfen konnte auch sie nicht, Neue Rundschau: 126. Jg., 2015, Heft 2. Frankfurt: S. Fischer, Unter Spitzeln. Eine unglaublich wahre Geschichte - Kafkas Freundin Milena Je - senská im Widerstand, FOCUS Magazin, Nr. 23/1996.

خامسًا: مراجع تحمل خلفيات (تاريخية، اجتماعية... إلخ)

- Brandes, Detlef: Die Tschechen unter deutschem Protektorat, hrsg. vom Vorstand des Collegium Carolinum, Forschungsstelle für die böhmischen Länder, Mün - chen: Oldenbourg 1969.
- Brod, Max: Der Prager Kreis, Frankfurt/M.: Suhrkamp 1979.
- Demetz, Peter: Mein Prag. Erinnerungen 1939 - 1945, Wien: Zsolnay 2008 Demetz, Peter: Prag in danger. The years of German occupation, 1939 - 45, New York: Farrar, Straus and Giroux 2008.

- Hundert Jahre Arbeit. Bericht über die Landesausstellung in Prag 1891, Prag: Verlag des Actionscomités 1892.
- Hoensch, Jörg K.: Geschichte der Tschechoslowakei, Stuttgart: Kohlhammer 1992 Iggers, A. Wilma: Frauenleben in Prag. Ethische Vielfalt und kultureller Wandel seit dem 18. Jahrhundert, Wien: Böhlau 2000.
- Křen, Jan: Die Konfliktgemeinschaft. Tschechen und Deutsche 1780 - 1918, Mün - chen: Oldenburg Verlag 2000.
- Seibt, Ferdinand: Deutschland und die Tschechen. Geschichte einer Nachbar - schaft in der Mitte Europas, München: Piper 1998.
- Wagenbach, Klaus: Kafkas Prag. Ein Reisebuch, Berlin: Wagenbach 2000.
- Zweig, Stefan: Die Welt von gestern. Erinnerungen eines Europäers, Frankfurt/M.: Fischer 1991.

سادسًا: معسكر اعتقال رافنسبروك

- Bessmann, Alyn / Eschebach, Insa: Das Frauen-Konzentrationslager Ravensbrück. Geschichte und Erinnerung. Ausstellungskatalog der neuen Hauptausstellung, er - öffnet im April 2013, Berlin: Metropol Verlag 2013.
- Benz, Wolfgang/Distel, Barbara (Hrsg.): Die Orte des Terrors. Geschichte der na - tionalsozialistischen Konzentrationslager, Band 4, Flossenbürg, Mauthausen, Ra-vensbrück, München: Beck 2006 (zum KZ Ravensbrück, S. 473 - 550).

- Strebel, Bernhard: Das KZ Ravensbrück. Die Geschichte eines Lagerkomplexes, Paderborn: Schöningh 2003.
- Breur, Dunya: Ich lebe, weil du dich erinnerst. Frauen und Kinder in Ravensbrück, Berlin: Nicolai 1997.
- Degen, Barbara: Das Herz schlägt in Ravensbrück. Die Gedenkkultur der Frau - en, Opladen: Verlag Budrich 2010 {Schriften aus dem Haus der Frauengeschichte, Band 5}.
- Kathrin Mess: «... als fiele ein Sonnenschein in meine einsame Zelle». Das Tagebuch der Luxemburgerin Yvonne Useldinger aus dem Frauen - KZ Ravensbrück, Berlin: Metropol Verlag 2008.
- Salvesen, Sylvia: Tilgi - Men Glem Ikke / Vergebt - doch vergesst nicht, Weimar, Sammlung MGR/StBG. - 2000/434. Bestände aus den Sammlungen der Mahn - und Gedenkstätte Ravensbrück.
- Schäfer, Silke: Zum Selbstverständnis von Frauen im KZ. Das Lager Ravensbrück, Dissertation, Berlin 2002; http://webdoc.sub.gwdg.de/ebook/diss/2003/tu - berlin/diss/2002/schaefer_silke.pdf.
- Tillion, Germaine: Frauenkonzentrationslager Ravensbrück, Lüneburg: zu Klam - pen 1998.
- Walz, Loretta: «Und dann kommst du dahin an einem schönen Sommertag». Die Frauen von Ravensbrück, München: Verlag Antje Kunstmann 2005.

- Walz, Loretta: Erinnerungen an Ravensbrück. Überlebende des Frauenkonzentra - tionslagers berichten. In Zusammenarbeit mit der Mahn - und Gedenkstätte Ra - vensbrück, im Auftrag der Stiftung Brandenburgische Gedenkstätten, gefördert vom Ministerium für Arbeit, Soziales, Gesundheit und Frauen des Landes Bran - denburg, Berlin: Loretta Walz Videoproduktion; http:// videoarchiv - ravensbrueck. de

سابعًا: أفلام سينمائية وبرامج إذاعيَّة

- «Alle meine Artikel sind Liebesbriefe». Die Journalistin Milena Jesenská. Hörfunk - sendung von Roland und Sabine Altenburger, SWR2 1996.
- «Das Einzige, was ich schreiben kann, sind Liebesbriefe»: Das Leben der Milena Jesenská, von Nicole Strecker, WDR 2001.
- Die rasende Sehnsucht nach einem ganz anderen Leben: Milena Jesenská, Film von Gabriele Röthemeyer, ZDF, 3sat 1991.
- Geliebte Milena, (F/Kan./BRD 1990); Verfilmung nach dem Roman von Jana Černá mit Valérie Kaprisky als Milena, Regie: Verá Belmont.
- Kourimska 6, Prag: Milena Jesenskás letzte Adresse. Ein Film von Birgit Kienzle, SWF 1991.
- Feuer an bloßer Haut - Franz Kafka und Milena Jesenská, Hörspiel von Rolf Schneider, mit: Fritz Hammel (Kafka), Eva Herzig (Milena), Regie: Harald Kre - wer, Österreichischer Rundfunk 2008 (Neuproduktion).

المصادر

- Brief an Albína Honzáková vom Mai 1915, in: Alena Wagnerová (Hrsg.), Die Briefe von Milena.
- Brief an Max Brod vom Januar/Februar 1921.
- Margarete Buber - Neumann, Als Gefangene bei Stalin und Hitler, München: dtv 1962.
- Briefe aus dem KZ Ravensbrück vom 1. Oktober 194? Und vom 1. Mai 194? {genaues Jahr ungewiss}, Archiv bezpečnostních složek, Signatur Fond kontrarozvědného rozpracování, a. č. KR - 579271 MV, auch abgedruckt in: A. Wagnerová, Sie war ein lebendiges Feuer. Milena Jesenskás Briefe aus dem Gefängnis, in: NR 2/2015.
- Margarete Buber - Neumann, Milena, Kafkas Freundin, Frankfurt/M.: Fischer 1977.
- Ota Filip, Wer war Milena? In: Die Zeit, 7/1983, f.; http://www.zeit. de/1983/02/wer - war - milena/.
- Milena Jesenská, Der Teufel am Herd, Národní listy, 18.1.1923, in: MJ, Alles ist Leben.
- Marie Tarantová, in: Doba, 19.5.1946, zit. n. Dorothea Rein, Biographische Skizze, in Milena Jesenská.
- Jana Černá, Milena Jesenská, Frankfurt/M.: Neue Kritik 1985.

- Jaroslava Vondráčková, Kolem Mileny Jesenské, Praha: Torst 1991.
- MJ, Ein Vater, der um Verzeihung bat, in: Alice und Otto Rühle (Hrsg.), Das proletarische Kind. Monatsblätter für Proletarische Erziehung, Dresden: Am anderen Ufer 1925/26, zit. n.: Marta Marková, Unglück auf fast allen Seiten, Innsbruck, Wien, Bozen: Studien Verlag 2011.
- Hundert Jahre Arbeit. Bericht über die Landesausstellung in Prag 1891, Prag: Verlag des Actionscomités 1892.
- Jan Křen, Die Konfliktgemeinschaft. Tschechen und Deutsche 1780 – 1918, München: Oldenburg Verlag 2000.
- MJ, O umění zůstat stát, Die Kunst, stehen zu bleiben, in: Přítomnost, 5.4.1939; deutsche Übersetzung abgedruckt in: Marie Jirásková, Kurzer Bericht über drei Entscheidungen.
- MJ, děti (Kinder); Tribuna, 9.1.1921, nach: Kathleen Hayes, The Journalism of Milena Jesenská, S. 81 (alle Übersetzungen ins Deutsche aus diesem Buch stammen vom Autor Alois Prinz).
- MJ, Jaké hračky (Was für Spielzeug), Tribuna 18.12.20., nach Hockaday, Love and Courage. The Life of Milena Jesenská, London: André Deutsch 1995, S. 8 (alle Übersetzungen ins Deutsche aus diesem Buch stammen vom Autor Alois Prinz).
- Stefan Zweig, Die Welt von gestern. Erinnerungen eines Europäers, Berlin: Fischer 1992.
- Marianne Horáková, zit. n.: Wagnerová, Alena K., Milena Jesenská, Frankfurt/M.: Fischer 2002.

- Alice Miller, Du sollst nicht merken, Frankfurt/M.: Suhrkamp 1981.
- Willy Haas, Die literarische Welt, München: Paul List Verlag 1960.
- Johannes Urzidil, Prager Triptychon, München: Langen Müller 1960.
- Hartmut Binder, Ernst Polak - Literatur ohne Werk, Jahrbuch der deutschen Schillergesellschaft, 23. Jg.
- Willy Haas, Nachwort zu: Willy Haas (Hrsg.), Franz Kafka, Briefe an Milena, Frankfurt/M.: Fischer 1966.
- Brief Ernst Polaks an Willy Haas vom 19.11.1916, in: Franz Kafka, Ernst Polak, Franz Werfel. Unbekannte Briefe an Willy Haas, in: Neue Rundschau, 102. Jg. 1991, Heft 2.
- Wilma A. Iggers, Milena Jesenská, in: Frauenleben in Prag. Ethische Vielfalt und kultureller Wandel seit dem 18. Jahrhundert, Wien, Köln, Weimar: Böh - lau 2000.
- Lucyna Darowska, Widerstand und Biographie.
- Brandstätter, Christian/Schweiger, Werner J., Das Wiener Kaffeehaus, Mün - chen: Goldmann 1981.
- Emil Szittya, Das Kuriositäten - Kabinett, Konstanz: See - Verlag 1923.
- Herta Kratzer, Die imaginierte Geliebte. Milena Jesenská, in dies.: Die unschicklichen Töchter. Frauenporträts der Moderne, Wien: Überreuter 2003.
- Martin Heidegger, Sein und Zeit, Niemeyer: Tübingen 1984

- FK, Tagebuch vom 18.1.1922, in: FK, Gesammelte Werke in zwölf Bänden, Band 3: Tagebücher 1914 - 1923, Frankfurt/M.: Fischer 2004.
- Elke Fröhlich (Hrsg.), Die Tagebücher von Joseph Goebbels, München: Saur 1993 - 2008, Tagebuch vom 20.3.1938, Band I, und Tagebuch vom 3.8.1937, Band I,4.
- J. W. Brügel, Der Ranciman - Bericht, in: Vierteljahreshefte für Zeitgeschich - te, Jg. 1978, Heft 4, S. 652 - 659; auch: http://www.ifz - muenchen.de/heftar - chiv/1978_4_5_bruegel.pdf.
- zit. n. Marie Jirásková, Kurzer Bericht über drei Entscheidungen. Die Ge - stapo - Akte Milena Jesenská, Frankfurt/M. 1996: Verlag Neue Kritik.
- MJ, Brief an ihre Tochter Jana vom Anfang 1940, abgedruckt in: Wagnerová, Sie war ein lebendiges Feuer. Milena Jesenkás Briefe aus dem Gefängnis, Neue Rundschau, 2/2015.
- Alyn Beßmann, Insa Eschenbach (Hrsg), Das Frauenkonzentrationslager Ra - vensbrück. Geschichte und Erinnerung, Berlin: Metropolverlag 2013, sowie: Annette Leo, Ravensbrück - Stammlager, in: Wolfgang Benz, Barbara Distel (Hrsg.), Die Orte des Terrors. Geschichte der nationalsozialistischen Konzent - rationslager, Band 4, Flossenbürg, Mauthausen, Ravensbrück; München: Beck 2006.
- Geliebte Milena, (F/Kan./BRD 1990); Verfilmung nach den Erinnerungen von Jana Černá, mit Valérie Kaprisky, Gudrun Landgrebe und Stacy Keach, Regie: Verá Belmont.
- Yad Vashem, The righteous among the nations, http://www.yadvashem.org/ yv/en/righteous/stories/jesenska.asp.

مراجع المترجم

- رمسيس عوض، أشهر معسكر اعتقال نازي للنساء؛ رافنزبروك (1939 ـ 1945)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 2007.
- د. عبد العظيم رمضان، تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ثلاثة أجزاء، القاهرة 1997.
- مازن الحسيني، قراءة في فكر روزا لوكسمبورج، دار التنوير/ المركز الفلسطيني لقضايا السلام والديموقراطية، رام الله 2005.
- د. محمد فؤاد شكري، ألمانيا النازية؛ دراسة في التاريخ الأوروبي المعاصر (1939 ـ 1945)، مؤسسة هنداوي، القاهرة 2017.
- نيرمين سعد الدين إبراهيم، صعود النازية؛ ألمانيا بين الحربين العالميتين، دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق 2008.
- وليام شيرر/ خيري حماد، تاريخ ألمانيا الهتلرية؛ نشأة وسقوط الرايخ الثالث، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، أربعة مجلدات، بيروت 1966.

المؤلف في سطور

ألويس برينتس؛ كاتب ألماني، من مواليد بافاريا 1958، درس الفلسفة في ميونخ، وعلوم اللغة الألمانية في جامعة لودفيج ماكسيميليانز، ثم أكمل دراساته بتعلم وممارسة الكتابة الصحفية. تخصص في كتابة السير الذاتية، حيث صدر له العديد من الأعمال منها: «هانَّا آرنت» 1998، «هرمان هِسِّه» 2000، «فرانتس كافكا» 2005، «يوزف جوبلز» 2011. نال عدة جوائز وتكريمات أدبية أهمهم الوسام العالي من الأكاديمية الألمانية لأدب الشباب 2017، عن كتاب «ميلينا يسنسكا»، والذي نال عنه أيضًا جائزة إيمي السنوية.

المترجم في سطور

محمد رمضان حسين، كاتب ومترجم، خريج قسم اللغة الألمانية بجامعة الأزهر، يعمل منذ 2007 كمترجم حر، شارك بأوراق بحثية في مؤتمرات دولية للترجمة. من ترجماته: (التحدي الصيني)، اقتصاد سياسي للكاتب: فولفجانج هيرن. (ملحمة الذئاب)، رواية للكاتبة: كيتي ريشايس. (كاترينا)، رواية للكاتبة: داتسي روكشاني. (عالم باخ)، سيرة موسيقية للكاتب: فولكر هاجيدورن.





إنها سيرة حياة مليئة بالأحداث والجنون والتشويق. "ميلينا" الشابة التي شغلت الآفاق بقصة حبها الشهيرة مع كافكا، سنتعرّف عليها بشكل معمّق هذه المرّة، كما لم نعرفها من قبل. إذا كانت شهرة "ميلينا" قد تحققت بسبب الاهتمام بأدب كافكا والدراسات الواسعة عنه، فأن المؤلف هنا يكشف عن أبعاد أخرى مثيرة للحبيبة/الإيقونة، حياة الصراع والكفاح ومواجهة تحديات القرن العشرين في مرحلة شديدة التعقيد زمنيا وفي بقعة مستعرة من العالم آنذاك.

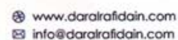
سنتعرف على دورها في الحلقات الأدبية والثقافية في عاصمتين مهمتين عاشت فيهما، ونتابع سطوع شهرتها الصحفية وإسهاماتها السياسية والنضالية، ونتلمس طاقة مفعمة بالإقدام والتثوير ومواجهة الحياة بالعفوان، ما يجعل هذه السيرة مصدراً واسعاً للتجارب الملهمة للبالغين والناشئين.

وسنتعرف في غضون سيرة الفتاة جزءاً من سيرة أوروبا الصاخبة آنذاك: صعود الاشتراكية، تنامي الشعور القومي، بوادر الحرب العالمية الأولى بسرد مشوّق ومثير. كما سنلمس المأساة التي واجهت "ميلينا" وفداحة المصير الذي كان ينتظرها وألم الفقد والحرمان من دفء العائلة والحب الضائعين. نحن أمام بطلة حقيقية أكبر مما صورته لنا دراسات أدب كافكا، أمام سيرة عطشى للحياة بكل ألمها ولذتها.



ISBN 978-9-9226076-4-1





www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain_L
dar.alrafidain
dar alrafidain دار الرافدين

